روائح ماري كلير

الحبيب السالمي



رواية

رواية تتابع تطوُّر قصة عاطفية في كلّ مراحلها: منذ لحظة تبادل النظرات الأولى، وصولاً إلى الانفصال، مرورًا بما يحكم العلاقة بين رجل وامرأة من غموض وتعقيدات وإرباكات تَفْضح هشاشة هذه العلاقة وسرعة عطبها. لحظةً بلحظة، تلتقط التفاصيل الصغيرة التي تَصْنع، بتراكمها، العيشَ اليوميَّ بكلّ أصالته وحقيقته: من الفطور الصباحي والعادات الشخصية المبتذلة، حتى رغبات الجسد وغرائزه وانفعالاته، تتقابل حضارتان وتصطدمان.

الحبيب السالمي روائي تونسي. صدرتْ له عدّة روايات، من بينها عشاق بيّة، وأسرار عبد اللّه، الصادرتان عن دار الآداب. ترجمت رواياته إلى لغات أجنبية عديدة.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-013-5



دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣

ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

الحبيب السالمي

روائح ماري كلير

رواية

دار الآداب - بيروت

روائح ماري كلير

الحبيب السالمي/روائي تونسي

الطبعة الأولى عام 2008

ISBN 978-9953-89-013-5

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

ـ ١ ـ

هل اغتسلت؟

في تلك الفترة كنت أكتفي بأن أهزّ رأسي هزّة خفيفة لا أحد باستطاعته أن يدرك معناها إلاّ هي. حالما أسحب الكرسيّ لأجلس إلى الطاولة قبالتها لتناول فطور الصباح تطرح السؤال بنبرة لا تكاد تتغيّر منذ أن صارت تقيم معي في شقّتي.

فيما بعد لا نتكلّم. نغرق في تناول الفطور كما لو أنّنا نمارس طقسًا قديمًا اعتدنا على تفاصيله لكثرة ما مارسناه. الحركات ذاتها. لا نكاد ننظر إلى بعضنا بعضًا طوال الوقت الذي يستغرقه تناول الفطور، لكنّي أكون واثقًا من أنّ ماري كلير ذات الوجه المدوّر المليء بالنمش سعيدة، إذ إنّ تناول فطور الصباح معًا بعد الاغتسال من أحبّ الأشياء إلى نفسها.

قبل أن نقيم معًا كانت ماري كلير تهرع إلى المطبخ منذ أن تفتح عينيها. تتناول فطور الصباح وتدخّن سيجارة أو اثنتين وهي ترتشف قهوتها. وبعد ذلك تدخل الحمّام للاغتسال. هذا ما اعترفت لي به ذات يوم لمّا تعمّقت صداقتنا وصارت حميميّة أكثر من أيّ وقت مضى. أبديت دهشتي. وشيئًا فشيئًا أقنعتها بأن

تتخلّى عن هذه العادة السيّئة. الطعام شيء مقدّس. الطعام نعمة ربّي كما تردّد أمّي كنت أقول لها. ولا بدّ أن نكون نظيفين لتناوله. بعد فترة قصيرة أصبحت أكثر حرصًا منّي على الاغتسال قبل تناول أيّ شيء.

أراها الآن منحنية على شرائح الخبز المشوي. تضع عليها طبقة خفيفة من الزبدة ثمّ طبقة أكثر سماكة من مربّى الكرز أو المشمش أو عنب الذيب أو الفراولة. تغمس الشرائح في القهوة الساخنة الممزوجة بالحليب، ثم ترفعها إلى شفتيها اللّتين لم أتوقّف يومًا عن اشتهائهما منذ أن عرفتها إلى أن هجرتني.

حين تفرغ من الأكل تمرّر بحركة بطيئة أصابعها على شفتيها النديّتين المنتفختين قليلاً من أثر النوم. كم هو جميل أن تشاركني فطور الصباح تقول بفرح واضح. وإذ تشرع في تدخين سيجارتها الأولى تضيف هل تعرف أنّه لا شيء أفضل من فطور الصباح؟ أهزّ رأسي موافقًا أنا الذي ولدت في دوار لا يتحدّث فيه الناس عن الطعام إلاّ ليقولوا إنّه نعمة ربّي، أنا الذي لم أكن أعرف طوال طفولتي شيئًا اسمه فطور الصباح. وإذا حدث أن تناولت شيئًا فهو كسرة متيبّسة من خبز الشعير أو القمح أغمسها طويلاً في الماء لكي أتمكّن من مضغها دون أن أعرّض أسناني التي تأخّرت في البروز للانكسار، أو في مرق شكشوكة فَضَلَ من عشاء البارحة، أو كسكسي بائت لم يمنع تركه طوال اللّيل معرّضًا للهواء من أن يزنخ، أو ما تبقّى في القِرْبَة من اللبن الذي مخضوه البارحة، أو ما أسرقه من التين والمشمش.

تنفث ماري كلير الدخان وهي تستدير بكامل جذعها إلى النافذة المفتوحة. تفعل ذلك بانتظام وعناية لكي تبعد عنّي دخانها، فهي تعرف أنّني لا أحتمله في الصباح. تتثاءب بكسل فأرى أحيانًا ضرسها الذي تكسوه طبقة من الذهب. وعندما تنتهي من التدخين ترفع ذراعيها وتضغط بأصابع يديها المشبوكتين على رأسها كاشفة لي بذلك عن إبطيها.

منذ تلك الفترة صرت مولعًا بالنظر إلى إبطي المرأة. وشيئًا فشيئًا اكتشفت أنّ هذين التجويفين اللذين تعرّيهما النساء أحيانًا دون أيّ إحساس بالحرج هما من أكثر المواضع إثارة في أجسادهنّ خصوصًا حين يكونان محلوقين. عندما أدسّ أنفي في أحدهما وأشتمّ الرائحة التي تنبعث منه يساورني إحساس لذيذ يذكّرني بما كنت أشعر به وأنا طفل حين أضع صدري بين نهدي إحدى أخواتي البالغات.

لمّا قلت ذلك لماري كلير للمرّة الأولى ضحكت وهي تقوّس حاجبيها استغرابًا. أنت خنزير حقًّا.. ما الذي يعجبك في الإبطين؟ الشعر أم رائحة العرق؟ إلاّ أنّها ظلّت طوال الفترة التي أمضيناها معًا تذكر أنّني مولع بهذا الموضع من جسدها. وعندما تريد أن تظهر لي أنّها تحبّني أو تريد أن تثيرني أو تعبّر لي عن إعجابها بي لسبب من الأسباب تكشف لي جيّدًا عن إبطيها أو تمسك برأسي وتدسّه في أحدهما.

بعد الانتهاء من الأكل والتدخين تظلّ ماري كلير في مكانها.

في الأعوام الأولى أحاول أن أفعل مثلها، فأنا أعرف أنّ البقاء بجانبها في تلك اللّحظات يولّد في نفسها إحساسًا شبيهًا بما تشعر به وأنا أشاركها الفطور. تتطلّع ماري كلير إلى السماء. تفعل ذلك كلّ صباح تقريبًا. الطقس غير جميل تقول حين تكون الشمس محتجبة خلف الغيوم. أحيانًا لا أستطيع أن أسيطر على رغبتي في الكلام فأقول لها ولكنّ المطر والغيوم والرّيح أشياء جميلة أيضًا.. أنت غريب! تردّ بانفعال.. أنت لا تشبه الآخرين وإلاّ كيف تعتبر الطقس جميلاً إذا كانت السماء ملبّدة بالسحب؟ أسكت وأشرع في النظر إلى الملاعق والسكاكين. أجمع فتات الخبز المتناثر على الطاولة. وأصبّ ما بقي في الفناجين من القهوة في الإبريق.

حين تخفض رأسها قليلاً وتغرق في الصمت وهو ما يحدث لها بين وقت وآخر أنتهز الفرصة وأشرع في النظر إليها خلسة. في البداية أتطلّع إلى نهديها اللذين يبدوان لي دائمًا صغيرين مقارنة بما أتيح لي أن أشاهده من نهود وإلى كتفيها وزنديها، وعنقها الذي اكتشفت فيما بعد أنّه يشبه في طوله واستقامته عنق أمّها وإلى يديها الشديدتي النعومة. ثم أثبّت بصري على وجهها المدوّر الذي يغطّيه النمش. في بعض الأحيان أحاول أن أستعيد الصورة التي ارتسمت في ذهني أو الانطباع الذي تولّد لديّ عندما وقعت عيناي عليه للمرّة الأولى.

أحبّ وجه ماري كلير. لا بسبب الشفتين اللّتين كنت أشتهيهما باستمرار، ولا لأنّه ينطوي على قدر من الجمال، وإنّما لأنّه مدوّر

أنثويّ وخصوصًا مريح. منه يشعّ خليط من الألفة والعفويّة والهدوء والذكاء. أحيانًا أنظر إليه فأشعر كما لو أنّي أنظر إلى وجه طفلة لا وجه امرأة تجاوزت الثلاثين. أحبّه أيضًا بسبب هذا النمش الذي يضفي عليه شيئًا من التميّز ويجعله مع الشعر الأشقر الناعم الذي يكاد يلامس الكتفين أكثر جاذبيّة.

كانت في البداية تخرج لسانها عندما تنتبه إلى أنّي أنظر إليها، أو تكوّر شفتيها أو تمدّ عنقها في اتجاهي مقرّبة وجهها منّي أو تتراجع بجذعها وتتطلّع إليّ بعد أن تسوّي شعرها بحركة مسرحيّة كمن يتطلّع إلى كاميرا.. تفعل ذلك وهي تبتسم أو تضحك. وفي بعض الأحيان تنهض مندفعة نحوي. تغمض عينيّ بيديها أو تطوّق عنقي ضاغطة عليه بذراعها، أو تمسك بكتفيَّ وتروح ترجّهما إلى أن أعترف بأنّي رجل مصاب بمرض التلصّص على الغير وألتزم لها بأن أتخلّى فورًا عن عادة النظر إليها بهذا الشكل خصوصًا في تلك اللّحظات التي تعقب فطور الصباح. وفيما بعد صارت تخبط الهواء بيدها دلالة على الانزعاج أو تحرّك رأسها مستهزئة أو تحدجني بنظرة تبذل جهدًا واضحًا لكي تجعلها باردة قاسية. وإن تكلّمت تسألني إن كنت نمت جيّدًا البارحة وإن كنت في حالة طبيعيّة ولا أعاني من شيء ما، أو تنصحني بأن أقلّم أظفار رجليّ التي استطالت دون أن أنتبه كالعادة إليها مؤكّدة أنّ ذلك أفضل بكثير من أن أتفرّس في وجهها كمكبوت جنسي لم ير في حياته أجزاء عارية من جسد امرأة.

في الأيّام التي نعطّل فيها معًا وهي قليلة يستغرق تناول

فطور الصباح وقتًا أطول بكثير ممّا أحتمل. وخوفًا من أن أملّ الجلوس فأقوم أو يتعكّر مزاجي أنطوي على نفسي وأشرع في التذكّر. أستعيد اليوم الذي ماتت فيه أمّي. أذكر أنّ الناس أحبّوني في ذلك اليوم كما لم يحبّوني أبدًا من قبل، وأنّ أطفال الدوّار الذين كانوا يرفضون دائمًا أن أشاركهم في لعبة كرة القدم لأنّني لا أعرف حتى كيف أركل الكرة كما يردّدون في استهزاء مكّنوني بشكل لا يدع مجالاً للشكّ من أن أراوغ أمهرهم عدّة مرّات بل وأن أسجّل أهدافًا كثيرة.. أذكر أيضًا أنّ الرجال سمحوا لي بأن أسير في الجنازة وهو ما كانوا يرفضونه بشدّة لأطفال في سنّي.. وفي الجبّانة لم يمنعوني من أن أتابع كل مراسم الدفن. أكثر من هذا أعطوني الغطاء الذي كانوا يلفّون به النعش لأعيده إلى البيت.. لمّا أشرفت على مساحة الدار قامت كلّ النساء اللاتي كنّ جالسات على الأرض ليسترحن قليلاً بعد ساعات طويلة من البكاء والعويل وأحطن بي من كل جانب لتقبيلي.. في ذلك اليوم الذي كان من المفروض أن أحزن فيه على أمّي المسكينة فرحت كما لم أفرح أبدًا في حياتي..

في بعض الأحيان ورغبة منّي في التنويع لا أستعيد اليوم الذي ماتت فيه أمّي، وإنّما أحاول أن أتذكّر ما تبقّى في الذاكرة من أحلامي الأخيرة. أعرف أنّ هذه البقايا تتداخل وتمتزج ببعضها بعضًا بشكل يزيدها غموضًا وغرابة، لكن هذا لا يزعجني إطلاقًا بل وأجده أحيانًا مفيدًا إذ يدفعني إلى التفكير في أشياء ما كانت

تخطر ببالي لو استعدت الأحلام كاملة أو منفصلة عن بعضها بعضًا.

عندما تشعر ماري كلير أن تمتّعها بجلسة فطور الصباح بلغ ذروته، وأنّها نالت ما يكفي للتعويض عمّا خسرته خلال أيّام العمل الماضية، تنهض من دون أن تحرّك الكرسي لكي لا تحدث أيّ ضجيج كما لو أنّها تخشى أن تفسد عليّ المتعة التي توفّرها لي حالة الانطواء التي أكون فيها. ببطء وهدوء تضع الفناجين والملاعق الصغيرة والسكاكين وإبريق القهوة وأواني السكّر والزبدة والمربّى وما بقي من شرائح الخبز في الصينيّة وتحملها إلى المطبخ. وبالرّغم من أنّها لا تفتح الصنبور على آخره يتناهى إليّ صوت الماء وهو يتدفّق.

تعود بعد لحظات وهي تحمل إبريق الماء. تتوجّه إلى النباتات التي تحرص على أن تكون دائمًا أمام النافذة تمامًا لكي تحصل على ما تحتاجه من الضوء. تدير لي ظهرها وتنحني قليلاً ثمّ تشرع في سقيها. بعد الاغتسال تظلّ في ثياب النوم وهي عبارة عن مريول لا شيء تحته، إذ إنّ ماري كلير تكره مثلي البيجامات التي تذكّرها بمرضى المستشفيات كما تقول. لذلك فإنّه باستطاعتي أن أرى من مكاني أجزاء حميميّة من جسدها.

أظلّ متماسكًا في العادة بل وأتوقّف عن النظر إليها. أستدير لأتطلّع إلى السماء أو أتأمّل اللّوحة التي تتصدّر الجدار المقابل، أو أنطوي من جديد على نفسي. لكنّي أهتاج في بعض الأحيان.

تتملّكني رغبة مجنونة في أن آتيها وهي منحنية على النباتات.
أعرف جيّدًا أنّ ماري كلير لا تحبّ ذلك فهي ليست بقرة ولا أنا ثور كما تقول، ولأنّ هذا النوع من الأفعال لا يليق في رأيها بالصباح. إلاّ أنّها تسمح لي بين وقت وآخر خصوصًا في الفترات التي تحبّني فيها كثيرًا أن أسقيها في الوقت الذي تسقي النباتات بعد أن نسدل ستارة النافذة طبعًا..

ـ ٢ ـ

في البداية رأيتها في المرآة المقابلة للطاولة التي كنت أجلس إليها.

أحيانًا أحاول أن أستعيد الصورة التي ارتسمت في ذهني عندما وقعت عيناي عليها للمرّة الأولى، لكنّني لا أستطيع. لمّا رفعت رأسي شاهدتها. لا أدري إن كانت قد انتبهت إلى وجودي. لا أدري أيضًا متى جاءت إلى المقهى لأنّني لم أشعر بأيّة حركة ولم أسمع أيّ شيء حولي. لا بدّ أنّني كنت مستغرقًا في القراءة. ولابدّ أيضًا أنّها كانت حريصة وهي تجلس على ألاّ تحدث أيّ ضجيج يلفت انتباه الناس إليها. كلّ ما أدريه هو أنّها كانت تجلس خلفي تمامًا في مكان لا تفصله عن طاولتي سوى بضعة أشبار.

لم أنظر إليها جيّدًا. ربما لهذا السبب أنا عاجز عن استعادة ما ارتسم منها في ذهني لما وقعت عليها عيناي لأوّل مرّة. عدت إلى القراءة. وحين رفعت رأسي من جديد بعد وقت طويل أخذت أهتمّ بها. كانت قد غيّرت قليلاً من طريقتها في الجلوس فبدت لي مختلفة.

العنق الطويل المستقيم هو أوّل ما لفت انتباهي. يليه النمش الذي يغطّي الوجنتين. ولكن بالرغم من ذلك شعرت بشيء يجتذبني في هذا الوجه المدوّر. ومنذ تلك اللحظة انتبهت وأنا أتطلّع إليها في المرآة أنّ لها شفتين مثيرتين.

ركّزت بصري على وجهها. وكلّما نظرت إليه ازددت انجذابًا إليه. خمّنت من ابتسامتها العريضة للنادل الذي جاءها بالقهوة أنّها من روّاد المقهى. حرّكت السكّر ببطء في الفنجان ثمّ لحست الملعقة الصغيرة طويلاً قبل أن تشرع في احتساء القهوة بتلذّذ واضح من حركة شفتيها.

كنت واثقًا من أنّ باستطاعتها أن تراني هي أيضًا في المرآة التي تعكس صورتها، لكنّي لم أكن متأكّدًا من أنّ عينيها وقعتا على وجهي، فقد كانت تنظر باستمرار إلى الشارع أو إلى مدخل المقهى الذي كان على يمينها كأنّها تنتظر أحدًا.

استدرت مسندًا ظهري إلى زجاج المقهى الذي تتطلّع من خلاله إلى الشارع. وبعد وقت قصير التفتّ إليها لأرى وجهها مباشرة فاكتشفت أنّ عينيها مثبّتتان عليّ. لم أستغرب ذلك آنذاك. ابتسمت لها فردّت بابتسامة بدت لي غير مفتعلة. عندئذ كلّمتها.

خرجت الكلمات من فمي طيّعة سهلة سريعة كأنّها كانت معدّة سلفًا لها. لم أحتج إلى أيّ جرأة كما يحدث لي عادة حين أكلّم امرأة لا أعرفها. كلّمتها كما لو أنّي أكلّم شخصًا أعرفه منذ زمن طويل. لم أعد أذكر ماذا قلت لها بالضبط، لكنّي واثق من أنّه

كان كلامًا مثل «يخيّل إليّ أنّنا التقينا ذات يوم في مكان ما. . .» أو «وجهك ليس غريبًا عليّ. .» أو شيئًا من هذا القبيل. .

ضحكت. فهي ككلّ نساء العالم تعرف بالتأكيد أنّ ما قلته ليس صحيحًا. . فرحت لضحكها. وفيما كنت أتطلّع إلى شفتيها لأتأكّد من أنّهما مثيرتان في الواقع كما بدتا لي في المرآة. رأيت للمرّة الأولى ضرسها الذي تكسوه طبقة رقيقة من الذهب. كانت تلك هي المرّة الأولى أيضًا التي أرى فيها ذهبًا في فمّ أوروبي. استغربت ذلك قليلاً. لم أكن أعرف آنذاك أنّهم يستعملون الذهب في أوروبا لعلاج الأسنان من السوس الذي ينخرها. كنت أعتقد أنّ الفلاّحين والريفيين عندنا وحدهم هم الذين يغلّفون أسنانهم بالذهب تباهيًا بثرائهم، ولاعتقادهم أيضًا أنّ ما هو برّاق ولامع جميل خصوصًا إذا كان من معدن ثمين كالذهب.

كانت قد مضت عليّ تسعة أعوام في باريس عندما تعرّفت على ماري كلير في ذلك المقهى المقابل لمدخل حديقة اللكسمبورغ الرئيسي الذي دخلته صدفة. خمسة منها أمضيتها في الدراسة. ولمّا حصلت على شهادة الدكتوراه التي لم أكن في الحقيقة متحمّسًا لها، لم أشأ أن أعود إلى تونس. واصلت العمل في الفنادق الذي كنت أحبّه، لأنّه كان يؤمّن لي كل ما أحتاج إليه فضلاً عن أنّه يمكّنني من أن ألقي كأستاذ متعاقد بعض الدروس في الجامعة كلّما جدّدوا لي العقد. كنت أيضًا أخشى إن عدت إلى تونس أن أبقى محبوسًا هناك لفترة طويلة وأن أنقطع دفعة واحدة وبشكل حادّ عن زيارة باريس، فقد كانوا يحجزون

جوازات كلّ الذين يعودون إلى تونس بعد فترة طويلة من الإقامة خارجها للتأكّد من أنّ عقولهم لم تتلوّث وأنّ حبّهم للوطن لا يزال صادقًا.

لا أدري كم مضى علينا من الوقت ونحن في المقهى. كل ما أذكره هو أنّنا كنّا آخر من غادره. شجّعني ضحكها على الانتقال إلى طاولتها. الحقيقة أنّني لم أنتقل وإنّما استدرت قليلاً لأغدو قبالتها تمامًا، ثم انزلقت بالكرسي دافعًا إيّاه في اتجاهها.

ولأنّ للحديث منطقه الخاصّ ولا أحد باستطاعته أن يتحكّم في وجهته خصوصًا في مثل هذه الحالات، خضنا في مواضيع كثيرة.. لم ينقطع حبل الكلام لحظة واحدة. تسكت فأتكلّم. وأصمت فتتكلّم. كما لو كنّا على اتفاق. كما لو كنّا نخشى أن يفسد أو يضيع شيء ما بيننا إن تركنا منفذًا يستطيع الصمت أن يتسلّل من خلاله إلينا. في ذلك اللقاء الأوّل وفي ذلك المقهى الذي دلفت إليه مصادفة علمت أشياء كثيرة عن أوّل امرأة حقيقيّة في حياتي.

علمت أنّ ماري كلير التي انقطعت عن دراسة التاريخ والجغرافيا في جامعة نانتير من دون أن تكمل الليسانس، لأنّه لم تعد تريد أن تصبح أستاذة مثلما كانت تحلم بذلك. عيّنت منذ أشهر قليلة موظّفة في دائرة البريد والبرق والهاتف في شارع مونبارناس بعد نجاحها في مناظرة للوظيفة العموميّة. اختارت العمل في البريد لأنّ القطاع العام يضمن لها خلافًا للقطاع

الخاصّ الشغل طوال حياتها. . فماري كلير لا تحبّ أن تجد نفسها في يوم من الأيّام عاطلة عن العمل. كان بإمكانها طبعًا أن تعثر على شغل آخر في القطاع العام له علاقة ما بما درسته في الجامعة أو بعالم الكتب والمدارس. أمينة مكتبة مثلاً. لكنّها اختارت البريد تحديدًا لأنّها تحبّ الرسائل والطرود والبرقيّات وكلّ ما له علاقة بالبريد منذ صغرها.

لم يكن المنصب الذي تحتلّه في البريد يتيح لها أن تكون على علاقة مباشرة بالرسائل، فهي بحكم دراستها في الجامعة أكبر من أن تكلّف بالقيام بهذه الأعمال الصغيرة كاستلام الرسائل في الشبابيك أو تسليمها لأصحابها أو ختمها. ومع ذلك فقد كانت دائمًا تجد فرصة للتمتّع برؤية الرسائل وتلمّسها.

في الأيّام الأولى تقول أنحني على العربات التي يجمعون فيها الرسائل قبل فرزها. أتطلّع إلى الطوابع المختلفة الألوان والحجوم. أتأمّل العناوين المكتوبة بخطوط مختلفة. أدسّ يدي في أكوام الرسائل. أقلّبها. أشمّها. لا أدري لماذا يخيّل إليّ دائمًا أنّها تحمل أخبارًا مفرحة. أندهش وأنا أتخيّلها تسافر في اتجاهات الريح الأربع. في السفن والطائرات والقطارات والحافلات. تعبر الفضاء والبحار والمحيطات والبلدان والقارّات. .

يتفاقم إحساسي بالدهشة حين أفتح واحدًا من أكياس الرسائل التي نستلمها. بعضها يصل مدعوكًا مفروكًا متجعّد الزوايا، لا بدّ

أنّ أياديَ كثيرة تداولته عبر انتقاله الطويل من مركز بريد إلى آخر. أحيانًا تقع يدي على رسائل قادمة من بلدان لم أسمع بها إطلاقًا، بل كنت سأشكّ في أنّها موجودة على الخارطة لو لم أقرأ أسماءها على الرسائل والطوابع البريديّة. بلدان مجهولة تمامًا بالنسبة لي رغم كل ما درسته من تاريخ وجغرافيا..

علمت أيضًا أنّها تقيم بمفردها في واحدة ممّا يسمّونه غرف الخادمات في الطابق السادس من عمارة قديمة في شارع صغير يقع بين البانتيون وساحة الكونتريسكارب ويتردّد عليه السيّاح لأنّه مليء بالمطاعم والحانات، وأنّها سعيدة وفرحة بغرفتها بالرغم من ضيقها لأنّ أغلب سكّان العمارة عزّاب وعازبات طيّبون أو عجائز يحييونها ويبتسمون لها كلّما التقتهم في المدخل أو المصعد.

أخبرتني ماري كلير أيضًا أنّ العامين الأوّلين في الجامعة كانا من أجمل فترات حياتها. خلالهما تعرّفت على شباب رائعين بعضهم أجانب من أفريقيا السوداء والغوادلوب والمارتينيك والجزائر. وخلالهما قرأت أجمل الروايات الأجنبيّة وسافرت إلى بلدان كثيرة بالسيّارة من دون أن يكلّفها ذلك الكثير، إذ كانت تكتفي بالخضر والفواكه والمعلّبات وتنام في خيمتها التي تنصبها في العراء، أو في بهو المحطّات الكبرى. اكتشفت أيضًا أنّ ماري كلير لا تحبّ السياسة ورجالها لأنّهم كذّابون ومنافقون. لكنّها تمقت العنصريّة وتتعاطف مع الفلسطينيين وتكره العنف والإرهاب وكلّ الحروب.

علمت أشياء أخرى كثيرة لا أزال أتذكّرها بالرّغم من أنّها تفاصيل صغيرة تخلو من الأهمِّيَّة، مثل أنّها تحبّ كثيرًا الطوارق ونمط حياتهم وتحلم بأن تقضي معهم يومًا واحدًا. تركب الجمال. وتحلب النوق والماعز. وتنام معهم في عراء الصحراء. أو أنّها تحبّ الرسم والنحت لكنّها لا تتردّد كثيرًا على المتاحف لأنّها تعتبرها مقابر كئيبة للفنّ. أو أنّها تكره الزهور الاصطناعيّة ولا تتحمّل حتى لمسها، أو أنّها تفضّل الصور الفوتوغرافيّة بالأبيض والأسود على الصور الملوّنة..

بعد لقاءات كثيرة في ذلك المقهى أو غيره من المقاهي القريبة من مدخل الليكسمبورغ الرئيسيّ قرّرت أن أدعوها إلى بيتي الذي يقع في شارع لا يبعد كثيرًا عن ميدان الباستيل. ولمّا فعلت أصرّت على أن تدعوني هي أوّلاً إلى بيتها. فوجئت بإصرارها. ولا أدري إلى حدّ الآن سبب ذلك.

غرفتها كانت جميلة ومريحة حقًّا. أمام النافذة الوحيدة الواسعة نبتة عالية مزروعة في أصيص ضخم من الفخّار. قبالتها سرير واطئ تحيط به من جهة الرأس طاولة صغيرة عليها جهاز ستيريو ومن جهة القدمين مكتبة تراصّت فوق رفوفها كتب وتكدّست تحف وأوان صغيرة. أمّا الجدران المطليّة بدهان أصفر مائل إلى البياض فقد علّقت عليها صور للوحات انطباعيّة مشهورة.

هي أيضًا وجدت شقّتي جميلة وخصوصًا واسعة جدًّا مقارنة

بغرفتها. وبالرغم من ذلك لمّا اقترحت عليها بعد عدّة شهور تعمّقت أثناءها علاقتنا أن تقيم معي تردّدت كثيرًا قبل أن توافق على ذلك. أعتقد أنّ تعلّقها الشديد بي الذي غدا واضحًا في ذلك الوقت لم يكن سببًا كافيًا للاقتناع بفكرة الإقامة معي في شقّتي. وأحيانًا أتساءل عمّا إذا كانت هي التي ستقترح عليّ أن أقيم معها لو كانت غرفتها أوسع..

ينبغي أن أقول هنا إنّ حضور ماري كلير الدائم في بيتي جعلني في الشهور الأولى سعيدًا إلى درجة كنت أخشى معها أن تتحوّل هذه السعادة إلى نقيضها. لم يحدث لي طوال عمري أن أحبّتني امرأة مثلما أحبّتني ماري كلير. كانت تلك هي المرّة الأولى في حياتي التي أعاشر فيها امرأة بهذا الشكل. أراها كل يوم. أشمّ رائحتها. أمسك بملابسها. أسمع وقع خطواتها. ألمس جسدها. أتفحّص أمشاطها. مشابك شعرها. قوارير عطرها. أقلّب أحذيتها. حقائبها اليدويّة. أراها تستحمّ. تدخل المرحاض. أراها تحرّك يديها. تتثاءب. تندسّ في الفراش. تغادره في الصباح. أتفرّج عليها تكحّل عينيها. تطلي شفتيها. تنتف حاجبيها. أفعل هذا وغيره متى أريد وحيثما أريد ولا أصدّق أنّ كلّ هذا المخلوق الجميل الاستثنائي لي. بهشاشته. بقوّته. بسحره. بتعقيداته. بغرابته. بتناقضاته. بتحوّلاته. بأهوائه.. لي. لي وحدي.

ينبغي أيضًا أن أعترف بأنّ وجودها الدائم في البيت إلى جانبي أربكني في الفترة الأولى، فأنا لم أعتد معاشرة النساء، ولا أعرف

كلّ ما تحب وكلّ ما تكره بالرّغم من كلّ ما قالته لي خلال جلساتنا في المقاهي، فضلاً عن أنّ النساء يتغيّرن كثيرًا كما يشاع. كنت أخشى أن أرتكب حماقة ما فأخيّب ظنّها في. لذا كنت أحاول أن أظلّ حذرًا في كلّ ما أفعله ودائم الانتباه لكلّ ما يبدر منها. أتطلّع طويلاً إلى حوض المرحاض لأتأكّد من أنّه نظيف. وقبل أن أغادر المكان أبخّره بمزيل الروائح. أضع الزجاجة التي أملأها بالماء لتنظيف نفسي في الزاوية لكي تستطيع ماري كلير أن تسحب بدون أيّ عناء ما تشاء من لفّة ورق المراحيض. لا أترك الحذاء في المكان الذي أخلعه فيه مثلما كنت أفعل عندما كنت أقيم وحيدًا وإنّما أضعه حيث ينبغي أن توضع الأحذية. أستحمّ كلّ يوم تقريبًا. وحالما أنتهي من ذلك أفتح الصنبور على آخره ليجرف الماء المتدفّق بقوّة كلّ الشعر الذي تساقط منّي. أغيّر كلّ يوم كلّ ملابسي الداخليّة وهو ما لم أفعله أبدًا من قبل. أقلعت أيضًا عن عادات لها متعتها الخاصّة. لم أعد أدسّ إصبعي في أنفي. لم أعد أتجشّأ. لم أعد أضرط بحرِّيَّة وأينما أشاء. لم أعد أتمطّق. لم أعد أمخّط أنفي بصوت عال. لم أعد أجرش جلدي خوفًا من أن تظنّ أنّي لا أغتسل بما فيه الكفاية..

صرت أيضًا أصغي لكل ما تقول. أبدي اهتمامًا واضحًا لكلّ ملاحظاتها. أردّ بسرعة على أسئلتها. أوافق بسهولة على مقترحاتها. أهرع لمساعدتها كلّما دعت الحاجة. أبتسم حين تبتسم. لا أتفرّج على التلفزيون عندما لا تبدي تحمّسًا لذلك.

وحين تكون متعبة أو تشكو من الصداع أتوقّف عن كلّ حركة وأصمت.

كنت أعرف أنّي أبالغ في الحذر. كنت واثقًا أنّ ماري كلير ليست صارمة إلى الحدّ الذي يجب أن أسلك فيه على هذا النحو، وأنّها لا تولي دائمًا اهتمامًا لكلّ هذه الأشياء. لكنّي قرّرت بيني وبين نفسي أن أكون شديد الحذر لكي أتحاشى كلّ ما يمكن أن يدفع ماري كلير ولو بصورة مباشرة إلى تغيير رأيها فيّ في تلك المرحلة الحاسمة من علاقتنا.

لمّا تغلّبت على إحساسي بالارتباك والتوتّر، قرّرت أن أتفرّغ لحلّ مشكلة لم أولها ما تستحقّ من الاهتمام بل وتجاهلتها وأهملتها رغم أنّها كانت تزعجني كثيرًا، وهي الطريقة التي تلفظ بها ماري كلير اسمي. حين تناديني أشعر كما لو أنّها تنادي شخصًا آخر. وكان هذا يؤلمني.

أمضيت وقتًا طويلاً في تعليمها لفظ اسمي بشكل صحيح. محفوظ.. وليس مهفود.. اسمعي جيّدًا.. محفوظ.. أقول لها بصوت عال، وأنا أحرص على أن تخرج الحروف من فمي بأقصى ما يمكن من الوضوح والدقّة. ولا بدّ أن أعترف أنّ ماري كلير التي لم تتحمّس للمسألة في البداية بل واعتبرتها مادّة للتندّر، بذلت جهدًا هائلاً خلال التدرّب على النطق الصحيح بعد أن أدركت أنّ الأمر يعني لي الشيء الكثير.

لم أتردّد لحظة واحدة في مساعدتها طوال الوقت الذي

استغرقه التدرّب. أحيانًا أقوم بدور المدرّب. لا أنفعل أبدًا. لا أبدي ضيقًا. أحافظ على هدوئي. أبتسم لها وأمتدحها كلّما أحرزت تقدّمًا ملحوظًا. أصف لها الحروف الصعبة اللّعينة التي لا تريد أن تخرج من فمها بسهولة. الحاء حرف حلقيّ أقول لها قبل أن أنطقه وأنا أتحسّس حنجرتي. تفتح ماري كلير فمها. تمدّ عنقها. وتشرع في نطق الحرف. يحمرّ وجهها وتلتمع عيناها وتبرز أوداجها حتى أنّني أشفق عليها.

استطاعت أن تتغلّب على صعوبات عديدة فتحسّن نطقها كثيرًا إلى درجة أنّه يكاد يكون صحيحًا في بعض الأحيان. لكنّها لم تنجح أبدًا في أن تلفظ اسمي كما ينبغي أن يلفظ. لم أعد أتألّم لذلك، فالمهمّ بالنسبة لي في المسألة هو أنّني لم أعد أشعر بفضل التحسّن الهائل الذي طرأ على نطقها كما لو أنّها تنادي شخصًا آخر عندما تناديني.

لم تكد تمضي شهور قليلة على الإقامة معًا حتى أخذت ماري كلير في تغيير كلّ ما في شقّتي. كانت تجدها جميلة. لكنّها كانت تريد جمالاً من نوع آخر. جمالاً أكثر بساطة وأقلّ بروزًا خصوصًا في الصالون. أول شيء قامت به هو أنّها غيّرت الموكيت في غرفة النوم لأنّها قديمة، ثمّ الورق الذي يكسو الجدران في الصالون لأنّ كلّ ما فيه من ألوان وأزهار كئيب فضلاً عن أنّه رديء، ويذكّرها بالغرف البائسة في الفنادق الشعبيّة.

لم تستعن بأحد مثلما كنت أتصوّر. فعلت كلّ شيء بمهارة

وسرعة. هي التي اشترت الورق وقصّته وألصقته. هي التي اختارت نوع الموكيت ولونها وعدد القطع الكافية لغرفة النوم. هي التي وضعتها وثبّتتها على أرضيّة الغرفة.

وفيما بعد غيّرت الستائر التي تشبه في ألوانها وخاصّة في أشكالها الزخرفيّة ستائر الجدّات كما تقول مازحة. وضعت مكتبتها في صدر الصالون ليكون أكثر اتساعًا، إذ إنّها تجد مكتبتي كبيرة فضلاً عن أنّ خشبها شديد القدم، وأفرغت رفّين من مكتبتها لأضع عليهما كتبي. وكل ما تبقّى من كتبها وكتبي وضعته في مكتبتي التي نقلتها إلى غرفة النوم. احتفظت بالكنبة والطاولة اللتين اشتريتهما من «سوق البراغيث»، لكنّها بدّلت موقعيهما لتجد مكانًا يليق كما تقول بطاولتها الصغيرة التي تضع عليها جهاز الستيريو. وعلى الجدران أعادت توزيع اللوحات بعد أن أضافت إليها لوحاتها الانطباعيّة. أمّا نبتتها فقد وضعتها أمام النافذة وسط نباتات أخرى اشترتها حالما انتقلت إلى شقّتي.

غيّرت أشياء أخرى صغيرة لم أكن أعيرها أيّ اهتمام. غطاء حوض المرحاض. المرآة والسجّاد ومشجب المناشف في غرفة الحمّام. بعض اللمبات والأباجورات في غرفة النوم والصالون. ألقت بأغلب أواني الطعام والطبخ في صندوق القمامة واشترت صحونًا وأدوات جديدة.

كانت حريصة على أن تعرف رأيي في كل شيء. دائمًا تشرح لي الأمر بوضوح مركّزة على الأسباب التي تجعلها تفكّر في

تغييره. ولا تشرع في تنفيذه إلاّ عندما أبدي موافقتي وخصوصًا أشعرها بما لا يدع أيّ مجال للشكّ أنّي مقتنع بذلك؛ فقد كانت تخشى أن تكون موافقتي مجاملة لها فتفرض عليّ، هي الدخيلة على عالمي كما تقول، أشياء لست متحمّسًا لها.

الحقيقة أنّي لم أكن شديد التحمّس لا لتغيير الأشياء ولا لتركها كما هي. ليس لأنّي أهمل البيت ولا أوليه ما يستحقّ من العناية، وإنّما لأنّ اهتمامي كان كلّه منصبًّا آنذاك على ماري كلير. على حضورها الذي لم يترك لي مجالاً للتفكير بشكل جدّي في أيّ شيء آخر. لكن يجب أن أقول إنّ شقّتي صارت بعد كلّ التغييرات التي طرأت عليها أكثر دفئًا وحميميّة من قبل. وكان لا بدّ أن تمضي شهور كثيرة قبل أن أدرك ذلك حقًّا.

ـ ٣ ـ

أفضّل أن أشتغل ليلاً لأنّي أحبّ اللّيل. حين أصل إلى الفندق أكون في أغلب الأحيان نشطًا جيّد المزاج. أكون قد نمت بعد الظهر وساعتين أو ثلاث قبل الغداء. ولم يكن النوم في النهار يزعجني آنذاك. كنت قد تعوّدت عليه حتى أنّي عندما لا أشتغل أقضي جزءًا هامًّا من الليل أتقلّب على الفراش أو أستمع إلى ما أعثر عليه من الإذاعات العربيّة.

أحبّ أن أغادر شقّتي حين يعود الجميع إلى بيوتهم. أسير وحدي على مهل في المدينة. أعبر شوارع كثيرة بعضها مقفر. محلاّته ومقاهيه مغلقة. والبعض الآخر لم تهدأ فيه الحركة بعد. عندما أتعب أركب الباص أو المترو متوجّهًا إلى بلفيل حيث الفندق الذي أشتغل فيه منذ سنوات.

أحبّ أيضًا عالم الفندق في اللّيل. أجلس خلف الكونتوار في الاستقبال على كرسي مقابل المدخل. أرقب حركة الدخول والخروج التي تتناقص كلّما تقدّم اللّيل حتى تكاد تنعدم. أطالع أو أستمع إلى الراديو أو أحلم أو أتخيّل قصصًا وأنا أتطلّع إلى وجوه النزلاء. عدا ذلك لا أفعل شيئًا كثيرًا. أستقبل النزلاء أو

أودّعهم. أجيب عن أسئلتهم. أردّ على بعض المكالمات في التليفون. بين وقت وآخر ألقي نظرة على الممرّ والغرف في أحد الطوابق لأتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام.

لهذا السبب لم يخطر ببالي أبدًا أن أشتغل في النهار. كما لم أفكّر يومًا أن أتخلّى عن العمل في الفنادق حتى في الأعوام التي أعثر فيها على عمل كأستاذ مؤقّت لسدّ فراغ ما، وهو أفضل ما كانوا يقترحونه عليّ منذ أن بدأت أبحث عن شغل في الجامعة.

لكن منذ أن صارت ماري كلير تقيم معي أدركت أنّه ليس بإمكاني أن أستمرّ على هذا الإيقاع، إذ إنّ العيش مع امرأة تحت سقف واحد يستوجب الكثير من التغييرات. طوال أسابيع لم تقل ماري كلير شيئًا حين تراني أغادر الشقّة للتوجّه إلى الفندق. الشيء الوحيد الذي كانت حريصة عليه آنذاك هو أن أتناول العشاء معها.

وفيما بعد أخذت تطلب منّي بإلحاح يزداد يومًا بعد يوم أن أبقى معها وقتًا طويلاً بعد العشاء. وكانت تجد أعذارًا كثيرة لذلك. ثمّة فيلم رائع في التلفزيون اللّيلة تقول.. ولابدّ أن تتفرّج عليه معي، فأنا لا أحبّ أن أشاهد الأفلام وحيدة.. أو أريدك أن تستمع معي إلى هذه الأسطوانة الجديدة؛ ويهمّني كثيرًا أن أعرف رأيك فيها.. وفي بعض الأحيان تشكو من صداع أو وجع ما، أو تكون في حالة نفسيّة سيّئة تستوجب حضوري إلى جانبها أكثر ما يمكن من الوقت.

وبعد شهور قليلة أخذت تشكو من العزلة. كانت تفعل ذلك بشكل يثير شفقتي عليها أحيانًا: الفراش بارد بدونك.. في اللّيل أمدّ يدي إلى مكانك. أريد أن ألمسك.. ألمسك لأشعر فقط أنّك إلى جانبي.. في بعض الأحيان أخاف، أتكوّر في الفراش تحت الغطاء وأخفي رأسي تحت المخدّة.. وأفكّر في أشياء كثيرة لأحاول أن أنسى خوفي فأنام، لكنّي أظلّ يقظة حتى الفجر!

ولمّا صرت أنزعج من شكواها سألتها عمّا يمكنها أن تقترحه من حلول، فأجابت بلهجة من درس الأمر جيّدًا أنّه عليّ أن أشتغل في النهار، وأنّه باستطاعتي إن أردت أن أقنع صاحب الفندق بذلك بل وأنّها مستعدّة أن تطلب منه هي ذلك.

فكّرت طويلاً في الأمر. كان لا بدّ أن أُقنع نفسي قبل كل شيء. والشيء الذي جعلني أقبل الفكرة بدون نقاش طويل هو أنّي هيّأت نفسي لها، فقد حدست مبكرًا ما كانت ماري كلير تريد الوصول إليه منذ أن بدأت تطلب منّي أن أبقى معها بعد العشاء، ثم إنّ الشغل في النهار يترك لي قليلاً من الوقت خلافًا لما كنت أعتقد، ولا يحرمني بالتالي من إمكانيّة إلقاء بعض الدروس في الجامعة إذا طلبوا منّي ذلك.

لم يتردّد صاحب الفندق كثيرًا في الموافقة خصوصًا أنّ زميلي المغربي تطوّع ليحلّ محلّي خلال كلّ الأيّام التي كنت أشتغل فيها ليلاً مقابل أن أمكّنه، بين وقت وآخر في الأعياد الدينيّة وشهر رمضان، من أن يقضي السهرة مع عائلته.

كنت شبه واثق من أنّ صاحب الفندق سيستجيب لطلبي فقد كانت تربطني به علاقة جيّدة. كان شديد الإعجاب بي. بسلوكي. بأفكاري رغم فارق السنّ. بتفوّقي في الدراسة. وخصوصًا بعملي. كان فخورًا بأنّ دكتورًا في الأدب العربي يشتغل في فندقه، هو الذي لا يعرف من لغة الأجداد كما يقول دائمًا بالفرنسيّة سوى ما تبقّى في ذاكرته من أبيات الشعر التي حفظها في ثانويّة في عنابة قبل أن يهجر المدرسة ليشتغل مع أبيه في التجارة، ثم يهاجر إلى فرنسا.

كان لديه أيضًا ميل للتونسيين، لأنّ جدّته لأمّه التي كان شديد التعلّق بها من أصل تونسي هاجرت عائلتها قبل أن تولد إلى شرق الجزائر واستقرّت في عنابة حيث كان الشغل متوافرًا.

تعوّدت شيئًا فشيئًا على العمل في النهار. واكتشفت أنّ له متعته ومزاياه. كنت أحرص على أن أعود إلى البيت مبكرًا إن كان ذلك ممكنًا، لأنتظر عودة ماري كلير. فقد كانت تحبّ أن تجدني في البيت. حالما يتناهى إليّ صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب أنهض وأنتصب خلفه. تندفع نحوي وهي تصيح فرحًا. تحتضنني بقوّة وتشرع في تقبيلي كما لو أنّها لم ترني منذ أيّام طويلة. قُبل كثيرة تعلّمت بمرور الأيّام وبشيء من الصعوبة أن أعتبرها مجرّد قبل للترحيب والاحتفاء وليست قبلاً جنسيّة.

وعندما تكفّ عن تقبيلي ترمي بحقيبتها اليدويّة على الكنبة أو الطاولة. تخلع الجاكتة أو المعطف بسرعة كما لو أنّها تتخلّص

من عبء. تنزع حذاءها وتتركه على أرضيّة الصالون. كانت تحدث خللاً في نظام الأشياء وقليلاً من الفوضى. وكنت أحبّ هذه الفوضى التي لا تدوم وقتًا طويلاً إذ إنّ ماري كلير تضع فيما بعد كلّ شيء في مكانه.

تجلس بالقرب منّي. وتطرح عليّ أسئلة كثيرة. تسألني عمّا فعلت في البيت طوال غيابها إذا لم أذهب إلى الشغل. تسألني عمّا أعددت للغداء وعما إذا كان شهيًّا. تسألني عمّا إذا غفوت بعد تناول الطعام. تسألني عمّا قرأت. وإذا قلت لها إنّني خرجت تسألني عن الأمكنة التي ذهبت إليها وعمّا فعلته هناك..

وفي الأيّام التي أشتغل فيها تسألني عمّا إذا وجدت صعوبة في الذهاب إلى الفندق أو العودة إلى البيت، وعمّا إذا كان هناك ازدحام شديد في الباص أو المترو. تسألني عمّا إذا تغذّيت جيّدًا، عمّا إذا كان هناك شغل كثير، عمّا إذا كان هناك بين النزلاء أجانب من بلدان بعيدة.. بالرّغم من أنّني قلت لها عدّة مرّات إنّ أغلب الذين يتردّدون على الفندق هم سود وعرب وأتراك.

وإذا حدث أن ذكرت لها شيئًا غريبًا تلتصق بي كطفلة. تلتمع عيناها، وتطلب منّي بإلحاح أن أرويه لها، من أوّله إلى آخره وبكلّ تفاصيله الدقيقة. وعندما تلاحظ أنّني لست متحمّسًا لذلك تزداد التصاقًا بي. تمسك بيدي وتكرّر الطلب بإلحاح أشدّ وبشيء من التوسّل.

لا تسألني ماري كلير لمجرّد إشباع فضولها أو رغبتها في الكلام أو لمعرفة كل ما أقوم به في غيابها مثلما كنت أظنّ في البداية، وإنّما لكي تظهر لي أنّها تهتمّ بي كثيرًا. فكلّ ما يحدث لي، كلّ ما أفعله جدير بأن ينال اهتمامها لأنّها تحبّني.

كنت أنزعج أحيانًا من أسئلتها. كنت أيضًا أستغرب هذه المثابرة على طرحها والحماس الذي يرافقها دائمًا؛ لكن فيما بعد تعوّدت عليها بل وصرت أرتاح إليها وأفرح بها إلى درجة أنّي أتألّم قليلاً في بعض المرّات عندما لا تطرحها بالحماس المعهود نفسه.

إلاّ أنّ ماري كلير لا تكتفي بطرح الأسئلة والاستماع بانتباه إلى كلّ ما أقوله لها، فهي حريصة على أن تروي لي هي أيضًا ما فعلته وما حدث لها طوال الساعات التي أمضتها بعيدة عنّي. تقوم بذلك من تلقاء نفسها وبعناية واضحة. تذكر كلّ شيء بدون أن يفتر حماسها. وإذا انتبهت إلى أنّ حدثًا يستقطب اهتمامي ترويه بتمهّل ودقّة متوقّفة عند كلّ التفاصيل.

بين وقت وآخر أنصب لها فخًّا فأتظاهر بأنّ ما ترويه يسترعي انتباهي. تقع ماري كلير بسهولة في الفخّ. أكثر من هزّ رأسي. أقوّس حاجبي. أفتح عيني على سعتهما. أمطّ شفتي. أفعل كل ذلك وبأكثر ما يمكن من التلقائيّة لألهب حماسها. وعندما أصبح متأكّدًا من أنّها تورّطت تمامًا في اللّعبة أتوقّف عن القيام بأيّة حركة. أركّز نظري عليها. أتابع حركة شفتيها وذراعيها وأصابعها

ورأسها وأنا أجاهد نفسي لكي لا تنفجر ضحكتي المكتومة.

في بعض الأحيان تبدي رغبة واضحة في قضاء السهرة خارج البيت. وبالرّغم من أنّني لا أتحمّس كثيرًا لذلك أفعل كلّ ما بوسعي لأستجيب لرغبتها خصوصًا في الأعوام الأولى؛ فقد اكتشفت بسرعة أن ما تسمّيه «الخروج» شيء أساسي بالنسبة إليها. لست عجوزًا بعد.. لم أصب بعد بالروماتيزم أو الزهايمر.. تقول ساخرة. لا بدّ أن أتمتّع بالحياة. أريد أن أعيش..

والخروج لا يعني بالنسبة لماري كلير أن نغادر البيت ونتجوّل في الشوارع لنشمّ الهواء ونتفرّج على الدنيا، وإنّما أن نشرب كأسًا في بار أو نتناول العشاء في مطعم أو نذهب إلى المسرح أو نشاهد فيلمًا. وأحيانًا كل هذه الأشياء معًا إذا كان لدينا ما يكفي من الوقت.

الشيء الوحيد الذي يزعجني هو الذهاب إلى مطعم، فأنا لم أفهم إلى حدّ الآن كلّ هذا الاحتفاء الجماعي بالطعام، الذي من المفروض أن يتناوله الإنسان بتواضع بل وبشيء من الاحتشام لأنّه نعمة ربّي كما تردّد أمّي. كما أجد المطعم مكانًا غريبًا بعض الشيء، إذ ماذا يعني أن يجلس الناس إلى موائد متقاربة وفي بعض الأحيان تكاد تكون متلاصقة ثم يشرعون في الأكل وهم يتطلّعون إلى بعضهم بعضًا!!

كنت أظنّ أنّ الإحساس بالانزعاج الذي يولّده فيّ الأكل في

المطاعم سيخفّ أو يتلاشى بمرور الأيّام، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. بل أستطيع أن أقول إنّه تفاقم في الأعوام القليلة التي سبقت رحيل ماري كلير. لكن ينبغي أن أشير إلى أنّ الخروج أفادني، إذ إنّه جعلني أكتشف أهمِّيَّة السينما التي صرت معجبًا بها منذ ذلك الوقت، تمامًا مثلما كنت معجبًا بشعر الصعاليك المغمورين.

- ٤ -

- أيّة مصادفة عجيبة التي جمعتنا!.. باريسيّة مولودة في مينيلمنتون وريفي من دوار تونسي صغير..

تضحك ماري كلير وهي تقرّب يديها من وجهها لتتطلّع إلى أظفارها المطليّة بما يناسب لون شفتيها. كانت جالسة على كرسي وضعته بالقرب من النافذة المغلقة. قدماها حافيتان وذراعاها مكشوفتان للتمتّع بما يتسلّل عبر زجاج النافذة إلى الصالون من أشعّة شمس الخريف الدافئة. كان واضحًا أنّها نامت جيّدًا وتناولت فطورها كما تحبّ أن تتناوله. وكل شيء فيها، حركاتها، نظراتها، ضحكتها، طريقة جلوسها على الكرسي يوحي بأنّها سعيدة وفرحة بنفسها وبي وبالحياة في ذلك الصباح الخريفي المشمس.

أسحب كرسيًّا وأضعه بجوارها ثم أجلس عليه وأمدّ رجلي قدر ما أستطيع فأكاد ألامس بقدمي أصص النباتات. تميل ماري كلير لتضع رأسها على كتفي. أنحني قليلاً وأتشمّم بعد أن أغمض عيني رائحة النوم التي لا تزال تفوح منها ممتزجة بكل ما أفرزه الجسد طوال الليل من روائح مختلفة بالرّغم من أنّها اغتسلت.

ـ هل تعرف.. عندما ولدت كان عمرك سبع سنين..
وبالضبط سبع سنين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يومًا.. في البداية أقرّر أن أظلّ صامتًا وأن أحتفظ بما أعتبره سرًّا لأسباب لا أفهمها. وفيما بعد أشعر أنّ موقفي لا يليق بامرأة أحبّها وأعاشرها وأتقاسم معها كل شيء تقريبًا، وأنّ الأمر بسيط لا يحتاج إلى أن يحاط بكلّ هذه السرِّيَّة.

ـ لست متأكّدًا من أنّ الحساب صحيح..

ـ كيف؟.. أعرف جيّدًا تاريخ ولادتك.

ـ لكنّي لست واثقًا من أنّني ولدت فعلاً في هذا التاريخ..
فالناس في الريف كانوا لا يهتمّون كثيرًا في تلك الفترة بيوم الولادة.. وأحيانًا ينسون تسجيل مواليدهم ولا يفعلون ذلك إلاّ بعد وقت طويل. وخلافًا لما كنت أنتظر، لا تستغرب ماري كلير ذلك بل ولا تقول شيئًا. تزداد اندفاعًا نحوي وتضغط برأسها على كتفي كما لو أنّها تريد أن تواسيني على ما تعرّضت له من إهمال.
بعد لحظات طويلة تسألني:

ـ وماذا كنت تفعل في هذه السنّ؟

ـ أشياء كثيرة..

ـ وما هي هذه الأشياء؟

ـ أشياء لا قيمة لها..

ـ أودّ أن تحدّثني عنها. . أودّ أن أعرف كيف كنت تعيش وأنت طفل!

لا أتردّد كثيرًا. أستجيب بسهولة لطلبها، إذ إنّ الرغبة في استعادة تلك الأشياء البعيدة تتملّكني أنا أيضًا.

ـ كنت أحفر بيدي الأرض النديّة بحثًا عن الدود. . أنصب تحت أشجار الزيتون فخاخًا للسمان والقنابر والزرازير، وعندما أقبض عليها أشويها على الجمر بعد أن أنتف ريشها وأقطع رؤوسها الصغيرة بشفرة حلاقة صدئة وأتبّلها بما تقع عليه يداي من ملح وكمّون وثوم وفلفل أكحل. . أسرق تينًا بعد أن أدّس قدمي في كيسين من البلاستيك أو علبتي طماطم فارغتين لكي لا تبقى آثارهما على الرمل فيكتشف أبي المولع باقتفاء الآثار أنّي أنا هو ابن الحرام الذي يحلم بالقبض عليه ليعاقبه عقابًا شديدًا متيحًا بذلك الفرصة لحبّات التّين أن تنضج بما فيه الكفاية. . أبول في حفر صغيرة فتخرج منها عقارب سوداء وصفراء. أطاردها فتركض في كلّ الاتجاهات وهي تحرّك ذيولها باحثة عن حفر أخرى تختفي فيها أو صخور تحتمي بها. أحاصرها ثمّ أصبّ عليها شيئًا من الكاز وأشعل فيها النار، وأظلّ أراقبها وهي تقاوم إلى أن تلسع نفسها وتموت بسمّها. .

ـ لماذا تفعل هذا؟. . أنت شخص غريب!

تقول ماري كلير وهي ترفع رأسها من على كتفي وتتطلّع إليّ بدهشة. أدرك في تلك اللّحظة أنّي شخص غريب حقًّا. لكنّي لا

أشعر بأيّ ندم على ما فعلت سواء للعقارب أو للعصافير المسكينة. بل ولا أشعر حتى برغبة في أن أقول شيئًا لتبرير ذلك أو على الأقلّ تفسيره. كل ما كنت أريده آنذاك هو أن تضع ماري كلير من جديد رأسها على كتفي لألتذّ بما ينبعث منها من روائح في ذلك الصباح المشمس. وهذا ما تمّ فعلاً بعد لحظات. أكثر من هذا تزداد ماري كلير انحناء عليّ بحيث صار إبطها أكثر قربًا من أنفي. وتتويجًا لكلّ ذلك تمسك بيدي وتدسّها بين فخذيها لتضغط بهما عليها. كان واضحًا أنّ إحساسًا ما يزعجها منذ أن قالت لي إنّني شخص غريب. هل شعرت أنّها كانت قاسية بعض الشيء؟ وربما فعلت ذلك لكي تحثّني على الاستمرار في رواية هذه الحكايات التي تساعدها على تخيّل طفولتي في دوّار العمايديّة.

ـ اترك العقارب والدود جانبًا..

ـ أتسلّق أشجار الزيتون الضخمة بعد الانتهاء من القطاف بحثًا عمّا بقي في أعالي الأغصان من حبّات تعذّر الوصول إليها، أو لم يتمّ التفطّن إليها بين الأوراق والفروع الصغيرة المتشابكة. لا أعي الأخطار الكثيرة التي تتهدّدني لو زلّت قدمي فجأة أو انكسر الغصن الذي أقف عليه أو فقدت توازني. الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه ويشغل بالي حقًّا هو أن أجد نفسي بغتة وجهًا لوجه مع حرباء، فقد كنت ولا أزال أخافها ولا أحتمل حتى النظر إليها. وعندما تتجمّع لديّ طاستان أو ثلاث من حبّ الزيتون الأسود الطازج أقايض به تاجرًا جوّالاً يأتي على بغل إلى الدوّار

كلّ أسبوع فيعطيني ثلاث أو أربع حفنات من الفول أو الحمّص المطبوخ والمملّح والمتبّل، يخرجها من إحدى جراره المركونة في عمق الزنبيل ساخنة يتصاعد منها البخار وتنبعث منها رائحة لذيذة. وخوفًا من أن يفطن أبي لذلك فيفتك منّي كلّ ما حصلت عليه، أدسّ الفول والحمّص المتبّل الساخن في جيوبي وأمضي راكضًا إلى الحقل. أجلس في مكان منزوٍ وأشرع في التهامه. كنت أعرف أنّ البقع السوداء المستديرة المنتشرة على القشرة تعني أنّ هناك دودًا داخل حبّات الفول، لكنّي لا أعبأ بذلك. ألقي بالحبّة داخل فمي من دون أن أزيل حتى قشرتها وألتهمها كاملة لكي لا يضيع منها أيّ شيء. بل ويخيّل لي أحيانًا أنّ الحبّات التي بها دود ألذّ من الحبّات الأخرى..

ـ لقد قلت لك اترك الدود جانبًا.

ـ أبحث عن حفر النمل. أختار أكبرها وأكثرها ازدحامًا. وأهاجم النمل بطرق مختلفة. أذرّ عليه الرمل أو ألقي عليه أعوادًا أو أحيط الحفرة بالحجارة. وأتلهّى بالنظر إلى النمل المسكين وهو يركض في كلّ الاتجاهات لينجو بجلده..

ـ أترك النمل أيضًا جانبًا.. أكره النمل.. حين أستمع إلى حكاية كهذه أحسّ بتنمّل في أعضائي.

ـ في المدرسة التي كنت أكرهها بمعلّميها ودروسها والعديد من تلاميذها أقضي أغلب الوقت في تأمّل سقف القاعة وجدرانها محاولاً أن أتبيّن في الشقوق المختلفة الحجوم التي تتناثر عليها

أشكالاً لأشياء وحيوانات محدّدة كالسفن والجبال والثعالب والثيران. وحين أملّ ذلك أفكّر في الطريقة التي تمكّنني من أن أتناول قليلاً من الخبز الذي في محفظتي، دون أن يفطن لي المعلّم فيفعل بي ما فعله في إحدى المرّات الماضية، إذ اقترب منّي مبتسمًا ولمّا ابتسمت له بدوري رفع فجأة يده الغليظة وهبط بها على قفاي، فتناثر من فمي فتات الخبز الممضوغ والممزوج بلعابي ووقع على وجوه التلاميذ الجالسين حولي وعلى ثيابهم وكتبهم وكراريسهم المفتوحة. أحيانًا أثبّت نظري على وجوه التلاميذ الذين لا يتحرّكون في أمكنتهم ويتطلّعون إلى الأمام مكتوفي الأيدي مستقيمي الظهور مرفوعي الرؤوس، وأحاول أن أتخيّل ما يجول في أذهانهم.

كان أبي يعتقد أنّ المدرسة مضيعة للوقت. وهذا ما كنت أعتقده أنا أيضًا منذ دخولي المدرسة وحتى وفاة أمّي. تعال يا ابن القحبة يقول لي أحيانًا عندما يراني في الصباح أستعدّ للذهاب إلى المدرسة. اليوم سترعى البقرتين والمعزاة. أهزّ رأسي موافقًا. ألقي بالمحفظة على الأرض، وأتوجّه فورًا إلى الزريبة. أسوق القطيع إلى المرعى ثم أربط المعزاة إلى جذع شجرة لكي لا تهرب بينما أترك البقرتين حرّتين طليقتين. بين وقت وآخر أقترب كثيرًا من إحداهما. أقف أو أجلس أمامها وأشرع في تأمّلها وهي تحرّك رأسها وتفتح فمها لتقضم الكلأ. منذ تلك الفترة صرت أحبّ البقر..

ـ أنا أيضًا أحبّ البقر.

ـ أحبّ هدوءها. مشيتها. طريقتها في نشّ الذباب والناموس برأسها وذيلها وخصوصًا تراخيها ولامبالاتها.. أشعر كما لو أنّ كلّ ما يهمّها في الدنيا هو أن تقضم الكلأ ثمّ تضطجع لاجتراره.. أحبّ أيضًا عيني البقرة وضرعها حين يكون ممتلئًا بالحليب كما أحبّ رائحة زبلها..

ـ زبلها؟.. ما الذي يعجبك في رائحته؟

ـ لا أدري.. أحبّ هذا النوع من الروائح.. لذلك لا أتردّد لحظة واحدة حين تطلب منّي أمّي أن أجمع لها زنبيلاً أو زنبيلين من الجلّة لاستعماله كوقود بدلاً من الحطب.. رائحة زبل الأبقار ليست كريهة كما تتصوّرين.. هل تعرفين ممّ يتكوّن زبل الأبقار؟

ـ لا أريد أن أعرف.. أرجوك.. كفّ عن هذا الكلام.

ـ حين يكون الطقس دافئًا أسبح في البرك والمستنقعات.. وفي الشتاء عندما تهطل أمطار غزيرة يفيض وادي الخرّوب فيرتفع هديره حتى يبلغ الدوّار. أتوقّف عن كلّ شيء. وأركض مع الأطفال الآخرين في اتجاه الوادي. حالما نصل ننزع كلّ ما علينا من ثياب ونلقي بأنفسنا في المياه الموحلة غير عابئين بما تجرفه من أشجار ونباتات مقتلعة وأكياس فارغة وبراميل صغيرة وحبال قديمة وعجلات درّاجات وقوارير وطاسات وخنافس وثعابين ميتة وقطط وكلاب نافقة..

في الصيف عندما يستسلم الجميع للقيلولة أغادر البيت وأتوجّه

إلى البئر حاملاً عصا غليظة ملساء. أعرف أنّ حميرًا سائبة تتجمّع في مثل ذلك الوقت الذي يكون فيه الحرّ على أشدّه حول البئر بحثًا عن الماء. لا أستطيع أن أسقيها لأنّه لا دلو لي ولا حبل لأستخرج لها ماء من البئر. كل ما بإمكاني أن أفعله هو أنّي أساعد الإناث في الحصول على شيء من المتعة الجنسيّة معتقدًا أنّ ذلك ينسيها ولو لوقت قصير عطشها. طبعًا لا أفعل ذلك لكلّ الإناث. أختار واحدة. أقيّد قائمتيها الأماميّتين لكي لا تهرب، ثم أرفع ذيلها بحذر. أمرّر العصا ببطء شديد على أطراف فرجها، ثمّ أولجها فيه دفعة واحدة..

ـ وهل تستجيب لذلك؟

ـ في البداية تطلق قائمتيها الخلفيّتين إلى الوراء لتركلني بحافريها.. وشيئًا فشيئًا تستكين للعصا.. لا أظنّ أنّ ذكر الحمار أكثر رقّة ونعومة من عصا ملساء..

ـ عجيب.. وماذا يحدث فيما بعد؟

ـ لا شيء.. أسحب العصا ببطء.. وأفكّ قيد الحمارة.

ـ هل تهرب بعيدًا؟

ـ لا تهرب. تنضمّ إلى القطيع.. الحمير قويّة وصبورة. وهي متعوّدة على أشياء كهذه.. هل تعرفين أنّ الشباب في الريف ينيكون كثيرًا الحمير!

ـ الحمير!!.. أليست هناك نساء؟

ـ النساء لا يفعلن هذا إلاّ بعد الزواج. . ومع أزواجهنّ.

تستوي ماري كلير في جلستها. تتثاءب في كسل، ثمّ تمدّ ساقيها في اتجاه أصص النباتات. أتطلّع إلى الأظفار في قدميها فأنتبه إلى أنّها مطليّة ببرنيق يختلف عن الذي طلت به أظفار يديها. أخلّص بهدوء يدي التي تدسّها بين فخذيها الدافئتين، وأكتّف ذراعي مثبّتًا بصري على أوراق النباتات التي تبدو وهي غارقة في ضوء الشمس أشدّ خضرة. يخطر ببالي أن أقول لماري كلير إنّي أنا أيضًا اشتهيت أكثر من حمارة قبل أن تتاح لي فرصة السفر إلى المدن واكتشاف المواخير، وأنّني كدت أن أنتقل إلى الفعل ذات مرّة مع حمارة يبدو أنّها تحبّ هذه الأشياء، إذ إنّها استكانت للعصا منذ الوهلة الأولى بل وأخذت تفتح فمها لمّا أولجتها فيها. يخطر ببالي أيضًا أن أقول لها إنّني أترك الحمير في بعض الأحيان، وأذهب إلى مكان منزو وأشرع في مداعبة عضوي الصغير. . إلاّ أنّني لا أجد الجرأة الكافية لذلك.

ـ لا أذهب دائمًا إلى البئر حيث الحمير السائبة. أحيانًا أستغل فرصة استسلام أبي للنوم فأتسلّل إلى غرفة المؤونة حيث يحتفظ بالمحاريث والرفوش والمعاول والمناجل. أتناول معولاً وأركض حيث يشاع أنّ أمّي دفنت قفلاً مغلقًا عملاً بنصيحة عجائز الدوّار لكي لا يخطفني منها الموت الذي خطف كل أخوتي الذين ولدوا قبلي. وحالما أصل أبدأ في حفر الأرض بحثًا عن القفل. .

ـ ولماذا تبحث عنه؟

ـ لكي لا يجده أحد فيفتحه. .

ـ وماذا يحدث لو فتحه؟

ـ أموت. .

لا تضحك ماري كلير ولا تبتسم كما كنت أتوقّع. تمسك بيدي، ومن جديد تدسّها بين فخذيها في مكان أكثر قربًا من أسفل بطنها. أشعر بشيء من الحرج لكنّي لا أسحبها رغم أنّي واثق من أنّ تركها وقتًا طويلاً في ذلك المكان الحسّاس قد يؤجّج رغبتي، وهذا ما كنت أخشاه في ذلك الصباح المشمس.

ـ أذهب إلى الجبّانة أيضًا. .

ـ الجبّانة!. . ماذا تفعل هناك؟

ـ أتفرّج على القبور.

ـ ألا تخاف؟

ـ وممّ أخاف؟. . كنت أعرف أنّ أرواح الموتى تنام هي أيضًا في ذلك الوقت، تمامًا كأرواح الأحياء. . أجلس على بعض القبور وأقرأ ما كتب على شواهدها، أو أدخل الغرفة الصغيرة التي يحتفظون فيها بالنعش والبلاطات التي يسدّون بها القبر قبل أن يهيلوا عليه التراب. . ذات يوم طفت بالنعش عدّة مرّات ثمّ تسلّقته وتمدّدت فوقه تمامًا كما يمدّدون الموتى وأغمضت عيني.

ـ تمدّدت فوقه؟!

ـ نعم.. بقيت متمدّدًا للحظة طويلة.. كانت له رائحة خاصّة.. مزيج من روائح الخشب والأكفان وعطر الموتى. كنت أريد أن أعرف ما يحسّ به الميت.

ـ وبماذا شعرت؟

ـ لم أشعر بأيّ شيء.. في البداية فقط أحسست بقليل من الخوف.. الخوف من أن أموت فعلاً وأنا متمدّد على النعش.

تضحك ماري كلير. أنتهز الفرصة فأسحب يدي من بين فخذيها. أسنانها تبدو أشدّ بياضًا، وضرسها الذي تكسوه طبقة من الذهب يلمع تحت ضوء الشمس. أشعر برغبة في أن أقول لها إنّني أجد ضحكها مثيرًا في تلك اللحظات، لكنّي ألتزم الصمت خوفًا من أن تدسّ ثانية يدي بين فخذيها فتتملّكني شهوة لا أستطيع السيطرة عليها.

ـ وما الذي يعجبك في القبور؟

ـ كلّ شيء.. أشكالها.. شواهدها.. بياضها..

ـ لا أحبّ اللون الأبيض لأنّه يذكّرني بالمستشفيات.

ـ كلّ القبور عندنا بيضاء.

ـ لماذا؟

ـ لأنّه لا لون يليق بالموت كاللون الأبيض..

ـ القبور هنا ليست بيضاء.. ومع ذلك فهي ككلّ القبور.

ـ ثمّة شيء آخر يعجبني في القبور.. صمتها.. أحبّ صمت الموتى وعزلة المقابر.. أحيانًا أبحث عن قبور الذين لم يمض وقت طويل على دفنهم. أقرّب أذني من رأس أحدها وأصغي للحظات طويلة وأنا مغمض العينين.

ـ وهل تسمع شيئًا؟

ـ ذات مرّة خيّل لي أنّني أسمع شيئًا.. شيئًا غريبًا يشبه الهمس.

ترتسم على شفتي ماري كلير ابتسامة خفيفة. تتطلّع إليّ بشكل يوحي بأنّها لا تصدّق ما أقول. ثمّ تضع يدها على أذني لتداعب شحمتها.

ـ النباتات.. لم أسقِ النباتات.

تقول فجأة وهي تندفع واقفة لتتوجّه إلى المطبخ. أبعد قدمي عن أصص النباتات. أميل قليلاً عارضًا وجهي أكثر لشمس الخريف. ثم أصغي لصوت الماء وهو ينسكب في الإبريق.

حين تفرغ ماري كلير من سقي النباتات تصبّ قليلاً من الماء في إحدى يديها وترشّه عليها بمتعة واضحة. تنزلق القطرات على سطح الأوراق ثمّ تتساقط شفّافة على التربة وحوافّ الأصص وما يحيط بها. بعضها يبقى معلّقًا على أطراف الأوراق لوقت قصير ثم يسقط بدوره محدثًا في بعض الأحيان صوتًا واضحًا خصوصًا

حين تقع القطرة على التربة المرتوية.

تتلمّس ماري كلير جذوع النباتات الدقيقة بحنوّ. تقرّب رأسها من بعض الأوراق وتتأمّلها مزيلة بأطراف أصابعها ما تراكم على سطحها من غبار. تقطع بعناية ما مات منها وما أخذ لونه يشحب ويميل إلى الصفرة. تغرس إصبعها في التربة لمعرفة مدى ارتوائها. وأحيانًا تدسّ أنفها في النباتات وتشمّها.

أتابع حركاتها بإعجاب وبشيء من الاستغراب في آن واحد. فقد كنت في تلك الفترة عاجزًا عن فهم تعلّقها الشديد بالنباتات التي ليست في النهاية سوى مجموعة من أوراق وأغصان وسيقان دقيقة لا جدوى منها. كنت لا أفهم كلّ هذه العناية التي تحيطها بها، والمجهود الذي تبذله كلّ يوم لسقيها وتشذيبها وإزالة الغبار عنها.

ويتزايد استغرابي هذا في بعض المرّات فيكاد يعادل ذاك الذي أشعر به وأنا أفكّر في الاهتمام الذي يوليه الناس للقطط وخصوصًا للكلاب التي تبوّل وتتبرّز على مرأى الجميع على الأرصفة. ولا بدّ أن أعترف هنا أنّني محظوظ، إذ إنّ ماري كلير التي أحبّها وأقيم معها لا تحبّ القطط ولا الكلاب ولا حتى الأرانب القزمة وخنازير الهند وجرذان الهمستر التي بدأت تغزو البيوت. فالشيء الوحيد الذي تحرص على وجوده في البيت هو النباتات.

تضع ماري كلير الإبريق الفارغ على الطاولة دون أن تكفّ عن

النظر إلى النباتات، كأنّها تريد أن تتأكّد من أنّها قامت بكلّ ما ينبغي أن تقوم به، وأنّ كلّ شيء على أحسن ما يرام. تعود إلى كرسيها. تمدّ قدميها الحافيتين بعيدًا فيزداد مريولها انحسارًا كاشفًا عن جزء كبير من فخذيها. ومن جديد تمسك بشحمة أذني وتشرع في تلمّسها. لا أحرّك رأسي ولا أبعد أذني عن يدها.. فأنا أعرف أنّ ماري كلير تجد متعة في ذلك.

ـ في تلك السنّ كدت أموت..

تتوقّف ماري كلير عن مداعبة شحمة أذني. تسحب يدها لتضعها على فخذها ثمّ تتطلّع إليّ في حيرة.

ـ أصابني مرض خطير.

ـ ما هو؟

ـ لا أدري بالضبط ما هو.. ولكن لمّا كبرت وسألت عنه. كل الناس يقولون إنّني مرضت بالشمس!

تلصق ماري كلير رأسها برأسي. وتضع ذراعها على كتفي فتغزوني رائحة إبطها.

ـ ذات يوم نهضت من النوم متأخّرًا أكثر من العادة.. كان الوقت صيفًا.. أذكر جيّدًا أنّني تناولت ثلاث حبّات كبيرة من المشمش. أذكر أيضًا أنّني لحظت لمّا استيقظت أنّي كنت أنام في مكان معرّض للشمس وأنّ جبيني كان ساخنًا.. كنت أشعر بوهن شديد. بعد وقت قصير لم أعد أقو على الوقوف. تهالكت على

الأرض وأخذت أتقيأ. كان أخطر مرض أصابني في حياتي. دام أكثر من ثلاثة أشهر هزلت خلالها كثيرًا وفقدت أغلب الشعر في رأسي وصرت ضعيفًا جدًّا، إلى درجة أنّني كنت أقضي كل الوقت تقريبًا مضطجعًا على ظهري أو جنبي.. بعد توسّلات أمّي حملوني إلى طبيب يأتي كل خميس إلى المخاليف أقرب قرية إلى الدوّار. بعد شهر من التداوي لم يطرأ أيّ تحسّن واضح على حالتي فيئس الجميع من شفائي إلاّ أمّي.. لم تتخلّ عنّي لحظة واحدة. بين وقت وآخر كان أبي يسخر منها أو يلومها على إهمال شؤون البيت للاعتناء بي. الغريب أنّ هذا المرض مكّنني من أن أكتشف أنّ أبي لم يكن يكرهني مثلما كنت أظنّ، وأنّه يحبّني بالرغم من قسوته التي يعتبرها كأغلب الآباء في الدوّار ضروريّة لتربيتي..

كنت وحيدًا عندما دخل الغرفة. لا أدري أين كانت أمّي آنذاك. أصابني الرعب لمّا رأيته منتصبًا أمامي. حين دنا منّي وانحنى عليّ تراجعت برأسي وأخذت أحدّق في عينيه. ابتسم لي فتناقص خوفي لكنّي بقيت حذرًا وعلى استعداد لحماية وجهي بذراعيّ. فوجئت به يضع رأسه على كتفي ثمّ يده الغليظة على قفاي في حنوّ لم أعهده فيه. ظللنا هكذا للحظات بدت لي طويلة. لم نقم بأيّة حركة. ولم نتفوّه بأيّة كلمة.

ابتسم من جديد لمّا رفع رأسه وتراجع بجذعه. أدخل يده في جيبه وهو يتفرّس في وجهي. وأخرج منه واحدة من الساعات المنبّهة المعطوبة التي يحتفظ بها في خزانة لا يفتحها أحد غيره.

وقدّمها لي وهو يقول خذها.. إنّها لك.. العب بها.. ولا تعدها لي.

كانت تلك الساعة المعطوبة أوّل هديّة لي.. وفيما بعد لمّا ماتت أمّي أهداني ساعة معطوبة ثانية. وقبل أن يموت بدوره بأسابيع قليلة أهداني ساعة ثالثة..

ـ وماذا كنت تفعل بهذه الساعات؟

ـ ألعب بها.. ثمّ أبيع بعض قطعها.

ـ تبيعها؟.. لمن؟

ـ للأطفال.

ـ وماذا تبيع بالضبط؟

ـ الزنبرك.. العقارب.. الدواليب.. البراغي.. لولب التعبئة..

ـ وتبيعها غاليًا؟

ـ حسب القطعة.. أحيانًا لا أبيعها وإنّما أقايض بها.. ذات مرّة أعطيت عقربًا كبيرًا لطفل مقابل ثعبان.

ـ ثعبان؟

ـ نعم.. ثعبان. قتله أبوه.. كان طويلاً، لا ينقصه سوى جزء صغير من الذيل!

ـ وماذا كنت تفعل بثعبان ميت؟

ـ ألعب به. . وأخيف به الأطفال الذين لا أحبّهم. . وأدافع به عن نفسي.

ـ كم من الوقت بقي عندك؟

ـ عدّة أيّام. . لم أرمه إلاّ عندما بدأ ينتن.

ـ أين كنت تضعه؟

ـ في حفرة لا يعرفها أحد غيري. . عندما أحتاج إليه أخرجه.

تبعد ماري كلير رأسها عن رأسي وترفع ذراعها عن كتفي. تستوي في جلستها وهي تسحب مريولها في اتجاه الركبتين لتغطّي ما كان مكشوفًا من فخذيها. في تلك اللّحظة أنتبه للمرّة الأولى إلى أنّ ما رويته لها من حكايات يتضمّن شيئًا من المبالغة. لم أسع أبدًا إلى تهويل الأحداث. حاولت أن أكون دقيقًا قدر الإمكان. لكنّي أدرك أنّه كان باستطاعتي أن أرويها بشكل آخر لو تحرّرت نهائيًّا من هذه الرغبة الخفيّة في الإبهار التي لا أدري كيف استحوذت عليّ.

وفيما كنت أتساءل عمّا إذا كان من المفيد أن أستمرّ في رواية هذه الحكايات، تتطلّع إليّ ماري كلير بشكل يدلّ على أنّها لا تزال سعيدة فرحة بنفسها وبي وبالحياة في ذلك الصباح الخريفي المشمس. تمسك بيدي ثمّ تقول وهي تقوم:

ـ انس الثعابين الآن. . تعال. . ستساعدني على تغيير غطاء السرير.

ـ ٥ ـ

يتناهى إليّ وقع قدميها السريع على الخشب ثم صوت الباب وهو يفتح ويغلق ثم وقع قدميها من جديد على الدرج الخشبي. أنتظر قليلاً خوفًا من أن تعود فجأة إلى الشقّة وهو ما يحدث أحيانًا، لأنّها نسيت أن تحمل المظلّة أو كتابًا تقرأه في المترو أو هاتفها النقّال. وعندما أصير واثقًا من أنّها لن تعود أغادر الفراش.

كنت أفقت من النوم منذ وقت طويل لمّا رنّ جرس الساعة المنبّهة. رأيت ماري كلير تمدّ يدها لتشعل اللّمبة الصغيرة التي بالقرب من السرير وتضغط على زرّ الساعة لإيقاف رنينها كما تفعل كلّما كان عليها أن تستيقظ وتغادر الفراش قبلي. أغمضت عيني. وتسمّرت في مكاني متظاهرًا بأنّني مستغرق في النوم.

سمعتها تتثاءب. وأحسست من حركة السرير أنّها تتمطّى. ثمّ شعرت بها تقترب منّي وتنحني عليّ. أفرح بذلك في العادة وأجرّ جسدي نحوها لأتلمّس جسدها الدافئ وأتشمّم رائحة نومها. لكنّي ظللت هامدًا هذه المرّة. لم أقم بأيّة حركة حتى عندما مالت عليّ بكتفها ورفعت ذراعها فأحسست بأنّ أنفي في إبطها.

كان واضحًا أنّ ماري كلير تريد أن تقول لي شيئًا ما قبل أن تتوجّه إلى البريد. أكيد أنّه من النوع الذي تتصوّر أنّه ينسيني ما حدث البارحة. لكن هذا هو بالضبط ما كنت أتحاشاه خصوصًا في الصباح. هذا ما كنت أخشاه خجلاً منها ومن نفسي وخوفًا من أن يتفاقم إحساسي بالألم الذي جعل نومي طوال الليل متقطّعًا ومضطربًا.

مرّة أخرى يتبدّى لي وجه ماري كلير. أرى العينين اللتين تتقدان شهوة. أرى الشفتين اللّتين انتفختا قليلاً من كثرة التقبيل ترتعشان. الأصابع تتحرّك لاقتحام كلّ الأمكنة. الصدر يعلو وينخفض. دقّات القلب تتسارع. الوجه الساخن يزداد احمرارًا. والجسد الحارّ الذي لم يعد يحتمل الانتظار يتلوّى من شدّة الرغبة.

فجأة تتطلّع إليّ بعينين نصف مغمضتين. تبتسم لي بشكل يوحي بأنّها لم تعد تنتظر منّي شيئًا في تلك اللّيلة. وتستدير مديرة لي ظهرها. يبدو لي جسدها العاري أجمل من قبل. أثبّت عليه عيني كما لو أنّي أريد امتلاكه بالنظر. يستعيد الجسد إيقاعه المعهود. يبرد ويخمد شيئًا فشيئًا ويتحوّل إلى كومة من اللّحم. أخجل من نفسي. أشعر أنّني لم أعد قادرًا على رؤيته. أتقلّب بسرعة مستديرًا إلى الجهة الأخرى وأطفئ الضوء.

كانت تلك هي المرّة الأولى والأخيرة التي أعجز فيها عن دخولها. والغريب أنّ ذلك يحدث بعد فترة تدرّب طويلة علّمتني

خلالها ماري كلير أشياء جعلتني أكتشف طاقات وخصائص في الجسد كنت أجهلها. أشياء كنت لا أوليها أيّة عناية، وتبدو لي الآن أساسيّة. دلّتني على المواضع الشديدة الحساسية. علّمتني كيف أستثيرها وأهيّجها. علّمتني كيف أستفيد من الأصابع. كيف أحرّك اللّسان داخل فمها. كيف ألعق به صدرها. كيف أداعبها براحة يدي. إلاّ أنّ أهمّ ما تعلّمته في تلك الفترة الحاسمة في علاقتنا هو كيف أتحكّم في الشهوة. كيف أتماسك أكثر ما يمكن من الوقت ولا أستسلم لها بسرعة لتتمكّن ماري كلير من أن تنال نصيبها. ولا بدّ أن أعترف أنّني تعذّبت كثيرًا وعانيت آلامًا كبيرة قبل أن أصبح قادرًا على التحكّم في نفسي، إذ إنّ ماري كلير تحتاج خلافًا للنساء القليلات اللاتي عرفتهنّ إلى وقت طويل لكي تبلغ ذروة الشهوة.

في البداية كنت أتساءل عمّا إذا كانت ماري كلير مثل كلّ النساء. كنت أبذل أقصى ما أستطيع من الجهد في القيام بكل ما أعرف أنّها تحبّه. وفي أغلب الأحيان يطول الأمر إلى حدّ لا أستطيع معه أن أتحرّك من شدّة التعب. أجفّف عرقي وأنا ألهث. ثمّ أرتمي على الفراش لأستريح قليلاً.

لا تنزعج ماري كلير. بالعكس تصبح أكثر لطفًا ورقّة. تطبع على جبيني وخدّي قبلات صغيرة. لا تقلق صغيري! تقول لي بصوت أشبه بالهمس وهي تداعب أنفي. تنهض وتذهب إلى المطبخ. تأتيني بتفّاحة أو إجاصة. تقشّرها لي وتناولني إيّاها.. كل صغيري تقول لي.. تجلس قبالتي تمامًا رافعة ساقيها

المفتوحتين وكاشفة عن كلّ أجزائها الحميميّة المعروضة عليّ بشكل فضائحي. لا تشعر بأيّ حرج وهي تراني أحدّق فيها بين وقت وآخر مستغلاً تلك الفرصة التي لم تتح لي أبدًا من قبل. وخلافًا لما كنت أتصوّر تفعل هذا بشكل تلقائي وليس لتأجيج شهوتي، فهي تعتقد أنّه من الطبيعي ألاّ تخفي أمامي أيّ جزء من جسدها حتى لو كان حميميًّا طالما أنّها تحبّني.

تبتسم حين تلتقي نظراتنا.. كأنّك لم تر هذا أبدًا!.. تقول بشيء من الاستغراب. أظلّ صامتًا ثمّ أدير رأسي خجلاً.. تسكت هي أيضًا. وبعد لحظات طويلة تشرع في تقبيلي وتلمس جسدي.. تعال. لا تخف.. المسألة مسألة دربة وعادة. تعال.. كلّ شيء سيصبح على ما يرام. تستفيق نفسي فأستجمع قواي وأعاود الكرّة.

عيناي تتعوّدان شيئًا فشيئًا على الظلام. أرفع رأسي عن المخدّة وأنظر إليها. أرى جسدها وقد تحوّل إلى كتلة من السواد. أستنتج ممّا يظهر لي من تخومه أنّها لم تغيّر وضعه، وأنّه لا يزال عاريًا مكوّمًا تمامًا مثلما كان لمّا أطفأت الضوء.

هل لا تزال يقظانة؟ لا أغترّ بهذا الصمت الذي يلفّها. أعرف أنّه خادع، فباستطاعتها أن تظلّ لوقت طويل ساكنة بدون أيّة حركة. أميل برأسي في اتجاهها وأرهف السمع. يتناهى لي تنفّسها وهو يتردّد بانتظام، لكنّي لا أقتنع بأنّها استسلمت للنوم إلاّ بعد لحظات طويلة.

أشعر برغبة جارفة مفاجئة في أن أرى وجهها ويديها، فقد أعثر في الطريقة التي تضمّ بها شفتيها أو تفتح فمها أو في هيئة يديها وأصابعها أو في وضعيّة رأسها على المخدّة أو أشياء أخرى من هذا القبيل ما يمكنه أن يخفّف عنّي هذه الأحاسيس الموجعة التي لا تتركني أنام.

لا أتحرّك. أبقى مسمّرًا في مكاني، إذ من المستحيل أن أتبيّن ملامح وجهها أو حتى أتمكّن من رؤية يديها وسط ذلك الظلام، حتى ولو تركت الفراش وانتقلت إلى الجانب الآخر الذي كانت تستدير إليه لأصير قبالتها تمامًا. وباستثناء الضوء في الغرفة الذي لم يخطر ببالي إطلاقًا أن أشعله لكي لا أوقظها، فإنّ الشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يساعدني على رؤية وجهها ويديها هو إزاحة الستارة قليلاً لتمكين ضوء الشارع من التسلّل إليها.

أتردّد كثيرًا قبل أن أترك الفراش بحذر شديد. أقترب من النافذة. لكنّ ارتباكي الذي أخذ يتفاقم من جديد يمنعني في النهاية من أن أنفّذ ما اعتزمت القيام به، خاصّة وأنّ الرغبة في لمس ظهرها التي أحسست بها لمّا كنت في الفراش، قد قويت إلى الحدّ الذي جعلني أشكّ في الجدوى من رؤية وجه نائم على ضوء الشارع بحثًا عن أشياء لست واثقًا من وجودها.

أعود إلى الفراش وأجرّ نفسي مقتربًا منها. وبدون أن أنظر إليها أمدّ يدي مفتوحة وألصقها بها. أدرك من التجويف الخفيف والعمود الفقري أنّها وقعت على نقطة المركز للموضع الواقع بين

أسفل الظهر وأعلى الردفين. بين وقت وآخر أحرّك أصابعي قليلاً، ثمّ أكفّ عن ذلك. وحين أرى أنّ هذا اللّمس الخفيف لا يوقظها أنتقل إلى مواضع أخرى في الظهر والكتفين. ألاحظ بعد وقت قصير أنّ هذه الحركات البسيطة تخفّف من ارتباكي بل وتشيع في نفسي شيئًا من الهدوء.

أواصل حركاتي البطيئة. أنتبه فجأة أنّني غفوت. لا أدري كم دامت غفوتي، لكنّني أشعر أنّها لم تكن قصيرة. أكتشف وأنا أتطلّع حولي وسط الظلام الذي بدا لي أقلّ كثافة من قبل أنّ ماري كلير قد غيّرت وضعها، فهي تنام الآن على جنبها الآخر قبالتي ووجهها لا يفصله عن وجهي سوى شبر واحد. أفطن أيضًا إلى أنّ يدي التي كانت تنتقل على ظهرها صارت تحت عنقها.

أستلقي بدوري على جنبي من دون أن أسحب يدي. تلامس ركبتي ركبتها فأحسّ بها باردة. أسحب الغطاء فأغطّيها وأغطّي نفسي. ثمّ أزداد اقترابًا منها لأدفّئ جسدها البارد غير مبال هذه المرّة بما يمكن أن تقوله أو تفعله لو استيقظت فجأة.

أغمض عينيَّ فتتبدّى لي ماري كلير من جديد بعينيها الملتمعتين وشفتيها المنتفختين وأصابعها المرتعشة من شدّة الشهوة. ألصق جسدي بجسدها كما لو أنّي أحتمي به من صورتها التي تطاردني. بعد وقت قصير أسحب يدي من تحت عنقها، وأترك الفراش. ثمّ أتوجّه إلى الصالون.

أجلس قليلاً على الكنبة بعد أن أشعل الضوء. أتفرّج على

اللوحات المعلّقة على الحائط المقابل. أتمشّى للحظات طويلة بين الصالون والمطبخ. أتطلّع بدون أن أزيح الستارة إلى الشارع الخالي في مثل تلك الساعة المتأخّرة من الليل إلاّ من سيّارات تاكسي تعبره بسرعة كبيرة. أنحني على النباتات. ألتقط بعض ما تساقط من أوراقها. أتأمّلها قليلاً قبل أن أدعكها وألقي بها في الأصص. عندما أعود إلى غرفة النوم ألاحظ أنّ ماري كلير قد غيّرت وضعها مرّة أخرى، وأصبحت تنام الآن مستلقية على ظهرها فاتحة ساقيها وذراعيها. أتمدّد إلى جانبها. لا أتحرّك، لأنّ ما تركته لي من الفراش لا يكاد يتّسع لي. أغفو ثمّ أفيق. أظلّ هكذا إلى أن يرنّ جرس الساعة المنبّهة.

ـ ٦ ـ

تمدّ ماري كلير ذراعها. تحرّكها في الفضاء كأنّها تودّ أن تمسك شيئًا لامرئيًا. كانت قد استلقت على طول الكنبة الوحيدة في الصالون الصغير. ساقاها مرفوعتان قليلاً. وقدماها الحافيتان كالعادة تلامسان مسند الكنبة. أمّا رأسها فهو غارق في مخدّة في لون شعرها الذي كان معقوصًا.

بين وقت وآخر تغمض عينيها أو تتثاءب بصوت مسموع وهي تنظر في اتجاه الحائط الذي علّقت عليه صورة ملوّنة كبيرة لـ «قبلة» غوستاف كليمت، الذي كنت شديد الإعجاب به. ولوقت طويل لا تتكلّم ولا تتحرّك فيخيّل إليّ أنّها نامت، وهو ما يحدث في بعض المرّات خصوصًا حين تعود من البريد مرهقة. إلاّ أنّها تحرّك ذراعها من جديد في الهواء وتقول بصوت واطئ كأنّها تخاطب نفسها:

ـ أحبّ مينيلمنتون..

كنت جالسًا على بوفيه بالقرب من النافذة التي لم تسدل ستارتها بعد رغم أنّ الليل أحكم سيطرته على المدينة منذ وقت طويل. كنت أفكّر في ما قرأته قبل ساعات قليلة من شعر

الصعاليك، وأتساءل عمّا إذا كان من الضروري أن أركّز في الدرس الذي سألقيه عن الطلاب في الغد عن الصعاليك المغمورين.

ـ عندما أتجوّل في مينيلمنتون أشعر أنّني لست في باريس وإنّما في قرية..

أنحني على زجاج النافذة. وأتطلّع إلى الخارج الغارق في الظلام.. لكنّي لا أرى شيئًا. باستطاعتي عندما يكون الظلام أقلّ كثافة أن أتبيّن الجزء الأعلى من الشجرة الوحيدة في مكان لا تصله أضواء الشارع. شجرة دلب ضخمة تقوم في الساحة الخلفيّة لبناية قديمة، وتحاصرها العمارات من كل جانب. محظوظة هذه الشجرة أقول لنفسي أحيانًا وأنا أتأمّل ما لم تستطع المباني الرماديّة أن تحجبه. لم يقطعوها مثلما فعلوا بالتأكيد بالأشجار الأخرى. تركوها تكبر بما فيه الكفاية لأرى فيها تعاقب الفصول ولتصبح ملجأ للطيور الهاربة من ضجيج المدينة ودخان السيّارات.

ـ هل تعرف أنّ مينيلمنتون لم يضمّ إلى باريس إلاّ في وقت متأخّر؟.. عام ١٨٦٠ بالضبط.. قبل ذلك كان مجرّد قرية تفصلها عن باريس حقول شاسعة يرعى فيها الضأن والبقر!

أدقّق النظر في اتجاه الشجرة من جديد آملاً أن أتمكّن بعد وقت طويل تتعوّد فيه عيناي على الظلام من أن أراها. وحين أصبح واثقًا من أنّ ذلك مستحيل أسدل ستارة النافذة، وبدون أن

أقوم أدفع جسدي منزلقًا بالبوفيه على سطح الخشب الأملس إلى وسط الصالون. تتحرّك ماري كلير لتستلقي على جنبها مديرة ظهرها إلى الجدار الذي علّقت عليه لوحة كليمت بحيث صار بإمكاني أن أرى كل وجهها. يتبدّى لي على ضوء اللمبة الخافت شاحبًا وخاليًا من ذلك الخليط من الهدوء والذكاء والألفة والعفويّة، لكنّي أجده مريحًا كالعادة.

ـ أمضيت العشرة أعوام الأولى من طفولتي في مينيلمنتون.. كنّا نقيم في شقّة في الطابق الثاني من عمارة قديمة. بابها الخشبي ضخم لا يفتح بسهولة، فلا بدّ من دفعه أو جذبه بقوّة لدخول العمارة أو الخروج منها. الدرج من الخشب فرش جزء كبير منه في الوسط بسجّاد للتخفيف من صريره ومن الصوت الذي تحدثه الأحذية وهي تصطدم بالخشب. كان هناك مصعد ضيّق لا يتّسع لشخصين إلاّ إذا كانا نحيلين ولا يستعمله إلاّ العجائز وبعض سكّان الطابق الخامس آخر طوابق العمارة. كان أجمل شيء فيه بالنسبة لي هو مرآته. مرآته طويلة تغطّي كلّ الجانب المقابل للباب. أحيانًا أدخل المصعد، وأغلق بابه دون أن أضغط على أيّ زرّ، ثمّ أشرع في الاستدارة على مهل لأتفرّج على نفسي.

تطلق ماري كلير فجأة ضحكة عالية لم أكن أنتظرها منها وهي في مثل تلك الحالة من الهدوء والتعب والتراخي. أضحك بدوري، أدقّق النظر في صدرها الذي كان يهتزّ، ثمّ أنزلق بالبوفيه في اتجاه الكنبة لأزداد اقترابًا منها.

ـ تصوّر.. كنت أجد نفسي جميلة.. وكلّما نظرت في المرآة

ازددت اقتناعًا بذلك. . الغريب أنّني لا أجد نفسي جميلة إلاّ أمام مرآة المصعد، لهذا السبب كنت أحبّها.

تضحك من جديد، لكن بصوت غير مرتفع هذه المرّة. تلتمع عيناها، ويستعيد وجهها شيئًا من ذلك المزيج من الطمأنينة والعفويّة والذكاء.

ـ في بعض الأحيان عندما تخفّ الحركة في العمارة أقضي وقتًا طويلاً في المصعد. وحالما أسمع صوتًا أو أحسّ بحركة تمتدّ يدي إلى لوح الأزرار لأضغط على أحدها. . لا أحد يتصوّر أنّني أدخل المصعد لأتفرّج على نفسي في المرآة. لا أحد يخطر بباله ذلك. . وعندما ينجح أحد في دخول المصعد أدير فورًا ظهري للمرآة وأتظاهر بالتفكير في أمر مهمّ، أو أقول شيئًا ما لأوهمه بأنّي لم أضغط على الزرّ المناسب.

في مصعد تلك العمارة القديمة، وأمام تلك المرآة التي كنت أحبّها، أدركت للمرّة الأولى أنّني كثيرة النمش. هناك بدأت أتفحّص هذه البقع الصغيرة المنتشرة على وجهي وذراعي. قبل ذلك لم أعرها أيّ اهتمام. لم أتساءل حتى عن أسبابها أو عمّا يمكن أن تعنيه.

منذ ذلك الوقت صرت كئيبة ومعقّدة بسبب هذا النمش. صرت حريصة على أن أغطّي كلّ ما بإمكاني أن أغطّيه وأبكي في صمت حتى يزول إحساسي بالغضب. كنت لا أفهم كيف يمكن أن نسخر من شخص بسبب شيء ليس مسؤولاً عنه.

وفيما بعد، لمّا كبرت وصرت أخالط الكبار، تخلّصت من هذه العقدة، فقد اكتشفت أنّ الرجال لا يكرهون النمش، بل إنّ بعضهم يحبّه خصوصًا إذا كان في الوجه.

تمرّر ماري كلير يدها على رأسها. تداعب للحظة شعرها المعقوص ثمّ تحلّه فتسقط خصلاته على إحدى كتفيها. لم يكن باستطاعتي أن أتبيّن النمش على وجهها، رغم أنّني ازددت قربًا منها بسبب ضوء اللمبة الخافت. ومع ذلك أجدها أجمل وخصوصًا أكثر سحرًا وجاذبيّة منذ أن تخلّصت من عقصتها التي أعتقد أنّها لا تناسبها، لأنّها تبرز عنقها وتعرّيه فيبدو طويلاً جدًّا.

ـ العمارة تقع في شارع صغير ضيّق مثل الكثير من شوارع مينيلمنتون. أغلب سكّانه فرنسيّون من فئات متواضعة مثل عائلتي ويهود مغاربة وشرقيّون وأقدام سوداء ومهاجرون عرب. في بعض الأحيان تنشأ خصومات وتندلع معارك بين سكّان الشارع. بين الأقدام السوداء والعرب. بين اليهود المغاربة والفرنسيين. بين اليهود الشرقيين والأقدام السوداء.. إلاّ أنّها من النادر أن تتجاوز السباب وتبادل الشتائم. يتدخّل الناس بسرعة ويضعون حدًّا للخصومة قبل أن تتطوّر.

أتذكّر خصومة عنيفة واحدة. أتذكّرها جيّدًا لأنّه كاد يسقط فيها قتيل. اندلعت لأسباب بسيطة كما راج فيما بعد بين عربي وقدم سوداء بائع فواكه وخضراوات. لم أشهد بدايتها. وفي اللحظة التي كنت أمرّ فيها أمام محلّ الخضروات والفواكه، كما أفعل كلّ

يوم في طريق عودتي من المدرسة، كانت الخصومة قد تطوّرت كثيرًا. كلاهما يمسك بالآخر ويحاول وهو يلطمه بين وقت وآخر أن يبطحه أرضًا. كان واضحًا أنّهما منهكان. ولكن لا أحد منهما يريد أن يتوقّف عن الضرب. كان وجه القدم السوداء أحمر من شدّة الانفعال والتعب. وكان الدم يسيل من فم العربي وأنفه فيلطّخ ملابسه ويتقاطر على مقدّمة حذائه الذي لا أزال أذكر لونه الأبيض. الغريب أنّ الناس لم يتدخّلوا بشكل جدّي وحاسم لفضّ الخصومة. يحاولون قليلاً أن يفصلوا بينهما أو يطلبون منهما أن يتوقّفا عن الضرب. ثمّ ينصرفون أو يبتعدون قليلاً ويشرعون في التفرّج عليهما. توقّفت بعيدًا وبدأت بدوري أتابع المشهد. كنت خائفة، لكنّي لم أستطع أن أتحرّك. بقيت مسمّرة في مكاني، فقد كانت تلك هي المرّة الأولى التي أشاهد فيها خصومة عنيفة إلى هذا الحدّ.

فجأة حدث ما لم يكن يتوقّعه أحد. حدث بسرعة باغتت الجميع. في رمشة عين لمع نصل سكّين أعقبه صراخ حادّ. رأيت البائع يترنّح قليلاً ثم ينهار بكلّ جسده على الأرض جارًّا معه بعض صناديق الخضروات والفواكه. أخذ العربي يلتفت حوله في ذعر. ولمّا لاحظ أنّ الناس يشيحون عنه بوجوههم كلّما نظر إليهم أو يتراجعون إلى الخلف خوفًا منه ألقى بالسكّين ثمّ أطلق ساقيه للرّيح. لحسن الحظّ لم يمت البائع، فالطعنة التي تلقّاها في جنبه الأيمن لم تكن قويّة والسكّين لم تخترق سوى الجلد.

أنتبه وأنا أصغي إلى ما تقوله ماري كلير من أنّني لم أشاهد

قتيلاً واحدًا في حياتي. رأيت موتى كثيرين. أمّي ثمّ عمّي ثمّ أبي ثمّ عمّتي ثمّ خالي ثمّ خالتي ثمّ ابنتها.. كبرت مع الموت. لا يكاد يمرّ عام من أعوام الطفولة دون أن يرتفع نواح هنا أو هناك.. كنت آخر حبّة في العنقود. جئت متأخّرًا إلى هذا العالم. ولمّا بدأت أعي ما يحدث حولي كان جيل كامل من الأقرباء قد هرم وشاخ، فأخذ عزرائيل يزورهم الواحد تلو الآخر. شاهدت جنائز كثيرة أيضًا، لكنّي لم أشاهد قتيلاً واحدًا..

أدرك بعد وقت قصير أنّه ينبغي أن أطرد من ذهني هذه الفكرة، فليس من اللائق أن أفكّر في القتل أو ما شابهه في وقت يجب أن أفرح فيه بنجاة القدم السوداء المسكين من الموت تمامًا مثل ماري كلير التي كانت ستصاب بالتأكيد بصدمة قاسية لو لفظ القدم السوداء أنفاسه. أحاول أن أتخلّص من هذه الفكرة عدّة مرّات لكنّي لا أستطيع. وفيما أتساءل عمّا إذا كان التركيز عليها للحظة طويلة بدلاً من محاولة التخلّص منها بسرعة هو أفضل طريقة لطردها من الذهن، تقول ماري كلير مغيّرة مجرى الحديث:

ـ لم يكن الشارع هادئًا رغم صغره وضيقه. في أغلب الأوقات كان شديد الحركة يعجّ بالمارّة والسيّارات. ومع ذلك كنت أحبّه. أحبّ هذا الخليط من الأصوات واللغات والروائح والألوان. أحبّ مقاهيه ومطاعمه ومتاجره بكلّ أنواعها وأشكالها. منذ ذلك الوقت بدأت مطاعم الكسكسي في الانتشار. منذ ذلك الوقت أيضًا أخذت تتكاثر محلاّت الحلويات الشرقيّة ومحلاّت الجزارة التي تكتب على يافطاتها أو واجهاتها

«لحم حلال». هناك أكلت للمرّة الأولى في حياتي «قرن غزال» والتمر المحشو بعجين اللّوز. .

أبي كان يشتغل نادلاً في مقهى لا تفصله عن عمارتنا سوى بضع خطوات. الذين لا يعرفونه جيّدًا كانوا ينادونه «مسيو موريس». أمّا أصدقاؤه أو الذين يتردّدون كثيرًا على المقهى فقد كانوا يسمّونه تندّرًا «السفير»، لأنّه كان شديد الحرص على أن يبدو أنيقًا أمام الناس. كان يصرّ دائمًا على أن يرتدي ربطة عنق قبل أن يذهب إلى المقهى. يختار الربطة بدقّة لكي تكون متناسبة تمامًا مع ثيابه. يدهن شعره بالغومينا ويمشّطه بمشط يحتفظ به دائمًا في جيب بنطلونه الخلفي راسمًا بعناية مفرقًا واضحًا مستقيمًا. . هل تعرف شارل ترينيه؟. . أبي كان يذكّرني به دائمًا رغم أنّه لا يشبهه. . لا في وجهه ولا في حركاته.

كان يحبّ الحياة. . يقبل عليها بشراهة حقيقيّة. . كلّ ما فيها من ملذّات ومتع صغيرة كان يستهويه. الطعام. الحلويات. النساء. اللعب واللهو. المزح. قيادة السيّارات. النبيذ الجيّد. العطل. الأعراس. أعياد الميلاد. الحفلات الراقصة. سباق الخيل. . أمّي تقول إنّه ورث كل هذا عن جدي الذي توفي قبل أن أولد ببضعة أشهر.

تسكت ماري كلير فأفاجأ بأنّ فكرة عدم رؤية أيّ قتيل لا تزال تستولي على ذهني بعد كل الذي سمعته. أكثر من هذا، أحسّ برغبة في أن أسأل ماري كلير عمّا إذا رأت مرّة قتيلاً دهسته سيّارة

أو أصابته رصاصة أو سقط من الطابق السادس أو السابع من عمارة، معرّضًا نفسي بذلك إلى غضبها بسبب طرح سؤال غريب في وقت تتحدّث فيه عن مينيلمنتون الذي تحبّه أكثر من كلّ الأحياء التي أقامت فيها في باريس. غير أنّي لا أستسلم لهذه الرغبة. أنحني على ماري كلير وأشرع في هزّ رأسي مبتسمًا لأحثّها على الكلام.

ـ كان أبي شديد التعلّق بالوطن مثل الكثير من أبناء طبقته وجيله. كان فخورًا بأنّه فرنسي حقيقي كما يقول. يحبّ لعبة الركبي ويلتذّ بشرب النبيذ ويقطّع الجبن والسجق بسكّين صغيرة تطوى، يحتفظ بها دائمًا في جيبه. لكنّه كان يخالط الجميع. اليهود. العرب. البولونيين. الأقدام السوداء. الزنوج.. بين وقت وآخر يحلو له أن يردّد كلمات عربيّة حفظها في الجزائر، حيث قضى عامين كجنديّ معيّن في مصلحة الطوبوغرافيا التابعة للجيش.

في تلك الأعوام كنت منبهرة به. لا أعتقد أنّني أحببت إنسانًا مثلما أحببته. هو أيضًا كان يحبّني كثيرًا إلى درجة أنّه كان يخيّل إليّ أحيانًا أنّ أمّي كانت تتألّم في صمت بسبب هذا الحبّ، بل وتشعر بشيء من الغيرة خصوصًا أنّي كنت أوّل وآخر من أنجبا.

كنت أنام باكرًا وأفيق باكرًا لأكون بجانبه حالما يخرج من السرير. أجمل الأوقات التي أمضيتها معه كانت في الصباح. أنتصب أمام غرفة النوم. عندما يفتح الباب ويطلّ منه أندفع

نحوه. يأخذني بين أحضانه فأطوّق صدره بذراعي وساقي وأدفن فيه رأسي غير عابئة بوخز الشعر الذي ينبت فيه. حين يضعني على الأرض ليدخل المرحاض أهرع إلى غرفتي. أغلق الباب وأندسّ في الفراش. لا أدري لماذا أفعل ذلك. ربما لأنّي كنت أخشى أن أسمع أو أشمّ ما يفسد عليّ قليلاً متعة مرافقته التي أنتظرها بلهفة كلّ صباح.

أراه الآن في غرفة الاستحمام منتصبًا بجسده الطويل والمائل إلى البدانة أمام المرآة. هو أيضًا كان يحبّ المرايا. ذراعاه مكشوفتان. بطنه بارز وحمّالتا سرواله متدلّيتان. يضع قليلاً من الصابون على خدّيه. يغمس الفرشاة في الماء الساخن ليدعك بها الصابون محوّلاً إيّاه إلى رغوة يطلي بها كامل لحيته. ثم يشرع في الحلق وهو يصفر أو يردّد مقاطع من أغانيه المفضّلة.

عندما يجلس إلى الطاولة لتناول الفطور أكون دائمًا بجواره. لا أفعل شيئًا سوى الأكل. هو الذي يصبّ لي الحليب وقليلاً من القهوة في الفنجان. هو الذي يضع السكّر ويحرّك الملعقة ليذيبه. هو الذي يقصّ الخبز شرائح رقيقة يطليها بالزبدة والمربّى. افتحي فمك أيّتها الأميرة يقول لي وهو يدسّ الشريحة في فمي. كلي ببطء، لكي لا تلطّخي ثيابك..

في العطل والأيّام التي لا أذهب فيها إلى المدرسة يسمح لي أحيانًا أن أذهب معه إلى المقهى الذي يشتغل فيه. يستقبلني صاحب المقهى «البولوني»، كما كانوا يسمّونه، والنّدل بترحاب

كبير ويقدّمون لي ما أودّ أن اتناول من مشروبات. أقف خلف الكونتوار لأتابع حركاتهم وهم يعملون، أو أجلس إلى طاولة في ركن منزوٍ لأتأمّل روّاد المقهى أو الشارع الذي يعجّ بالعابرين. هناك اكتشفت مبكرًا عالم المقهى. ومنذ ذلك الوقت أصبحت أحبّ هذا العالم.

ذات مرّة ذهبنا إلى المقهى بالسيّارة. وخوفًا من أن يسخر منه الناس لاستخدامها في قطع مسافة لا تتجاوز بضع خطوات تجوّلنا في شوارع كثيرة في مينيلمنتون وعبرنا بولفار بلفيل كلّه، وفيما بعد توجّهنا إلى الشارع الذي كنّا نقيم فيه. ولكن بدلاً من أن يوقف السيّارة أمام عمارتنا كما في العادة أوقفها أمام المقهى لكي يتمكّن من رؤيتها وهو يشتغل. أذكر أنّها شيڤروليه حمراء قديمة. . كان يعشق السيّارات ويلتذّ بسياقتها.

عندما يقترب يوم الأحد يزداد فرحًا، لا لأنّه سوف لا يشتغل في هذا اليوم وإنّما لأنّنا سنسافر بالسيّارة إلى القرية التي تقيم فيها أمّي حاليًّا. كنّا قد اشترينا قبل أعوام بيتًا صغيرًا هناك. وكان الذهاب إليه بين وقت وآخر لترميمه وإصلاحه، في انتظار أن ننتقل إليه ذات يوم، فرصة لقيادة السيّارة مسافة طويلة.

تتثاءب ماري كلير طويلاً وهي تحرّك ذراعيها الممدودتين بشكل يذكّرني بالحركات التي كنّا نقوم بها في حصّة الرياضة في المدرسة. أتطلّع إلى الساعة التي على أحد رفوف المكتبة فأفاجأ بأنّ الوقت مرّ بسرعة، وبأنّ الساعة تجاوزت منتصف اللّيل. عليّ أن أنام الآن فأنا أبدأ الشغل باكرًا في الغد، ولا بدّ أن أنام ما

يكفي من الوقت ليكون الدرس عن الصعاليك الذي أعول عليه كثيرًا ممتازًا، وهكذا أثبت للطلاّب الذين يجادلونني كثيرًا بل وينتقدونني أحيانًا أنّني مؤهّل وجدير بأن أكون أستاذهم. نعم. عليّ أن أندسّ في فراشي الآن. لكنّي أظلّ مسمّرًا في مكاني خوفًا من أن تتّهمني ماري كلير بأنّي أناني وتلومني بشدّة على أنّي أتخلّى عنها في اللحظات الحرجة.

ـ كانت قد مرّت أعوام كثيرة على هجري بيت العائلة لبدء حياة جديدة مستقلّة عندما مات أبي. ومع ذلك بكيته بحرقة، وحزنت عليه حزنًا شديدًا إلى درجة أنّي أخذت أتساءل عمّا إذا كانت علاقتنا تتجاوز علاقة البنت بأبيها الطبيعيّة.. صورته ظلّت لفترة طويلة ترافقني في اليقظة كما في الحلم.. والذي زاد في ألمي هو أنّي كنت في تلك الفترة وحيدة بلا رجل.. أكثر من هذا كنت متشائمة وكئيبة بعد أن عشت تجربة حبّ فاشلة مع طالب كان يدرس معي في الكلّيّة.

أراهن على أنّه ستبكي بعد وقت قصير. أنتظر قليلاً وأنا أجول بنظري في أرجاء الصالون لكي لا تشعر بالحرج، لكن ماري كلير لا تبكي. تستلقي ببطء على ظهرها عائدة إلى وضعها السابق. ثمّ تلقي عليّ نظرة سريعة وهي تبتسم بشكل يدلّ على أنّها قرّرت أن تنسى موت أبيها وكل ما سبّبه لها من الآلام. يغمرني شيء من الارتياح، فأبتسم بدوري وأمدّ عنقي في اتجاه الساعة وأحرّك رأسي لكي تنتبه إلى أنّه حان وقت النوم، لكن ماري كلير لا تعير حركاتي أيّ اهتمام.

ـ في مقهى «البولوني» تعرّفت على أوّل شخص أحببته في حياتي. . هل تعرف من؟ . . لاديساس الابن الأصعب لصاحب المقهى. . أحيانًا يخيّل إليّ أنّه لولا أبي الذي كان يسمح لي بأن أذهب معه إلى المقهى لما عشت تلك التجربة اللذيذة، خصوصًا أنّني كنت في تلك الفترة منطوية على نفسي ومعقّدة بسبب النمش الذي على وجهي. .

كان وقتها جميلاً كأغلب السلافيين. لا أدري كيف أصبح فيما بعد، فأنا لم أره منذ أن انتقلنا إلى الماريه حيث عثر أبي على شغل كسائق لدى أرملة يهوديّة ثريّة دفعه إلى التخلّي فورًا عن عمله في مقهى البولوني. كنت أحبّه أكثر ممّا كان يحبّني. لكنّه كان يفوقني جرأة. ولا بدّ أن أعترف أنّه كان يفوقني ذكاء أيضًا. كنت معجبة بطريقته في الكلام وبطاقته على الإقناع.

تعالي. . يقول لي حالما يتركني أبوه والندل ويعودون إلى عملهم. تعالي سأريك شيئًا جميلاً. دائمًا هكذا تبتدئ لقاءاتنا في المقهى. لا أتردّد لحظة واحدة. أتبعه ودقّات قلبي الصغير تتسارع لأنّي واثقة من أنّ شيئًا ما سيحدث لنا. يستدير ثمّ يشرع في نزول درجات السلّم الحديدي المتباعدة. أفعل مثله. انزلي ببطء. يقول بصوت عال كأنّه يخشى ألاّ أسمعه. امسكي جيّدًا بحافّة السلّم. ولا تحرّكي قدمك إلاّ عندما تكون القدم الأخرى على الدرجة. كنت أحبّ أن أستمع إليه يقول لي ذلك. وكلّما ردّده بحماس تعمّق فرحي.

ننزل إلى القبو حيث تتراكم في كل الزوايا صناديق بألوان مختلفة لزجاجات النبيذ والجعة والمشروبات الغازيّة الفارغة والمليئة، وأكياس البطاطا والبصل، وتتدلّى من السقف الواطئ أفخاذ خنازير مطبوخة ومملّحة ومشاكيك ثوم ومقالٍ مختلفة الحجوم. يمسك بيدي فتزداد دقّات قلبي تسارعًا. نتقدّم من أحد الأركان بتؤدةٍ وحذر لكي لا تصطدم أقدامنا بما يتناثر على أرضية القبو من أوان وعلب وبراميل بيرة. ساعديني يقول لي وهو ينحني على كيس بطاطا أو صندوق مليء بزجاجات نبيذ. نزحزحه قليلاً بحثًا عن الفخاخ التي ينصبها أبوه في أمكنة يغيّرها باستمرار لكي لا تعتادها الفئران فتتجنّبها.

كان من النادر ألاّ نجد فأرًا في أحد الفخاخ، فقد كان القبو يعجّ بالفئران. عندما يكون حيًّا نخلّصه من المصيدة التي وقع فيها. ثمّ نطلق سراحه. نفعل ذلك بحذر شديد وبسرعة خوفًا من أن ينكشف أمرنا. ذات مرّة خلّصنا فأرًا صغيرًا، ووضعناه على الأرض. لكنّه بدلاً من أن يهرب بقي في مكانه. دفعناه قليلاً بأيدينا في اتجاه أكياس البطاطا والبصل لكنّه لم يتحرّك. لم ننتبه لحظتها إلى أنّ الفأر المسكين فقد كلّ قواه ولم يعد قادرًا حتى على الحركة. فجأة تناهى إلينا صرير باب القبو وهو يفتح. التقط لاديسلاس الفأر وخبّأه في جيبه، ولمّا أخرجه فيما بعد حين تأكّدنا من أنّ أحدًا لن ينزل إلى القبو كان جثّة هامدة..

في ذلك القبو، وبعد موت الفأر بلحظات قليلة، قبّلني على شفتي رجل للمرّة الأولى في حياتي. قبلة طويلة لم تفاجئني لأنّي

كنت أنتظرها. الذي فاجأني آنذاك هو أنّي لم أجدها لذيذة كما كانوا يقولون عن أوّل قبلة. أكثر من ذلك شعرت بقليل من الانزعاج لأنّي لم أدر حين ألصق لاديسلاس شفتيه المبتلّتين بلعابه بشفتي إن كان يجب أن أداعبه بدوري، وخصوصًا إن كان عليّ أن أحرّك شفتي حين يحرك هو شفتيه أو أبقى ساكنة مستسلمة له!

منذ ذلك الوقت صار لاديسلاس يقبّلني كلّما استطعنا أن نختلي في القبو. ومنذ المرّة الثانية صرت ألتذّ بقبلاته. وكلّما قبّلني ازددت حبًّا له. أمّا لاديسلاس فقد كانت جرأته تدفعه أحيانًا إلى أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. يدخل يده تحت التنّورة، وتنزلق أصابعه على فخذي أو على صدري أو أسفل الظهر، دون أن تصل هذه الجرأة إلى حدّ تلمّس الأعضاء الحسّاسة. .

يتنامى داخلي إحساس بالغيرة من لاديسلاس الذي كان أوّل من تمتّع بالشفتين اللتين كانتا ألذّ ما في ماري كلير. وللمرّة الأولى أشعر أنّ شيئًا ما ممّا ترويه يهمّني حقًّا رغم أنّه انقضى منذ زمن طويل. وفي محاولة لتجاوز هذا الإحساس الذي لم أكن مستعدًّا لتحمّله في مثل ذلك الوقت، أردّد في نفسي ما قرأته قبل بضع ساعات من شعر للصعلوك واللّص الأحيمر السعدي، الذي هرب في الفلوات ومجاهل الأرض خوفًا من الموت. أحاول أن أتخيّله وهو يرافق الأفاعي والذئاب ويقتات بعروق الحنظل. .

ـ لم أعد إلى مينيلمنتون إلاّ بعد سنوات طويلة. . وجدته كما تركته تقريبًا. والشارع الذي كنّا نقيم فيه لم يتغيّر كثيرًا. أصحاب المتاجر والمطاعم والمقاهي هم الذين تغيّروا. أمّا السكّان فقد ظلّوا يهودًا ومهاجرين عربًا وأقدامًا سوداء وفرنسيين من فئات متواضعة. وفي المقهى الذي عشت فيه أوّل قصّة حبّ في حياتي سألت عن البولوني فقيل لي إنّه غادر باريس مع عائلته للإقامة في مونتارجيس حيث اشترى فندقًا فخمًا.

أشعر بخدر في ساقيَّ فأنهض. أظلّ للحظة طويلة مسمّرًا في مكاني. ثم أثبّت بصري على وجه ماري كلير. عيناها مغمضتان الآن. يداها المشبوكتان موضوعتان على أعلى صدرها. وصوتها الذي فقد منذ وقت طويل قوّته صار الآن خافتًا أشبه بالهمس. والكلمات تزداد تباطؤًا وتعثّرًا على لسانها.

ـ وقفت أمام الكونتوار وطلبت قهوة. . أو شايًا. . لم أعد أذكر. كان باب القبو مواربًا. . ولم أكن بعيدة عنه. بين وقت وآخر أتقدّم قليلاً من مدخل القبو وأمدّ رأسي لأتطلّع إلى داخله. لكنّي لم أر شيئًا، فقد كان مظلمًا. الشيء الوحيد الذي تمكّنت من رؤيته هو بداية السلّم.

أتوجّه إلى النافذة. أزيح جزءًا من الستارة. وأنظر طويلاً في اتجاه العمارات بحثًا عن الجزء الأعلى من شجرة الدلب. أفكّر من جديد وأنا أحدّق في الظلام الكثيف في الأحيمر السعدي بدون أن أنجح في تحديد صورة له في ذهني.

حين أسدل الستارة يتناهى لي تنفّس ماري كلير وهو يتردّد بانتظام معلنًا أنّ الجسد أسلم أخيرًا أمره للنوم. يخطر ببالي أن أوقظها لتنتقل إلى غرفة النوم، لكنّي أقرّر بعد تردّد أن أتركها على الكنبة، فقد كانت مستغرقة في النوم مثل طفلة.

ـ ٧ ـ

لاديسلاس الصغير هو السبب في أوّل خصومة بيننا.

ـ كيف تتركني نائمة على الكنبة؟

تسألني ماري كلير. لم يكن في صوتها أيّة نبرة غضب. ومع ذلك أنزعج كثيرًا من سؤالها الذي لم أكن أتوقّعه إطلاقًا خصوصًا أنّه أوّل شيء تقوله لي حين أفيق من النوم في الصباح.

ـ لكي تختلي بعشيقك لاديسلاس طول اللّيل..

لا أدري كيف خرجت الكلمات من فمي. كأنّ شخصًا آخر كان يتكلّم بدلاً منّي. لا أشكّ أنّ غيرتي من لاديسلاس أكبر ممّا كنت أظنّ. ومن الواضح أنّ ما قرأته من شعر للأحيمر السعدي قبل أن أنام لم ينفعني كثيرًا.

ـ آ.. أنت غيور إذن..

تبتسم وتتوجّه إلى المطبخ لتعدّ الفطور. نتناوله لأوّل مرّة في صمت. ثمّ نغادر الشقّة معًا. عندما نصل إلى محطّة المترو نفترق. هي تذهب إلى البريد، وأنا أتوجّه إلى الجامعة.

طوال النهار لم أنس ما قلته لها. حالما انتهى الدرس الذي مرّ بسلام هذه المرّة، إذ إنّ الطلاب أحبّوا كثيرًا الصعاليك المغمورين مثلما كنت أتوقّع، أدركت أنّني ارتكبت خطأً حين أجبت عن سؤال ماري كلير الذي كان عاديًّا وطبيعيًّا في نهاية الأمر بهذه الطريقة. والأسوأ من ذلك أثبت لها أنّني رجل هشّ وضعيف أغار من طفل كان يقبّلها قبل أكثر من عشرين عامًا في قبو مقهى يعجّ بالفئران.

فكّرت أن أعتذر لها فور وصولها إلى البيت. إلاّ أنّني تخلّيت بسرعة عن الفكرة رغم ندمي الشديد على ما بدر منّي. ليس فقط لأنّي كنت أجد في تلك الفترة صعوبة في الاعتذار، وإنّما أيضًا لأنّي أريد أن أدفعها إلى القيام بشيء مماثل لما قمت به. كنت أريد أن ترتكب هي أيضًا خطأً ما. أن تصرخ في وجهي مثلاً. أن تلومني بقسوة. ولم لا! أن تشتمني، وإن كنت أستبعد ذلك. هكذا يتلاشى ندمي، وأنسى شيئًا فشيئًا ما ولّدته لديها من انطباع حول هشاشتي وضعفي.

إلاّ أنّ كلّ ما خطّطت له وأعددت له نفسي سقط في الماء، فقد مكّنتني تلك الخصومة الأولى والصغيرة نسبيًّا من أن أكتشف أنّ ماري كلير تشبه أيّة امرأة في هذا المجال، رغم هذا المزيج من البراءة والألفة والهدوء الذي يشعّ من وجهها موحيًا لي أحيانًا بأنّني أمام طفلة، وأنّها تمتلك أسلحة فتّاكة لا تخطر على البال أخطرها على الإطلاق وأكثرها تعذيبًا للنفس الصمت.

حالما أسمع صوت المفتاح في قفل الباب أندفع واقفًا. تقبّلني كالعادة لكن بدون أن تأخذني في حضنها. تتهالك على الكنبة بشكل يدلّ أنّها منهكة من الشغل. أرقبها وهي تنزع حذاءها وجاكتتها منتظرًا أسئلتها المعهودة، لكنّها تظلّ صامتة.

أتركها وحدها في الصالون لكي تستريح قليلاً. ثم أعود إليها فأجدها هامدة على الكنبة. بعد تردّد أقرّر أن أثير الموضوع.

ـ غضبانة؟

لا تردّ. تشبك يديها لتتوسّدهما، وتغمض عينيها.

أعيد السؤال. تفتح عينيها. تتطلّع إليّ قليلاً، ثمّ تغمضهما.

ـ لماذا لا تتكلّمين؟

ـ ليس لديّ ما أقوله.

ـ تعبانة؟

تحرّك رأسها بالنفي.

ـ لماذا أنت صامتة إذن؟

ـ لا أدري.

ـ لا تدرين؟.. أكيد أنّك غضبانة.

ـ لست غضبانة.. ولكن!

ـ لكن ماذا؟

ـ لا أدري.

ـ كيف لا تدرين؟.. أريد أن أعرف.

ـ هذا ليس مهمًّا..

يستولي عليّ الانفعال وأفقد تماسكي وهدوئي.

ـ ماذا قلت لك حتى تغضبي إلى هذا الحدّ؟.. أنت حسّاسة أكثر من اللازم.. أنت امرأة غريبة.

أدرك فجأة أنّني أورّط نفسي أكثر. يتفاقم إحساسي بالندم وأنقم على نفسي. أندفع واقفًا. أتوجّه إلى المطبخ. بعد لحظات طويلة أعود إلى الصالون. وأجلس بالقرب منها. أقول مغيّرًا مجرى الحديث:

ـ تعرفين كيف مرّ الدرس اليوم في الجامعة؟

تحرّك رأسها حركة خفيفة بدون أن تنبس بكلمة.

ـ بسلام.. لأوّل مرّة أشعر أنّ الطلاب يحترمونني.. أتدرين لماذا؟

أنتظر كلمة أو إشارة من رأسها، لكنّها لا تفعل شيئًا.

ـ لأنّني حدّثتهم عن الصعاليك.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي ألفظ فيها كلمة صعاليك أمام ماري كلير. قلتها بالعربيّة. تتطلّع إليّ بعينين تفضحان رغبة في الكلام، غير أنّها تظلّ صامتة. فيما بعد لمّا تصالحنا أبدت اهتمامًا كبيرًا بالصعاليك. حدّثتها عنهم وترجمت لها شيئًا من شعر المغمورين منهم، فأحبّتهم كثيرًا وصارت تسألني عنهم بين وقت وآخر.

ـ تعرفين من هم الصعاليك؟

أسألها بحماس مبالغ فيه وأنا أزداد اقترابًا منها محاولاً إثارة أكثر ما يمكن من انتباهها.

ـ شعراء ولصوص.. نعم.. شعراء ولصوص في الوقت نفسه.

تتفرّس في وجهي وقد صارت رغبتها في الكلام أشدّ وضوحًا. أستغلّ الفرصة فأضيف بالحماس نفسه:

ـ وقطّاع طرق أيضًا.

أسكت قليلاً. ثم أواصل بصوت خافت كأنّي أفشي سرًّا:

ـ ومجرمون..

أتفرّس بدوري في وجهها. تنفرج شفتاها وترتعشان ارتعاشة خفيفة. يخيّل إليّ أنّها على وشك الابتسام. أتابع وقد غمرني شيء من الارتياح:

ـ وخارجون عن القانون. . لذلك كانوا يعيشون في الفلوات والقفار. . مع الذئاب والأفاعي.

أدرك فجأة أنّه لم يعد لديّ ما أقوله عن الصعاليك، في تلك المرحلة الحاسمة التي بدأت فيها ماري كلير كما يخيّل لي تلين. وبدون أن أفكّر في الأمر أواصل مستعرضًا بعض ما قلته للطلاّب:

ـ الأحيمر السعدي بلغ أمكنة لم يصل إليها أحد قبله. . كان يرتاح لعواء الذئاب. . وعندما يسمع صوت آدمي يهرب فزعًا.

تدير ماري كلير رأسها إلى جهة النافذة. تمدّ ذراعيها ثمّ تدسّ يديها المضمومتين بين فخذيها. إلاّ أنّني لا أفقد الأمل في دفعها إلى الكلام للتخلّص من هذا الصمت الذي لم أعد أحتمله، فأنا مقتنع بأنّ لديها رغبة حقيقيّة في أن تقول شيئًا ما بعد كلّ الذي رويته لها، بالرّغم من أنّها تتظاهر بعكس ذلك. أفكّر قليلاً هذه المرّة، ثمّ أقرّر أن أحدّثها عن السليك بن السَلَكة، فقد لاحظت أنّ الطلاّب أحبّوه أكثر من غيره.

ـ السليك الأسود. . لا أحد يعرف مثله الفلاة لكثرة ما تردّد عليها. .

تتطلّع إليّ ماري كلير من جديد للحظة ثمّ تغمض عينيها.

ـ كان سريع العدو. . ويسبق الخيل.

فجأة تنهض بسرعة. تنحني أمام النباتات. تمسك ببعض

الأوراق. وتبدأ في تأمّلها غير مبالية بما أقول. ينتابني شيء من اليأس فأسكت. أتمدّد قليلاً على الفراش في غرفة النوم. وفيما بعد أتوجّه إلى المطبخ وأشرع في حمل الصحون ووضعها على الطاولة في الصالون استعدادًا للعشاء الذي بدأ موعده يقترب. وباستثناء الكلمات القليلة التي لفظتها في البداية، لم تفعل ماري كلير طوال السهرة أكثر من تحريك رأسها والتطلّع إليّ بين الفينة والأخرى.

طوال ثلاثة أيّام لم تغيّر ماري كلير سلوكها. تقبّلني في الصباح حين نفترق وفي المساء حين نلتقي. نجلس معًا في الصالون. نتعشّى معًا. لكنّها لا تكلّمني إلاّ عند الضرورة مستعملة أقلّ ما يمكن من الكلمات. وحين أسألها في اليوم الرابع عن سبب هذا الصمت الغريب تقول بنبرة تخلو من أيّ انفعال:

ـ في المستقبل لا ترتكب مثل هذه الحماقات..

ـ ٨ ـ

أتناول مخدّتها، أضعها فوق رأسي، وأغمض عيني.

حالما صحوت استدرت لألتصق بها. غير أنّها لم تكن هناك. المخدّة باردة. لكن مكانها تحت الغطاء لا يزال يحتفظ بشيء من الدفء.

ذهبت إلى الشغل دون أن أراها، دون أن ألمسها، دون أن أشمّ رائحة نومها. لم أفطن إليها وهي تتثاءب، وهي تنحني عليّ، وهي تقبّلني. لم أنتبه إليها وهي تترك الفراش، وهي تغلق باب الغرفة، وهي تعدّ الفطور، وهي تدير المفتاح في القفل.. لا بدّ انّها فعلت كل ذلك بكثير من الهدوء لكي لا تحرمني من لذّة النوم الذي كنت بالتأكيد مستغرقًا فيه.

لا أغادر الفراش. ليس فقط لأنّي لا أشتغل في ذلك الصباح، وإنّما أيضًا لأنّي أخشى أن أفسد هذا الإحساس بالانتشاء الذي يغمرني إن تركته. أتقلّب قليلاً، ثمّ أرقد على ظهري. مخدّتها الآن فوق أنفي تمامًا. رائحتها قويّة، خليط من العطر والعرق. رائحة أنثى نائمة، لذيذة ومخدّرة، تزيد في إحساسي بالانتشاء. أمرّر أنفي على المخدّة ببطء بحثًا عن النقطة التي تتركّز فيها

الرائحة. أضغط قليلاً بيدي اليسرى على المخدّة لكي لا تنزلق، وأشرع في تشمّمها وأنا أتحسّس بأصابع اليد الأخرى مكانها الذي لا يزال دافئًا.

لم أكن أتصوّر قبل تلك اللّيلة أنّ المرأة يمكن أن تكون سخيّة إلى هذا الحدّ.

كأنّ جسدي يولد من جديد. أحسّه يتخلّص من كلّ ما كان يكبّله ويشلّه. والحرمان الذي تراكم فيّ طوال أعوام أشعر به يذوب كالثلج. إلاّ أنّ المثير حقًّا هو أنّي صرت أرى جسدي بشكل مختلف. أتلمّسه بدون أيّ إحساس بالحرج. أنظر إليه بدون خجل. أتحدّث عنه بجرأة وبدون مواربة.

ويرافق كلّ هذا إحساس بشيء من الزهو. فلأوّل مرّة في حياتي أشعر أنّني قادر على أن أشبع امرأة وأرويها إلى الحدّ الذي يجعلها تصعد عاليًا حتى تبلغ السماء السابعة، كما تقول ماري كلير. للمرّة الأولى أيضًا أسمع امرأة تقول لي بوضوح كلامًا من هذا القبيل. قبل ذلك كنت معقّدًا بسبب هذا الجسد النحيل الرقيق الهشّ. لا أنتظر منه الكثير. ولا أعول عليه في اللحظات الحرجة والحاسمة. كنت أتألّم في سرّي وأنا أسمع ما يرويه الرجال حولي عمّا يفعلونه للنساء. وشيئًا فشيئًا أقنعت نفسي بأنّ شيئًا ما ينقصني في هذا المجال.

وفي بعض الأحيان أتساءل عمّا إذا كان هذا النقص له علاقة ما ـ ومن يدري! بكوني كنت آخر حبّة في العنقود، أو عمّا إذا

كان يعود إلى المرض الذي أصابني وكاد يودي بحياتي وأنا طفل، بل وحتى عمّا إذا كان عقابًا إلٰهيًّا على ما كنت أفعله لإناث الحمير السائبة التي تتجمّع في عزّ الحرّ حول البئر بحثًا عن قليل من الماء، وللنمل والعقارب والعصافير المسكينة. .

أشعل الضوء وأتمدّد على بطني. أضع المخدّة على مخدّتي. أشبك ذراعيَّ وأضغط بهما بكلّ قوّة عليها لكي تنتقل رائحة ذلك المزيج من العطر والعرق وجسد الأنثى النائمة إلى مخدّتي. وعندما أنتهي من ذلك أنتبه، وأنا أتأمّل الأشكال الهندسيّة المرسومة على غلاف المخدّة، أنّ رأسها قد أحدث في وسطها تجويفًا خفيفًا تبدو حدوده واضحة على ضوء اللّمبة القريبة من السرير. تقع عيناي على شعرة عالقة بطرفها. ثمّ على ثانية وثالثة. ألتقط إحداها. أقرّبها من اللّمبة. أتطلّع إليها قليلاً. ثم أعيدها إلى مكانها. أشعر بعد وقت قصير شرد خلاله ذهني أنّ إحساسي بالانتشاء أخذ يتناقص. أطفئ الضوء فورًا. وأرقد من جديد على ظهري. وأغمض عينيَّ. ثمّ أشرع في استعادة كلّ ما حدث لي مع ماري كلير متوقّفًا عند أبسط التفاصيل ومحاولاً تذكّر كلّ ما عكسه وجهها من أحاسيس. الغريب أنّي أكاد لا أصدّق بعض ما أستعيد لروعته رغم أنّي متأكّد من أنّه حدث فعلاً.

عندما أفيق من الغفوة التي أخذتني أنتبه إلى أنّ ضوء النهار تسرّب إلى الغرفة، رغم أنّ الستائر مسدلة وضلفتي النافذة مغلقتان. لا بدّ أنّ السماء صافية أو قليلة الغيوم أقول لنفسي. لا بدّ أنّ الشمس التي كانت متوارية خلف البنايات قد ارتفعت الآن

في السماء. أتطلّع إلى الساعة، وأندفع خارج الفراش. ألاحظ وأنا أرتدي ملابسي أنّ رائحة ماري كلير لا تزال عالقة في جسدي. أقرّر ألاّ أستحمّ في ذلك اليوم. ليس لأنّه لا رغبة لي في ذلك أو لأنّه لم يعد لديّ ما يكفي من الوقت للقيام به، وإنّما لأنّي أريد أن أحتفظ بتلك الرائحة. أريدها أن تصحبني أطول وقت ممكن.

وبالرغم من أنّي أشعر بالجوع، والفطور الذي أعدّته ماري كلير وتركته لي على الطاولة يحتوي على الكثير ممّا أشتهيه، فإنّي لا أشرب سوى فنجان قهوة ولا آكل سوى بيضة مسلوقة. أفعل ذلك بسرعة وبدون حتى أن أجلس. ثم أغادر الشقّة على عجل.

إلاّ أنّني بدلاً من أن أذهب إلى بلفيل حيث الفندق الذي أشتغل فيه أركب المترو متوجّهًا إلى مونبارناس، حيث دائرة البريد التي تعمل فيها ماري كلير. لا أدري لماذا أفعل ذلك. ولا أتساءل عمّا إذا كان لديّ من الوقت لأقوم به، وعمّا إذا كنت سأسبّب إزعاجًا للزميل الذي سأحلّ محلّه، وعمّا إذا كنت سأخيّب ظنّ صاحب الفندق المعجب بي إن وصلت متأخّرًا. كل ما أشعر به هو أنّ قوّة داخليّة غامضة تجتذبني نحو بريد مونبارناس. وهي المرّة الأولى التي يحدث لي فيها ذلك.

في المترو أتطلّع إلى النساء بثقة وجرأة لم أعهدهما فيّ من قبل. كل شيء ممكن معهنّ إذن. مع كل واحدة منهنّ. نعم. أقول في نفسي. كل شيء ممكن رغم الوجوه الصارمة والنظرات

الباردة اللامبالية. وحتى الجميلات اللاتي كنت أراهنّ صعبات، إلى درجة أنّي كنت أتساءل عن نوع الكائنات الذكوريّة التي يفتحن لها أجسادهنّ، يبدون لي مثل كل النساء.. سهلات طيّعات.

حالما أخرج من محطّة المترو وأشرع في السير متوجّهًا إلى دائرة البريد، أدرك أنّني بصدد القيام بشيء قد يضع حدًّا لكل الأحاسيس الجميلة التي تغمرني منذ أن وضعت مخدّتها على رأسي. ستندهش ماري كلير عندما تراني. ستستغرب مجيئي إلى البريد في وقت من المفروض أن أكون فيه في الفندق. قد يسبّب لها شيئًا من الإزعاج. بل وربما يداهمها قليل من الخوف إذ تظنّ أنّي أحمل خبرًا سيّئًا. ثمّ بماذا سأجيبها لو سألتني عن سبب مجيئي المفاجئ؟ هل أقول لها إنّني أسير قوّة داخليّة غامضة تجتذبني إليها، أم أنّي أريد أن أعرف كيف كان وجهها في ذلك الصباح، أم أنّني بكلّ بساطة لا أدري كيف قادتني قدماي إلى بريد مونبارناس؟

أتوقّف عن السّير. أجلس على واحد من تلك المقاعد الخشبيّة المتناثرة على الرصيف لأدرس الأمر بهدوء. بعد لحظات أتخذ قرارًا يبدو لي معقولاً سهل التنفيذ، ويستجيب بشكل ما لهذه القوّة التي تدفعني إليها، وهو أن أراها من بعيد من دون أن أتيح لها أيّة فرصة لكي تراني. ليس في البريد طبعًا حيث تكون على الأرجح في مكتبها وإنّما في طريقها إلى المطعم الذي تتناول فيه الغداء. كنت أعرف أنّها تتردّد بشكل شبه منتظم مع زملاء وزميلات لها في مثل ذلك الوقت على مطعم صغير قريب من

البريد، لكن بما أنّ المطاعم الصغيرة كثيرة في هذا المكان، وهي موزّعة على جانبي الشارع، ينبغي أن أركّز نظري على مدخل البريد لكي لا تفلت منّي لدى خروجها.

أستأنف السير وقد ازداد تحمّسي للقرار الذي اتّخذته. عندما أصبح على بعد أمتار قليلة من البريد أتوقّف وأتطلّع حولي. أعتبر نفسي محظوظًا حين أشاهد على الرصيف العريض وتحديدًا على حافّته ومقابل البريد عمود إعلانات ضخمًا.

أختفي وراءه. وأشرع في مراقبة المدخل. أدرك بعد لحظات أنّي أضع نفسي في موقف غريب، فقد انتبهت إلى أنّ بعض المارّة الذين لاحظوا بالتأكيد التصاقي بالعمود يتطلّعون إليّ بشيء من الحيرة قبل أن يبتعدوا قليلاً، تمامًا مثلما يفعلون عندما يعترضهم مجنون أو مشرّد غريب. ينتابني إحساس خفيف بالاحتقار لنفسي وبالخجل من انتصابي بهذا الشكل خلف العمود. لكنّي لا أعدل عن قراري خصوصًا أنّي كنت على يقين من أنّ ماري كلير لن تتأخّر كثيرًا في الخروج.

تشتدّ الحركة في المدخل وتزداد سرعة، لكنّي لا أهمل أحدًا. أدقّق النظر في كل داخل وخارج. إلاّ أنّ الوقت يمرّ وماري كلير لا تظهر. أزداد خجلاً واحتقارًا لنفسي. وأشعر بشيء من الارتباك. وفي محاولة لتجاوز كل ذلك أخفض رأسي قليلاً من دون أن أحيد بنظري عن مدخل البريد. وأشرع في تشمّم ما بقي عالقًا في جسدي من رائحتها.

إلاّ أن هذا لم يكن مجديًا، بل أستطيع أن أقول إنّه أدّى إلى عكس ما كنت أنتظر، إذ فاقم ارتباكي من دون أن يخفّف إحساسي بالخجل والاحتقار لنفسي. ولا بدّ أن أضيف أنّني لاحظت في التفاتة سريعة حولي أنّ المارّة صاروا يتطلّعون إليّ بحيرة أكبر. وهل يمكنهم، أقول لنفسي، أن يفعلوا غير ذلك وهم يشاهدون رجلاً منتصبًا خلف عمود إعلانات يحدّق في نقطة بعيدة ويتشمّم نفسه مثل حيوان مذعور؟

الدقائق تمضي بسرعة، والساعة تجاوز الواحدة. لكن! لا جديد في مدخل البريد سوى أنّ الحركة أخذت تتناقص. لن أراها إذن. حتى ولو من بعيد. لا بدّ أنّها تناولت الغداء مبكرًا جدًّا هذه المرّة. وربما أرجأت ذلك إلى ساعة أو ساعتين لسبب ما. ولكنّي لا أستطيع أن أنتظر أكثر ممّا انتظرت. ينبغي أن ألتحق بشغلي فورًا.

- ٩ -

لا شيء يبقى على حاله هنا.

لذلك لم نفاجأ كثيرًا عندما عدنا بعد فترة طويلة إلى المقهى الذي تعارفنا فيه ووجدناه مختلفًا تمامًا عمّا كان عليه. كلّ شيء فيه تقريبًا تغيّر. الكونتوار. الطاولات والكراسي. الندل. حتى المرايا التي رأيت في إحداها للمرّة الأولى وجه ماري كلير أزالوها، ممّا جعل المقهى يبدو بجدرانه العارية أقلّ اتّساعًا وحميميّة من قبل.

لم أكن متحمّسًا في ذلك المساء للجلوس في أيّ مقهى. كنت أريد أن أعود فورًا إلى البيت. لكن ماري كلير تلفنت لي عدّة مرّات، حتى أنّ صاحب الفندق الذي كان جالسًا بجواري في الاستقبال سألني بلطفه المعهود عمّا إذا كانت لديّ مشاكل مبديًا رغبته في مساعدتي. وفي النهاية وافقت. ليس لأنّها أقنعتني بالمتعة التي سيوفّرها لنا اللقاء حول كأس بيرة صغيرة كما تقول، وإنّما لأنّي شعرت أنّها تحتاج حقًّا إلى أن نلتقي ونجلس في مقهى ما قبل أن نعود إلى البيت. أحسست أنّ رغبتها في أن تكون في ذلك المساء في مكان مليء بالناس ويضجّ بالحركة أقوى من أن

تتحكّم فيها، بالرّغم من أنّه لم تمض سوى ثلاثة أيّام على آخر مرّة ذهبنا فيها إلى المطعم ثم إلى السينما. ولمّا سألتها عن المكان الذي تودّ أن نلتقي فيه لم تتردّد لحظة واحدة. أجابت: المقهى الذي رأيتني فيه لأوّل مرّة.

تصرّ ماري كلير التي وجدتها واقفة أمام مدخل المقهى في انتظاري على أن نجلس إلى طاولة توجد في المكان الذي تبادلنا فيه النظرات الأولى. ألاحظ وأنا أتطلّع إلى وجهها أنّ عينيها مكحّلتان، وأنّ شفتيها مطليّتان بأحمر خفيف جدًّا ما كنت أراه لو لم أدقّق فيه النظر. أدرك أيضًا أنّها غير كئيبة أو مشوّشة الذهن أو منزعجة كما خيّل إليّ وأنا أستمع إلى صوتها في التلفون.

لماذا أصرّت على أن نلتقي خارج البيت إذن، أتساءل وأنا أحاول أن أحافظ على هدوئي؟ وفيما كنت أبحث عن تفسير لرغبتها الملحّة، تتفرّس في وجهي كأنّما قرأت فيه السؤال الذي يحيّرني، وتقول لي وهي تبتسم:

ـ من الواضح أنّك نسيت هذه المرّة أيضًا..

ـ ماذا؟

ـ ماذا؟.. عيد ميلادك.. غدًا.. أي بعد ساعات قليلة من الآن.

أشعر بقليل من الانزعاج. لكنّني أظلّ صامتًا ساكنًا في مكاني خوفًا من أن أقول كلمة، أو أقوم بحركة، تغضب ماري كلير

وتبدّد فرحها بعيد ميلادي. لم يخطر ببالي إطلاقًا خلال مكالماتها أنّها تنصب لي فخًّا محكمًا. لو انتبهت إلى ذلك لرفضت طلبها. ثمّ لماذا كل هذا الإصرار على اللّقاء في مقهى؟ أليس ممكنًا أن تذكّرني بهذا العيد في البيت؟

الحقيقة أنّني لا أحتاج إلى تذكير، فأنا لم أنس عيد ميلادي. لكنّي سلكت حتى ذلك الوقت كما لو أنّ الأمر لا يعنيني، لأنّي لست واثقًا من أنّي ولدت في ذلك اليوم. حاولت عدّة مرّات أن أقنع نفسي بذلك، بيد أنّني لم أستطع. وحتى لو كنت على يقين من أنّي جئت إلى هذا العالم في التاريخ المسجّل في شهادة الميلاد لما تحمّست للاحتفال به، لأنّي أكره كلّ الأعياد وأجدها كئيبة خلافًا لما يجب أن تكون عليه. . إذ تتعطّل فيها الحياة ويقلّ النشاط ويبدو الزمن طويلاً مملاً، ويجد فيها الإنسان نفسه مرغمًا على أن يبدو أمام الآخرين فرحًا. ثم إنّني لا أفهم إلى حدّ الآن كيف يحتفل الإنسان إلى هذا الحدّ بحدث ليس مسؤولاً عنه، ولم يختره، فضلاً عن أنّه يقرّبه كلّ عام من الموت؟

أسيطر على إحساسي بالانزعاج، وأستعيد هدوئي. من الواضح أنّ ماري كلير تستغلّ فرصة عيد الميلاد لتفرح وتحتفل بالحياة وتتمتّع بها مرّة أخرى. من حقّها أن تفعل ذلك أقول في نفسي. يجب أن أخفي عنها كلّ ما يعتمل داخلي من أحاسيس. يجب ألاّ أقول لها شيئًا ممّا كنت أفكّر فيه. فليس من اللائق أن أفسد عليها هذه المناسبة التي توليها على ما يبدو كثيرًا من الاهتمام.

لم تطلب ماري كلير بيرة صغيرة كما قالت لي في التلفون، بل شوكولاتة مذوّبة ساخنة. تمسك بالفنجان الكبير بيديها الاثنتين. ترفعه على مهل إلى فمها. تكوّر شفتيها فيبدو الأحمر عليهما أكثر وضوحًا. تنفخ قليلاً على الشوكولاتة الساخنة قبل أن تتناول منها رشفة صغيرة. تتمطّقها طويلاً بعد أن تعيد الفنجان إلى مكانه على الطاولة.

تظلّ يدها اليسرى ممسكة بعروة الفنجان كالعادة. بعد وقت قصير تنزلق قليلاً بجسدها على الكرسي في اتجاهي وتدسّها بين فخذيَّ فيسري فيَّ شيء من دفئها. أتذكّر اليوم الذي رابطت فيه أمام مبنى البريد لرؤيتها من بعيد. يخطر ببالي أن أروي لها الحادثة بكل تفاصيلها، لكنّي لا أفعل.. بالرغم من أنّي كنت متأكّدًا من أنّ ذلك اللقاء فرصة رائعة للتخلّص من هذه الأسرار الصغيرة.

ـ لا بدّ أن نحتفل بعيد ميلادك.. وسنبدأ الاحتفال هذه الليلة..

تقول ماري كلير. أهزّ رأسي موافقًا. تضيف بعد أن تسحب يدها لتتناول رشفة أخرى من الشوكولاتة وتتمطّقها بشكل أثار شهيّتي إليها:

ـ سنتناول العشاء في مطعم.

لم أفاجأ بكلامها، فقد كنت واثقًا من أنّ الاحتفال لن يستقيم

ويكتمل إلاّ بـ «خروج حقيقيّ»، كما تقول ماري كلير، يحتوي برنامجه طبعًا على تناول العشاء في مطعم.

بعد أن نغادر المقهى نتمشّى قليلاً على الرصيف بمحاذاة سياج حديقة الليكسمبورغ. تلتصق بي ماري كلير وتتأبّط ذراعي. وبين وقت وآخر تميل عليّ بكامل جذعها واضعة رأسها على كتفي ممّا يفاقم إحساسي بالحرج كلّما اعترضنا أحد. فلا بدّ من الاعتراف بأنّ الالتصاق بي إلى هذا الحدّ وتقبيلي ومداعبتي وكلّ مثل هذه الأشياء التي تقوم بها ماري كلير بتلقائيّة لا تزال تحرجني وتربكني في الأمكنة العامّة، بالرّغم من أنّي أعرف أنّها لا تكاد تثير انتباه أحد.

نترك الحديقة خلفنا، ونتوغّل في المدينة. كانت هي التي تحدّد اتجاه السير. لم أشأ أن أتدخّل في ذلك. جسدي يستجيب لكلّ حركة من حركاتها. كم هو جميل أقول في نفسي أن يسلّم الرّجل أمره لامرأة مثل ماري كلير لتقوده بحسّ الأنثى وحدسها وذكائها الفطري البدائي إلى حيث تريد. إلى حيث لا يعرف ولا يريد أن يعرف.

ننتقل من رصيف إلى آخر، ومن شارع إلى آخر صامتين. ألتفت إليها فتبتسم. وشيئًا فشيئًا أنسى شعوري بالحرج. ويحلّ محلّ الارتباك اطمئنان يرافقه إحساس خفيف بالغبطة. أدرك أنّ عدوى الاحتفال بالمناسبة بدأت تتسرّب إليّ، وأنّ الفرح الذي يزداد وضوحًا في عينيها الملتمعتين أخذ يغزوني.

ـ المطعم الذي سنذهب إليه مفاجأة. .

تقول بصوت أقرب إلى الهمس قبل أن تترك ذراعي التي كانت تتأبّطها وتبتعد عنّي قليلاً. تضيف بعد دقائق كما لو أنّها تريد أن تحثّني على مواصلة السير:

ـ لا تخف. . لم يعد بعيدًا.

لم أحسّ بأيّ تعب رغم أنّنا قطعنا مسافة طويلة. لم يكن مهمًّا أن يكون المطعم الذي تصطحبني إليه بعيدًا. لديّ استعداد وأنا في تلك الحالة النفسيّة الجيّدة التي استطاعت أن تنقلني إليها أن أتبعها إلى أبعد مطعم في المدينة حتى ولو هدّني التعب.

أغلب الشوارع التي نعبرها ضاجّة في مثل ذلك الوقت. المقاهي تزداد ازدحامًا كالعادة. والمطاعم بدأت تمتلئ بالروّاد. روائح تبغ وبيرة ونبيذ وأطعمة. أصوات وقهقهات. ابتسامات على الشفاه. رغبات في العيون. وفي الفضاء المشبع بالضوء رائحة الجنس.

في نهاية شارع طويل تتوقّف أمام مطعم صغير، ما كنت ألاحظ وجوده لو لم تشر إليه بيدها. فهو محصور بين مطعمين كبيرين ينتصب في مدخل كل منهما رجل لا تفارق الابتسامة فمه، يرحّب بالزبائن ويحثّ المارّة المتردّدين على الدخول.

ـ هذا هو المطعم. . سنأكل فرنسي هذه اللّيلة.

أقترب من الباب البلّوري. أنحني قليلاً لأنظر إلى الداخل.

الموائد صغيرة تكاد تكون متلاصقة. الأضواء خافتة. والزبائن القليلون وأغلبهم سيّاح على ما يبدو يجلسون متباعدين. بعضهم منهمك في الأكل. والآخرون يتطلّعون حولهم.

ـ أنا التي ستدفع الحساب هذه المرّة..

تقول ماري كلير وهي تقرّب رأسها من قائمة الطعام المعلّقة بالقرب من الباب. أدنو منها فتمسك بذراعي من جديد وتسألني:

ـ ماذا تريد أن تأكل في عيد ميلادك؟.. ما رأيك في سمّان بالعنب أو بط بالبرتقال؟.. ربّما تريد أن تأكل ديكًا بالنبيذ؟

تردّد ذلك عدّة مرّات.. ثم تنفجر ضاحكة. فقد كانت تعرف أنّني أجد أسماء بعض الأطباق الفرنسيّة طريفة وأحيانًا غريبة بعض الشيء. أيّ علاقة مثلاً، أسألها بحماس، بين طائر كالسمّان وفاكهة كالعنب لكي نجدهما مجتمعين في طبق واحد؟

تدفع ماري كلير الباب وتدخل وهي تجرّني من ذراعي. أتبعها وأنا أتخيّل ديكًا منتوف الريش سكران لكثرة ما شرب من نبيذ يتقلّب في قعر قدر تغلي!

ـ ١٠ ـ

نظرات ماري كلير المثبتة عليّ صارت منذ أن فرغنا من الأكل أكثر وضوحًا ودلالة.

لم تمنحني حالة السكر التي أنا فيها من أن أحدس أنّها تمهّد لمفاجأة أخرى. وكلّما استطالت ابتساماتها ازددت اقتناعًا بأنّ المفاجأة ستكون أكبر من مفاجأة المطعم، إذ لم يسبق أن رأيت ماري كلير تبتسم بهذا الشكل وبدون أن يكون هناك ما يدعو إلى ذلك.

ولم يخطئ حدسي. فلم نكد نخطو بضع خطوات بعد خروجنا من المطعم حتى قالت بلهجة من يفشي سرًّا لم يعد قادرًا على تحمّله:

ـ سأحملك إلى مكان لا يمكن أن يخطر ببالك.

ـ أيّ مكان؟

ـ تعال.. اتبعني ولا تتكلّم.

لا أتفوّه بأيّة كلمة. أنقاد لها مستسلمًا. الليلة ليلتها أقول لنفسي. العيد عيد ميلادي، لكنّ الاحتفال احتفالها. بعد أن نقطع

مسافة قصيرة أنتبه إلى أنّها تقودني في اتجاه حديقة الليكسمبورغ وأنّنا نعود إلى الشوارع التي عبرناها في طريقنا إلى المطعم. المقاهي ازدادت ازدحامًا وضجيجًا. المطاعم تغصّ بالروّاد. والأصوات والقهقهات وروائح البيرة والنبيذ والتبغ والقبل والنظرات وحركات الأجساد توحي بأنّ الاحتفاء بالحياة ومتعها الصغيرة يبلغ أوجه. احتفاء وثني صاخب يوقظ كلّ الحواسّ ويجعل من الرّجال والنساء كائنات هشّة نهمة فضوليّة حسّاسة لكلّ ما يحدث حولها.

تبطئ ماري كلير السير. تتطلّع إلى المقاهي والمطاعم. تتوقّف أمام واجهات المحلاّت الغارقة في الأضواء بالرغم من أنّها مغلقة. نقرأ بصوت عال بعض ما كتب على ملصقات الإعلان أو تعلّق على ما تتضمّنه من صور. تفعل ذلك بلذّة واضحة. في العادة أشرع في التبرّم من ذلك بعد وقت قصير وأستحثّها على السير، إذ إنّ التوقّف أمام واجهات المحلات يتعبني كثيرًا وأحيانًا يعكّر مزاجي. لكن هذه المرّة أتبعها صامتًا كطفل مطيع، بل وأحرص على أن أبتسم لها بين وقت وآخر لكي تكون واثقة تمامًا من أنّني لا أشعر بأيّ انزعاج من سيرها البطيء المتقطّع.

تمسك ماري كلير بيدي. تضغط عليها. تتحسّس أصابعي بشكل يوحي أنّ عدوى الاحتفاء أخذت تنتقل إليها. تطوّق خصري بذراعيها الاثنتين وتميل عليّ بكلّ جذعها وتلتصق بي فأشعر بنهدها على جنبي. أتساءل، وأنا أرقبها تحرّك رأسها في كلّ الاتجاهات كمن يبحث عن شيء ما، عمّا إذا ستكون

المفاجأة التي أعدّتها لي واحدًا من هذه المقاهي المزدحمة، له من التميّز والطرافة ما يجعله يتوّج «خروجنا» في تلك الليلة!

أحسّ وأنا أستسلم بمتعة لرغبة جارفة في النظر إلى كلّ ما يحيط بنا، والتفرّج على كلّ ما يحدث حولنا والتقاط ما يخترق الفضاء من أصوات وما يعبق به من روائح أنّ عدوى الاحتفاء بدأت تتسرّب إليّ أنا أيضًا. يغمرني شيء من الانتشاء يعمّق حالة السكر التي أنا فيها. الطقس دافئ. والهواء يخالطه من الرطوبة ما يكفي ليكون منعشًا. أشعر أنّني أتخلّص من كلّ ما أحدثه فيّ الشراب من تراخٍ وتعب وأنّي أصبح متماسكًا خفيفًا قويًّا..

حين نخرج من منطقة الشوارع الصاخبة المزدحمة نواصل السير في اتجاه حديقة الليكسمبورغ. تكفّ ماري كلير عن الالتصاق بي وعن تطويق خصري بذراعيها، لكنّها تظلّ ممسكة بيدي. تتوقّف أيضًا عن التطلّع إلى واجهات المحلاّت. تستعيد خطواتنا إيقاعها السابق. نحاذي لوقت قصير سياج الحديقة. يبدو لي أكثر علوًّا وضخامة في مثل ذلك الوقت الذي خلت فيه كلّ الأمكنة المحيطة بها. أتطلّع إلى الأشجار الضخمة وقد لفّها الظلام وحوّلها إلى كتل سوداء هائلة متلاصقة، تتحرّك قممها المستدقّة ببطء بين وقت وآخر كأنّها صواري سفن راسية. الهواء يزداد برودة. والصمت الذي بدأ يحكم قبضته على المدينة يصبح أشدّ وطأة وثقلاً الآن وقد ابتعدنا عن الشوارع المزدحمة.

ألتفت إلى ماري كلير ونحن ندخل منطقة يتكاثف فيها الظلام.

نظلّ نسير بالإيقاع نفسه على طرف الرصيف قريبًا جدًّا من السياج وأبعد ما يمكن عن الأضواء التي تنبعث من فوانيس الشارع. ليس باستطاعتي أن أتبيّن شيئًا من وجهها. أضغط على يدها فتتحسّس أصابعي وتلتصق بي. أشعر وأنا أصغي إلى وقع كعبي حذائها على بلاطات الرصيف أنّها منتشية خفيفة كالهواء، وأنّها تعيش واحدة من هذه اللحظات التي تكون فيها شديدة القرب منّي. أحسّ برغبة في أن أكلّمها. أن أقول لها شيئًا ما لكي أسمع صوتها.. لكنّي أبقى صامتًا.

ننتقل إلى الرصيف المقابل بعد خروجنا من منطقة الظلام الكثيف. نمرّ أمام المقهى الذي جلسنا فيه قبل ساعات. كان مغلقًا. لكن كلّ أضوائه لم تكن مطفأة، فقد كان بعض الندّل منهمكين في تنظيفه وترتيب كراسيه وطاولاته محدثين ضجيجًا يسمع من الخارج.

ننعطف ونسير في اتجاه مبنى البانتيون. عندئذ أنتبه إلى أنّنا نقترب من المكان الذي كانت ماري كلير تقيم فيه. الشوارع تكاد تكون خالية. السيّارات التي تعبرها قليلة، والمارّة أقلّ. كل المحلاّت مغلقة. والمطاعم والمقاهي تعدّ على الأصابع. ولكن إلى أين تحملني أقول لنفسي وأنا أنظر حولي! وللمرّة الأولى أشعر بالبرد. وبحثًا عن شيء من الدفء أميل على رأسها وأطوّق صدرها بذراعي.

نترك مبنى البانتيون خلفنا، وندخل شارعًا ضيّقًا جدًّا لا يتسع

رصيفه لأكثر من شخص. أسير خلف ماري كلير بضع خطوات وأنا أحاول أن أبقي ذراعي حول صدرها. أتعثّر وتتصادم أقدامنا فأبتعد عنها. أترك لها الرصيف وأنتقل إلى القارعة التي لم تكن مزفّتة بل مرصوفة ببلاطات صغيرة تلتمع على ضوء الفوانيس.

ـ انتبه.. البلاطات ملساء.. ثبِّت أقدامك حتى لا تنزلق.

بعد لحظات تضيف، وهي تتطلّع إلى مداخل العمارات وأبوابها الخشبيّة القديمة الضخمة:

ـ أحبّ هذا الشارع.. يذكّرني بشارع في مينيلمنتون.

أشعر في تلك اللحظة برغبة في معرفة هذا الشيء الذي تريد أن تريني إيّاه، فقد بدأت أجد المكان الذي تحملني إليه بعيدًا، كما أنّ إحساسي بالبرد تزايد خصوصًا وأنّ السكر أخذ يخفّ. إلاّ أنّي أظلّ صامتًا. أدرك فجأة وأنا أتطلّع إلى يافطات المحلاّت أنّه سبق لي أن عبرت هذا الشارع. متى؟ لا أدري. كلّ ما أذكره هو أنّي كنت وحيدًا وأنّ الشارع لم يكن خاليًا إلى هذا الحدّ.

ـ انظر.. هناك نجم!

تقول بحماس وهي تشير بيدها إلى السماء.

ـ انظر.. هناك آخر.. هناك ثالث.. منذ فترة لم أشاهد نجومًا.

أتطلّع إلى حيث أشارت.. النجوم الثلاثة متقاربة شديدة

الوضوح تلتمع وسط غيوم تبدو ثابتة. أنتبه إلى أنّني أنا أيضًا لم أشاهد نجومًا منذ فترة طويلة. أتأمّلها قليلاً ثم أواصل السير. شيئًا فشيئًا ينحدر الشارع ويصبح المشي على البلاطات أكثر خطرًا. أعود إلى الرصيف لأسير أمام ماري كلير هذه المرّة تاركًا بيني وبينها مسافة خطوة لكي لا تتصادم أقدامنا. لا أحد في الشارع غيرنا. لا حركة ولا ضجيج سوى وقع أقدامنا الذي يتسارع كلّما ازداد الشارع انحدارًا وهدير سيّارات بعيدة يتناهى إلينا خافتًا.

ـ انظر. أصدقاؤك.

تقول ماري كلير فجأة وهي تمدّ يدها في الاتجاه الذي كنّا نسير فيه.

ـ هل رأيتهم؟

أنظر إلى حيث أشارت فألمح أربعة متشرّدين بينهم امرأة ومعهم كلبان يمرّون بتمهّل في الشارع الذي يتقاطع مع الشارع الذي نسلكه. أرقبهم حتى يختفوا كلّهم. ماري كلير تسمّيهم أصدقائي تندّرًا، لأنّها لاحظت أنّني أهتمّ بهم وأحبّ أن أعطيهم بضعة سنتات بين وقت وآخر، منذ أن اكتشفت أنّهم ودودون ومهذّبون ولطفاء في غالب الأحيان خلافًا لما يمكن أن يوحي به مظهرهم وسلوكهم.

وحين نصل إلى ملتقى الشارعين نسمع فجأة ضجيجًا يرافقه

نباح وقهقهات آتية من الخلف. أستدير فورًا فإذا بمتشرّد يدنو من ماري كلير فاتحًا ذراعيه كمن يستعدّ لاحتضان صديق لم يره منذ أعوام.

ـ تعالي.. صغيرتي.. تعالي أيّتها الجميلة.

يساورني شيء من الخوف، وأندفع نحوه. لكن ماري كلير تمسك بيدي وتجذبني إليها.

ـ لا تهتمّ.

لم تنزعج. ولم يفاجئها ظهوره كأنّها كانت تتوقّعه. تضحك للمتشرّد وهي تتراجع برأسها لكي لا يلمس شعرها.

ـ تعالي.. سأحبّك كما لم يحبّك أحد.

تلتصق بي ماري كلير وهي لا تكفّ عن الضحك.

ـ تعالي.. سأكون أجمل رجل في حياتك.

تقول لي ماري كلير وهي تجذبني من جديد إليها كما لو أنّها تخشى أن أرتكب حماقة ما.

ـ لا تهتمّ.. دعه يقول ما يشاء.. بعد قليل سيذهب لحاله..

ـ تعالي.. أيّتها الأميرة!

نواصل السير. ترتفع قهقهات المتشرّدين خلفنا من جديد. ويشتدّ النباح. يتبعنا المتشرّد بضعة أمتار، ثم يعود إلى رفاقه وهو يردّد:

ـ أعرف.. لا حظّ لي هذا اليوم.. لا حظّ لي هذا اليوم.. أعرف..

ـ رأيت؟.. لا أحد غيري يرضى بك.

تقول المرأة بصوت مبحوح.

ـ ومن يرضى بهذا القذر؟

يسألها أحد المتشرّدين.

ـ رائحته كريهة جدًّا.. أكيد أنّه لم يغتسل منذ أكثر من شهر..

يقول المشرّد الآخر:

ـ أنفها مسدود.. ولكن من الأفضل لها أن يظلّ مسدودًا.

تتعالى قهقهاتهم مرّة أخرى. تضحك ماري كلير وتسألني إن كنت أسمع كلّ ما يقوله المتشرّدون. أهزّ رأسي بالإيجاب وأنا ألقي نظرة على حقيبتها اليدويّة التي تذكّرتها فجأة. أدسّ يدي في جيوبي. أتحسّس أوراقي الرسميّة. محفظة النقود. المفاتيح. كل شيء في مكانه. كنت متأكّدًا من ذلك، فالمتشرّدون هنا نادرًا ما يسرقون. يتسوّلون النقود. السجائر. تذاكر الأكل في المطاعم. وأحيانًا تذاكر المترو. لكنّهم لا يسرقون المارّة.. ومع ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أتحسّس ما في جيوبي لأزداد تأكّدًا من أنّ كلّ شيء على ما يرام، وخصوصًا أنّ أوراقي الرسميّة لا

تزال معي؛ وهي عادة ظهرت عندي منذ فترة طويلة وتفاقمت منذ أن صرت أقيم في هذه المدينة.

ـ لا بدّ أنّه شرب أكثر من اللازم.. فهذه أوّل مرّة يحبّني فيها متشرّد.

تلتفت ماري كلير إلى الخلف كما لو أنّها تريد أن تتأكّد من أنّ أحدًا من المتشرّدين لم يسمعها. تواصل بصوت أكثر ارتفاعًا:

ـ تعرف.. في مينيلمنتون كان هناك متشرّد رائع.. كل سكّان الشارع يحبّونه.. أعتقد أنّه أنظف متشرّد رأيته في حياتي. كنت لا أراه إلاّ في الصباح عندما أذهب إلى المدرسة. كان يقف دائمًا في المكان نفسه.. وحين تعطيه قليلاً من النقود يرفع قبّعته، فقد كانت له دائمًا قبّعة سوداء، ويتمنّى لك يومًا سعيدًا.. كان دائمًا في ثياب نظيفة وأحيانًا جميلة، وكنت لا أفهم لماذا يتحوّل رجل مثله إلى متشرّد.. فجأة اختفى، ولا أحد يدري ماذا حدث له. كان في حدود الأربعين. لم يكن جميلاً لكن شكله جذّاب.. عجيب.. أراه الآن بوضوح.. أتذكّر أيضًا نبرة صوته وحركة يده وهو يرفعها إلى القبعة السوداء.

نفترق من جديد. أتخلّى لها عن الرصيف الذي ازداد ضيقًا منذ أن عبرنا شارعًا آخر يتقاطع مع شارعنا. وأعود إلى قارعة الطريق بدون أن أبتعد عنها، فقد كنت واثقًا من أنّها لم تنه حكايتها عن المتشرّد.

ـ هل تعتقد أنّه مات؟

ـ لا أدري . .

ـ أنا أميل إلى أنّه مات.

ـ ربما . .

ـ تعرف . . المتشرّدون يموتون بسهولة هنا .

ـ لماذا؟

ـ لا أدري . . لكنّهم يموتون بسهولة .

تصمت ماري كلير لحظة طويلة، فأخمّن أنّه لم يعد لديها ما تقوله عن المتشرّد أو أنّها لم تعد ترغب في ذلك. أنظر إلى السماء بحثًا عن النجوم الثلاثة، فلا أرى شيئًا. لا شكّ أنّ الغيوم التي بدت لي ثابتة في السماء تحجبها الآن. من يدري ـ أقول في نفسي ـ ربما يرونها الآن في تونس وتحديدًا في قرية المخاليف وكل الدواوير المحيطة بها بوضوح شديد. ربما تلتمع الآن هناك مثلما كانت تلتمع هنا منذ حين.

أحسّ من جديد بالبرد. أضمّ ذراعيَّ إلى صدري وأتحسّسهما بأصابعي. وفيما أشرع في محاولة لتخيّل المكان الذي تقودني إليه أفاجأ بماري كلير تقول وهي تشير إلى باب واطئ على يمينها :

ـ هذا هو المكان . .

أنظر إلى الزنجي الضخم المنتصب أمامه كالتمثال فأدرك فورًا أنّنا أمام مرقص أو ملهى ليلي أو. . شيئًا من هذا القبيل. إنّها مفاجأة حقًّا، فالمكان لم يخطر ببالي على الإطلاق. لم أكن أتصوّر أنّ ماري كلير يمكن أن تضع قدمها في مثل هذه الأمكنة. لم أكن أتصوّر أيضًا أنّها ستقودني إلى مرقص! ومتى؟ في اليوم الذي تصرّ على أنّه عيد ميلادي.

ولكن من أين جاءتها هذه الفكرة الغريبة؟ كيف سمحت لنفسها بأن تقودني من شارع إلى آخر، وأن نقطع كل هذه المسافة لتحملني إلى هذا المكان؟ هل الخمر هو الذي جعلها تجرؤ على القيام بذلك؟ وهل تستغلّ فرصة الاحتفال بعيد ميلادي لتفرض عليّ ما تريد؟ ثمّ هل سألت نفسها عمّا إذا كنت أحبّ هذا النوع من الأمكنة أم لا؟

تحاصرني الأسئلة. . فأكاد أفقد السيطرة على أعصابي وأصرخ في وجهها غير عابئ بما يمكن أن يفكّر فيه الزنجي الذي لم يكفّ عن التحديق فينا منذ أن توقّفنا أمام الباب. تستولي عليّ رغبة جارفة في أن أقول لها بصوت عال إنّني أكره الملاهي والمراقص والنوادي الليليّة والكاباريهات وكلّ هذا النوع من الأمكنة. إلاّ أنّي أظلّ صامتًا. هذه المرّة أيضًا أنجح في أن أتماسك وأتحكّم في أحاسيسي.

وفيما أركّز نظري على الباب الواطئ، الذي ينفتح فجأة ليخرج من المكان شابّان متعانقان، تلتصق بي ماري كلير وتقول:

ـ لم تكن تتصوّر أن أحملك إلى مكان كهذا؟

أهزّ رأسي موافقًا. أكتشف وأنا أتطلّع إلى الشابّين أنّ أحدهما يحرّك مؤخّرته بشكل يبرزها.

ـ ما رأيك؟..

لا أجد ما أقول. أكتفي بتحريك رأسي وعينيَّ على الشابّين اللذين أخذا يصعدان الشارع بتمهّل وهما يلتفتان إليّ بين وقت وآخر، ممّا أثار انتباه ماري كلير التي بدأت تبتسم.

ـ ندخل؟

ـ كما تشائين..

ـ لندخل إذن.

تندفع نحو الباب فأتبعها. يبتسم لنا الزنجي ابتسامة عريضة تشيع الاطمئنان في نفسي. يتراجع إلى الخلف ليفسح لنا. يطرق الباب فينفتح فورًا. إنّها المرّة الأولى في حياتي التي أدخل فيها ملهى ليليًّا. أتعثّر وأكاد أسقط وأنا أجتاز العتبة المرتفعة. تمسك بذراعي وهي تضحك.

ـ انتبه.. سننزل الآن.. هناك ثلاث درجات.

نسير في ممرّ طويل ضيّق. تسبقني ماري كلير بخطوتين. بين وقت وآخر تضحك وترقص على إيقاع الموسيقى التي تزداد وضوحًا وارتفاعًا كلّما تقدّمنا في السير. تمسك بكتفي وتحرّكهما

لأرقص مثلها وهي لا تكفّ عن الضحك. وبالرغم من أنّني أجد ضحكها غريبًا وهستيريًّا إلى حدّ ما في ذلك الممرّ الطويل الذي يذكّرني بالدهاليز وفي مثل تلك الساعة المتأخّرة من الليل، فإنّني أضحك بدوري وأنا أحاول أن أهرب منها.

في نهاية الممرّ باب لم أنتبه إليه، إذ إنّه مطلي بالدهان نفسه الذي طليت به جدران الممرّ. تدفعه ماري كلير فإذا بنا داخل الملهى على بعد أمتار من حلبة رقص واسعة، بها حشد هائل من رجال ونساء يتحرّكون كالأشباح وسط أضواء ملوّنة تنطفئ وتشتعل على إيقاع موسيقى صاخبة.

قضينا بقيّة السهرة هناك. رقصنا كثيرًا. في الحقيقة ماري كلير هي التي رقصت. أمّا أنا فقد اكتفيت بتحريك قدمي وذراعي كيفما اتفق في المرّات القليلة التي نزلت فيها إلى الحلبة. ليلتها اكتشفت أشياء لم أكن أعرفها عن ماري كلير. اكتشفت أنّها تعشق الرقص. اكتشفت أيضًا أنّها لا تجيد الرقص مقارنة بما شاهدته حولي في تلك اللّيلة. لكن أهمّ اكتشاف هو أنّها ترقص بطريقة مثيرة حقًّا. لا تثيرني أنا فحسب وإنّما الآخرين أيضًا، فقد لاحظت أنّ رجالاً كثيرين يتطلّعون إليها وهي ترقص بعيون مليئة بالشهوة.

- ١١ -

السماء شديدة الصفاء في تلك اللحظات التي تسبق طلوع الفجر. ننزل ما تبقّى من الشارع الذي يقع فيه الملهى. ثمّ نتوجّه إلى أقرب ميدان بحثًا عن تاكسي. أسير في المقدّمة بخطوات واسعة متجاهلاً خطر الانزلاق. من حين إلى آخر تلتحق بي ماري كلير. تضع يدها على كتفي. تلمس يدي. ترجوني أن أسير بتمهّل وأن أثبّت أقدامي لكي لا أنزلق. تسألني إن كنت أشعر مثلها بالبرد. تطلب منّي أن أنتظرها قليلاً. لكنّي أظلّ صامتًا تعبيرًا لها عن إحساسي بالغضب الذي لا أدري لماذا تفاقم فور خروجنا من الملهى. بعد عدّة محاولات تسكت ماري كلير بدورها. الغريب أنّ صمتها يؤجّج غضبي، إذ يبدو لي وأنا في تلك الحالة من الانفعال والتوتّر والتعب كما لو أنّه تجاهل لأحاسيسي وإهمال لها.

نقف متباعدين وسط ميدان صغير خال، وننتظر. أرفع رأسي. النجوم الثلاثة تلتمع الآن وقد انزاحت عنها الغيوم. أتأمّلها طويلاً لكي أنسى، لكي أتمكّن من التغلّب على ما ينتابني من أحاسيس أو التخفيف منها.. لكن بلا جدوى فالذاكرة لا تريد أن تستسلم. من جديد أرى ماري كلير تتلوّى على حلبة الرقص. تحرّك

جسدها بشكل مثير. أراها تتطلّع إلى الرجل الذي يقترب منها. ثمّ تدير له ظهرها وهي تهزّ نصفها السفلي كأنّها تشجّعه على النظر إليها. أراها تباعد ساقيها وتتحسّس صدرها وهي تتراجع إلى الوراء كما لو أنّها راقصة ستربتيز. ثم هذه الابتسامة الغامضة المغرية على شفتيها. هذا الفم المفتوح باستمرار. هذه النشوة الواضحة في عينيها.

إلاّ أنّ هذا الإحساس بالغضب لم يستطع بالرغم من قوّته أن يطرد من ذهني فكرة أنّه ليس هناك في الحقيقة ما يمكن أن ألوم عليه ماري كلير وأنتقدها، فهي في النهاية لم ترتكب أيّ خطأ، وكل ما فعلته هو أنّها رقصت. ولأنّها تعشق الرقص فقد فعلت ذلك بحماس وفرح واندفاع. أكيد أنّه لم يخطر ببالها إطلاقًا أنّها ترقص بطريقة تثير الرجال من حولها.

والآن، وأنا أقلّب هذه الفكرة من جديد، أزداد اقتناعًا بأنّ سلوك ماري كلير على حلبة الرقص كان تلقائيًّا. إذ ما الغرابة في نهاية الأمر، أقول لنفسي، في أن تبتسم أو تغمض عينيها أو حتى تهزّ ردفيها بشكل يلفت الانتباه؟ أليس كل هذا مجرّد تعبير صادق وعفوي عن فرحها بالرقص؟ ثم ما ذنبها هي إذا تطلّع إليها الرجال بعيون تنضح شهوة؟ وعلى أيّة حال أغلب النساء اللاتي كنّ في الملهى رقصن مثلها. وبعضهنّ كنّ شبه عاريات ممّا جعلهنّ أكثر إثارة.

كل هذا معقول وشديد الوضوح في ذهني. ولكن كيف أطفئ هذه النار المشتعلة في صدري؟ كيف أسكت هذا الصوت الذي

يصرخ داخلي مطالبًا بأن أثأر لنفسي؟ كيف أضع حدًّا لهذا الإحساس بالغضب الذي يستولي على نفسي محدثًا فيها كثيرًا من الارتباك؟

أعرف أنّني لن أتحرّر من كلّ هذا إلاّ إذا قلت لها شيئًا ما لإغاظتها ولو للحظة قصيرة. أفضل وسيلة للتخلّص من هذا العبء الثقيل هو أن ألومها. أن أعاتبها. أن أنتقدها. ولكن على ماذا؟ ماذا يمكن أن أقول لها؟ أنا واثق أنّ ردّة فعلها ستكون عنيفة، وربما تشكّل بداية لخصومة أعنف من كلّ خصوماتنا السابقة، فماري كلير تكره الملاحظات التي تتعلّق بسلوكها خصوصًا في مناسبات قليلة مثل هذه.. تحبّ أن تعيشها بدون قيود وضوابط، وتستسلم فيها لأكثر ما يمكن من الفرح وتجني منها أقصى ما تستطيع من المتعة. كل تعليق على تصرّفاتها تعتبره تدخّلاً سافرًا في حياتها الشخصيّة التي تدافع عنها بشدّة، وحدًّا من حرِّيَّتها، وهو ما لا تقبله حتى لو كان صادرًا عن رجل تحبّه وتعيش معه تحت سقف واحد.

أخشى أيضًا أن تتّهمني بأنّي غيور إلى حدّ المرض، وتنصحني بأن أعرض نفسي على طبيب نفساني ليس فقط لأنّي أتألّم حين تلصق بي تهمة من هذا النوع، وإنّما أيضًا لأنّي أخاف أن يزداد غضبي فأفقد تمامًا السيطرة على أعصابي وأقول أو أفعل لها شيئًا أندم عليه كثيرًا فيما بعد.

أغلق فمك إذن يا محفوظ، أقول لنفسي. أغلقه جيّدًا. انتظر حتى تهدأ العاصفة داخلك. حاول أن تستعين بما عشت من

أحداث قديمة كما كنت تفعل في الأعوام الأولى، عندما يستغرق فطور الصباح وقتًا أكثر بكثير ممّا تحتمل. ركّز جهودك على حدث واحد، وحاول أن تغوص فيه. استعد مرّة أخرى إن شئت اليوم الذي ماتت فيه أمّك. أو اقرأ بتمهّل ما تحفظه من شعر الصعاليك فأنت مثلهم في نهاية الأمر. هم تائهون في الفلوات والقفار، وأنت ضائع الآن في هذه المدينة الشبيهة بالمتاهة. وإذا لم ينفع كلّ هذا تطلّع إلى حذائك مثلما تتطلّع أحيانًا إلى أحذية الآخرين محاولاً تحديد شخصيّاتهم من خلال أشكالها أو دسّ يديك في جيوب بنطلونك، وابحث عمّا بقي فيهما من فتات الكعك التونسي الذي اشتريته البارحة من محلّ حلويات في بلفيل وأخفيته في جيوبك، تمامًا كما كنت تخفي الفول المطبوخ الساخن لكي لا يفتكه منك أبوك.

لا تنس أيضًا أنّ اليوم هو عيد ميلادك وأنّك بصدد الاحتفال به، حتى وإن كنت غير متحمّس لذلك. لا يهمّ الآن إذا كنت قد ولدت في هذا اليوم أم لا. انس هذه النقطة المحيّرة الآن، واسلك كما لو أنّ التاريخ المسجَّل في شهادة الميلاد صحيح.. أمّا أفكارك السوداء عن الأعياد التي تجدها كئيبة فضلاً عن أنّها تقرّب الإنسان كلّ عام من الموت فاتركها جانبًا الآن.

من يدري! ربما ولدت في الفجر أو الساعات الأخيرة من ليلة كهذه اللّيلة. ربما ولدت في هذه الساعة ولِمَ لا! خلال هذه الدقائق.. خلال هذه الثواني. الآن تبدأ رحلة الخروج. الممرّ يزداد اتساعًا أمام رأسك. وجسدك الدافئ اللّزج ينزلق مصطدمًا

في العتمة بجدران رخوة ناعمة ساخنة. يضيق الممرّ فجأة. تستريح قليلاً ثمّ تندفع بكامل جسدك. تفعل ذلك عدّة مرّات. ثمّ تشعر أنّ شيئًا ما ينفتح وأنّك تخرج.

تبكي أمّك فرحًا. تفكّر وهي تتحسّس قضيبك الصغير كما لو أنّها تريد أن تتأكّد أنّك ذكر، أن تفعل المستحيل هذه المرّة لإنقاذك. لن تترك الموت يقترب منك. لن تسمح له بأن يفعل بك ما فعله بكلّ إخوتك الذين سبقوك إلى هذا العالم. ستدافع عنك بكل ما تستطيع. وستحميك من كلّ الأخطار. لن تستسلم بسهولة للأقدار هذه المرّة. ستفعل كلّ ما في وسعها لتنجو من الموت. لا بدّ أن تعيش. لا بدّ أن تراك تكبر كما يكبر الآخرون. لأجلك ستذهب إلى كل بقاع الدنيا. ستقابل كل السحرة والعرّافات والأولياء الصالحين وحكماء القبائل والعارفين بالعقاقير والأعشاب النافعة.

لم تمت كما مات كل إخوتك. لكن هي التي ماتت. أحيانًا تفكّر في أنّها ماتت بدلاً عنك. كأنّه كان لا بدّ أن يموت أحدكما ليعيش الآخر. كأنّه كان لا بدّ أن يرحل أحدكما ليبقى الآخر. كأنّه لم تكن هناك سوى حياة واحدة لكما، ولا مجال لتقاسمها. فإمّا أنت وإمّا هي.. ورحلت هي. لم تَركَ كبيرًا. كانت أمنيتها الوحيدة أن تراك طويلاً كجذع شجرة التوت التي أمام البيت كما تردّد. لكنّ الموت لم يمهلها.

أستدير قليلاً، وأنظر خلسة إلى ماري كلير. تبدو منطوية على نفسها ومتعبة. ظهرها مستند إلى عمود إعلانات. ذراعاها

مكتوفتان، ورأسها منحن قليلاً. أفكّر في أنّها لن تنام ما يكفي من الوقت هذه الليلة، إذ إنّها تشتغل في الغد ويجب أن تنهض باكرًا. وبدلاً من أن يولّد فيّ ذلك شعورًا بالتشفّي أو الانتقام أحسّ أنّي أشفق عليها قليلاً.

لم أنتبه إليها وهي تزداد ابتعادًا عنّي. أكيد أنّها فعلت ذلك عندما كنت مستغرقًا في التذكّر. أقترب منها لكنّها لا تتحرّك. أزداد اقترابًا. أركّز بصري على رأسها المنحني إلاّ أنّها تظلّ ساكتة ثابتة في مكانها. هل أخذتها غفوة وهي مستندة إلى عمود الإعلانات؟ أريد أن أقول لها شيئًا ما. لكنّي لا أجد ما أقول بالرغم من أنّي أشعر أنّ غضبي قد خفّ إلى حدّ كبير، وأنّي بدأت أستعيد هدوئي. أحسّ أيضًا أنّني عاجز عن الاقتراب منها أكثر ممّا فعلت. أضرب الأرض بكعب حذائي. إلاّ أنّها لا تتحرّك. أفعل ذلك مرّة ثانية وثالثة. وفي الرابعة ترفع رأسها ببطء وتنظر إليّ كأنّها ترجوني أن أكفّ عن ذلك. ثمّ تخفض رأسها من جديد، وتعود إلى انطوائها.

تشيع فيّ نظرتها المستكينة المستسلمة شيئًا من الارتياح. أدرك وأنا أستعيد تصرّفاتي معها منذ أن غادرنا الملهى أنّ الرغبة في انتقادها التي كانت تتملّكني قد خمدت. ربما لأنّي حقّقت من دون أن أورّط نفسي في خصومة عنيفة أو أتفوّه بكلام قاس أندم عليه فيما بعد جزءًا هامًّا ممّا كنت أريده. أليس صمتي الغريب، أقول لنفسي، وتجاهل أسئلتها وعدم الاهتمام بها انتقادًا لها في نهاية الأمر؟

يتناهى إليّ هدير سيّارة. أنتصب على قارعة الشارع عندما أتأكّد من أنّها تاكسي، وأنّ إشارة الضوء خلف الزجاج الأمامي تعني أنّها شاغرة. أرفع يدي عاليًا وأحرّكها فقد كنت أخشى ألاّ يراني السائق. تتوقّف السيّارة التي ظلّت تسير بالسرعة نفسها فجأة، فيحدث انزلاق عجلاتها على الطريق صوتًا يبدو حادًّا وسط صمت الليل. وفيما أفتح الباب الخلفي لماري كلير يسألني السائق الذي خمّنت من بعض ما تبيّن لي من ملامح وجهه أنّه عربي عن وجهتنا. عندما أجيبه يأمرني بأن أغلق الباب وأبحث عن تاكسي أخرى، لأنّه عائد إلى بيته ولا يسمح بركوب السيّارة إلاّ للذين يقيمون في مكان يوجد على طريقه.

تنطلق السيّارة بسرعة جنونيّة. أشعر وأنا أتابعها بنظري أنّ ما يحدث لنا فرصة جيّدة لأقترب كثيرًا من ماري كلير التي عادت تستند إلى عمود الإعلانات، وخصوصًا لأكسر حاجز الصمت الذي يفصل بيننا. أعبّر لها عن انزعاجي من سلوك سائق التاكسي. تلتفت إليّ وتبتسم. يشجّعني ذلك على الكلام. أقول لها إنّ سائقي التاكسيّات متشابهون في كلّ مدن العالم، وأنّهم حقيرون حقًّا. تنفجر ضاحكة. أتحمّس وأضيف بصوت عالٍ إنّهم نيّاكة وأبناء قحاب أيضًا. . تتطلّع إليّ بإعجاب وتمسك بذراعي دون أن تتوقّف عن الضحك. أزداد تحمّسًا. وأواصل بالعربيّة شتمي لسائقي التاكسيات في كل مدن العالم، بينما يشتدّ ضحك ماري كلير ويتحوّل إلى قهقهات. .

ـ ١٢ ـ

أحاول ألاّ أحدث أيّ ضجيج وأنا أفتح الباب. الغرفة مظلمة. لكنّ الضوء الخفيف المتسرّب من الشارع عبر الستائر التي لم تسدل كما ينبغي يمكنني من أن أرى بوضوح السرير. أقترب منه ببطء. أرفع طرف الغطاء وأندسّ في الفراش.

حين أضع رأسي على المخدّة أدرك أنّني مرهق أكثر ممّا كنت أتصوّر. ويبدو لي اليوم الذي لم تعد تفصله عن النهاية سوى بضع دقائق طويلاً. خلافًا للعادة أتعبني الشغل في الفندق. والدرس الذي سألقيه على الطلاب في الغد، بعد انقطاع طويل عن التدريس، استغرق إعداده وقتًا أطول بكثير ممّا كنت أتوقّع.

ماري كلير مستلقية على جنبها الأيمن مقابل النافذة. أنصت إلى تنفّسها. أستنتج من تردّده المنتظم أنّها مستغرقة في النوم. أتمدّد على ظهري. وأشرع في استعادة ما قرأته منذ حين في انتظار أن ألتحق بها. فجأة أحسّ بها تتحرّك مستديرة نحوي. وأشعر بيدها تسقط ثقيلة على أعلى كتفي. وأسمعها تغمغم:

ـ كيف كانت علاقتك بها؟

لا أتكلّم ولا أتحرّك. ظننت أنّها تحلم. لكنّي أفاجأ بأصابعها

الدافئة تنزلق على كتفي، وأسمعها تطرح السؤال من جديد بصوت واضح هذه المرّة:

ـ كيف كانت علاقتك بها؟

ـ عمّن تتحدّثين؟

تسكت لحظة كأنّها تتردّد في الإجابة خوفًا من شيء ما.

ـ أمّك..

ـ أمّي؟.. وما الذي جعلك تفكّرين فيها الآن؟

ـ لا أدري..

لم أعد أذكر متى حدّثت ماري كلير عن أمّي لأوّل مرّة. لا أدري أيضًا لماذا قلت لها ذات يوم إنّ ما بقي من ملامح وجهها في ذاكرتي بدأ يغيم، وأنّه ليس باستطاعتي أن أستعيد تلك الملامح من خلال الصور، لأنّ أمّي لم تقف أبدًا أمام آلة تصوير. لكن منذ أن قلت لها ذلك أصبحت أمّي لماري كلير واحدًا من المواضيع التي تحبّ الحديث فيها.

كان واضحًا من الأسئلة الكثيرة التي تمطرني بها أنّ ما تكنّه لأمّي يتضمّن شيئًا من التعاطف بل ومن المحبّة. لا أخفي أنّي أعجب بها أحيانًا وأنا أصغي بانتباه إلى كلامها. ويخيّل إليّ أنّ الاهتمام الذي توليه لأمّي يفوق اهتمامها بأمّها المنسيّة في قرية بالريف.

إلاّ أنّني أنزعج في بعض الأحيان من كلّ هذا الاهتمام، لأنّي أشعر أنّ ماري كلير تحوّل أمّي بدون وعي إلى موضوع مثير يجذب الانتباه. موضوع طريف غريب يشبع فضولها. يذكي خيالها. يستجيب لرغبتها في حبّ الاطّلاع.

وها هي تعود الآن إلى الموضوع. ولأنّي واثق من أنّها لن تتوقّف عن طرح السؤال إلاّ إذا أجبتها، أقول بصوت واطئ جدًّا لكي تفهم أنّي مرهق:

ـ علاقتي بها كانت عاديّة.. كنت أحبّها.. وكانت تحبّني.

ولكي أنهي الموضوع بسرعة أضيف مستفيدًا من صمتها:

ـ هذا كلّ ما في الأمر.. وعلى أيّ حال أنت تعرفين ذلك.. لقد سبق أن قلته لك. الآن يجب أن أنام.. أنت أيضًا ينبغي أن تنامي الآن.

أنتظر قليلاً لأتأكّد من أنّها اقتنعت بكلامي. تواصل صمتها. لكن في اللحظة التي أدير لها فيها ظهري تعود إلى الكلام.

ـ لا أفهم.. كيف تستطيع أن تتحمّل غياب وجهها؟

أفكّر بحثًا عن إجابة يمكنها أن تضع حدًّا لهذا الحديث. تضيف ماري كلير:

ـ أنا لا أستطيع.. مجرّد التفكير في ذلك يعذّبني.

ـ إنّها في القلب.. وستظلّ هناك.. هذا هو المهمّ.

ـ هل تشبهها؟

ـ نعم.. كثيرًا.. هذا ما يقوله كلّ الناس.

ـ وهل تذكر لون عينيها؟

ـ نعم.. لون عينيَّ نفسه.. أخضر داكن.

ـ وكانت طويلة مثلك؟

ـ لا.. الطول ورثته عن أبي.

أتذكّر في تلك اللحظة أنّني كنت الوحيد من بين كلّ أطفال الدوّار الذي له عينان خضراوان. كانوا يسمّونني «الأبرق» بسبب ذلك. وكنت أتألّم كثيرًا وأحيانًا أبكي عندما أكون وحيدًا، وأنقم في سرّي على ربّي الذي لم يخلقني كما خلق الآخرين بعيون سوداء.

وفيما كنت أفكّر أن أروي ذلك لماري كلير لكي أدفعها إلى التوقّف عن الحديث عن أمّي، أسمعها تقول:

ـ أحبّ حكاية القفل الذي دفنته أمّك.

أشعر بانزعاج خفيف. لكنّي أصمّم على أن أظلّ متماسكًا لكي لا تتعقّد الأمور.

ـ بماذا شعرت لمّا سمعت الحكاية لأوّل مرّة؟

ـ لم أعد أذكر.. هل تعرفين.. بعض الناس لا يصدّق الحكاية.. ويعتبرها خرافة.

ـ خرافة؟ حكاية كهذه لا يمكن أن تكون خرافة. . لكن هناك شيء لا أفهمه! لماذا دفنت القفل قرب البيت؟ لماذا لم تدفنه في مكان بعيد؟

ـ لا أدري. . يشاع أنّها دفنته هناك. . ولكن لا أحد يعرف الحقيقة.

ـ ولم تسأل عنه أمّك؟

ـ أبدًا. .

ـ غريب!

ـ كنت صغيرًا على مثل هذه الأمور. .

ـ وهي لم تحدّثك عنه أبدًا؟

ـ أبدًا. . لم تحدّثني لا عن القفل ولا عن المكان الذي دفنته فيه.

ـ ربّما لأنّه لم تكن تدري أنّك تعرف.

ـ ربما. .

ـ ربما أيضًا لأنّ العجائز اللاتي نصحنها طلبن منها ألاّ تقول لك شيئًا.

لا أتكلّم. تزداد ماري كلير اقترابًا منّي، وتشرع في تحريك أناملها ببطء شديد على أسفل ظهري. أستدير إليها في العادة

وآخذها بين أحضاني. لكنّي هذه المرّة أظلّ هامدًا في مكاني.

ـ وأبوك؟ لم يقل لك شيئًا عن القفل؟

ـ لم يقل لي أيّ شيء..

تلتصق بي فأحسّ بصدرها يلامس أعلى الظهر. ثمّ تدسّ إحدى ساقيها بين فخذيّ من دون أن تتوقّف عن تحريك أناملها.

ـ لو كنت مكانك لسألتها عن المكان الذي دفنت فيه القفل..

أدرك في تلك اللحظة أنّ كل ما فعلته لإسكاتها لم يكن مجديًا. أقول بصوت مرتفع وأنا أندفع إلى طرف السرير لأخلّص نفسي:

ـ ألا تفهمين؟.. أريد أن أنام.. أريد أن أنام.

وخلافًا لما كنت أتوقّع فإنّ ماري كلير لا تنفعل. أكثر من هذا تبدو لي لطيفة رقيقة.

ـ لا تغضب.. أردت فقط أن أعبّر لك عن إعجابي بأمّك.

تضيف قبل أن تدير لي ظهرها معلنة بذلك عن توقّفها النهائي عن الكلام:

ـ لولاها لربما متّ منذ أعوام!

تظلّ جملتها الأخيرة في ذهني لوقت طويل. بين وقت وآخر أنجح في طردها، لكنّها سرعان ما تعود إليّ. يستعصي عليّ

النوم. بعد أن أتقلّب في الفراش عدّة مرّات أدفن رأسي في المخدّة، وأصمّم على ألاّ أتحرّك وعلى ألاّ أفتح عيني. حين أرفع رأسي وأتطلّع حولي ألاحظ أنّ العتمة في الغرفة قد خفّت قليلاً. لا أدري كم نمت! كل ما أدري هو أنّي حلمت أثناء هذا النوم.

رأيت أنّي في قطار. لم أكن وحدي. كانت أمّي تجلس بجواري. وكانت سعيدة ليس لأنّها كانت برفقتي، وإنّما لأنّها تركب القطار للمرّة الأولى. عندما تلتفت إليّ أحدِّق في وجهها متأمّلاً ملامحه وتفاصيله الدقيقة. كأنّك تراني لأوّل مرّة تقول أمّي وهي تبتسم. أظلّ أتفرّس في وجهها ولا أقول شيئًا. أنتبه إلى أنّها تختلف قليلاً عن أمّي كما كنت أعرفها قبل أن تغيم ملامحها في ذاكرتي. لكن هذا لا يزعجني. كنت واثقًا من أنّ المرأة الجالسة بجواري هي أمّي.

ما هذا؟ تسألني وهي تشير بيدها إلى الخارج. عبّاد شمس. عبّاد شمس؟ نعم. ماذا يصنعون به؟ يستخرجون منه الزيت. الزيت؟ نعم. زيت من نوع آخر. وله طعم مختلف. ليس كزيت الزيتون. أنتقل إلى المقعد الشاغر قبالتها. تحرّك رأسها ببطء لتشمل نظراتها حقول عبّاد الشمس المترامية حتى الأفق البعيد. وعيناها المفتوحتان على سعتهما تعكسان الإعجاب بما تشاهده. كم هي صفراء.. كأنّنا في حلم تقول بصوت هامس. أشعر برغبة قويّة في أن أسألها إن دخلت الجنّة، غير أنّي لا أجرؤ على ذلك. شيء من الخجل الغريب يمنعني من طرح السؤال. أنتبه في تلك

اللحظة إلى أنّها لم تسألني عن كلّ ما حدث لي بعد موتها. أفكّر في أن أقول لها إنّها حسنًا فعلت عندما عملت بنصائح عجائز الدوار ودفنت القفل، وأنّه لولاها لمتّ منذ فترة. لكنّني أرجئ ذلك، لاعتقادي أنّ الخوض في هذه المسائل في مثل هذا الوقت قد يذكّرها بأحزانها القديمة، ويفسد عليها هذا الإحساس بالسعادة الذي يغمرها.

يتوقّف القطار في محطّة صغيرة. لا أحد على الرصيف سوى ماري كلير وأمّها مدام صارّ. تستقبلاننا بحفاوة كبيرة وتصرّان على حمل ما لدينا من حقائب إلى حيث تنتظرنا سيّارة نستقلّها إلى بيت الأمّ الذي يوجد خارج القرية. طوال الطريق لم تتوقّف ماري كلير عن النظر إلى أمّي التي كانت تجلس إلى جوارها على المقعد الخلفي.

حالما ندخل إلى البيت ونجلس في الصالون، تقول أمّ ماري كلير، ابنك أوّل عربيّ يدخل بيتنا، وأنت الثانية. تقول لها أمّي إنّها كانت متأكّدة من أنّ ابنها سقط على فرنسيس ناس ملاح. ألاحظ آنذاك أنّهما تتفاهمان بالرّغم من أنّ كلتيهما تتكلّم لغتها. إلاّ أنّني لا أستغرب ذلك. لا أستغرب أيضًا عندما تنادي إحداهما الأخرى باسمها بالرغم من أنّي لا أذكر أنّي ذكرت اسميهما لمّا عرّفتهما على بعضهما في محطّة القطار. البيت بيتك مدام تراكي. خذي راحتك. إذا أردت أن تجلسي في مكان آخر فلا تتردّدي. بارك الله فيك مدام صارّ.. المكان الذي أنا فيه جيّد.. ربّي يطوّل عمرك ويخلّيك لماري كلير..

بعد وقت قصير تجلس ماري كلير وأمّها إلى جوار أمّي على الكنبة الطويلة نفسها. واحدة على اليمين والأخرى على اليسار. تدنوان منها، وتشرعان في التطلّع إليها وهما تبتسمان. كم أنت جميلة هكذا مدام تراكي. ثيابك رائعة زاهية الألوان. أيّ قماش هذا؟ حرير أم كتّان أم قطن؟ تمسكان بأطراف ملحفتها وتمرّران عليها أصابعهما في حنوٍّ، ثمّ تنحنيان لتدقّقا النظر فيها..

جميل عقدك أيضًا مدام تراكي، وهذا الخاتم الذي في إصبعك وهذه الأساور! الكحل في عينيك. الوشم على جبينك. السواك الذي في فمك. الحنّاء التي تخضّب يديك. لون عينيك، لون بشرتك، لون أسنانك..

لا تكفّ أمّي عن الابتسام. تنظر إليّ بين حين وآخر كأنّها تستنجد بي. كأنّها تريد منّي أن أساعدها على تحمّل كلّ هذه المدائح التي لم تكن تنتظرها على ما يبدو. أبادلها الابتسام وأنا في غاية السعادة، لأنّ اللقاء الذي كنت أخشاه بعض الشيء يتمّ على أحسن ما يرام.

لا تترك ماري كلير وأمّها ضيفتهما إلاّ عندما تنتبهان إلى أنّ الجلوس إلى جوارها على الكنبة طال أكثر من اللازم، وأنّه آن الأوان للذهاب إلى المطبخ والبدء في إعداد طعام العشاء. تستغلّ أمّي الفرصة لتقول لي بصوت منخفض إنّني محظوظ حقًّا، وأنّ الحياة تبتسم لي، بل تدلّلني بعد كلّ الحرمان الذي عانيتُه في طفولتي، إذ إنّها لم تكن تتصوّر أنّي سأتزوّج امرأة جميلة وعاقلة

إلى هذا الحدّ، بالرغم من أنّها كانت تعرف منذ البداية أنّني سأسقط على ناس ملاح. أودّ أن أقول لها إنّ ماري كلير ليست زوجتي وإنّي أعيش معها في الحرام، ثم إنّها ليست عاقلة إلى الحدّ الذي تتصوّر. إلاّ أنّي لا أفعل.

تترك أمّي بدورها الكنبة. تتنقّل على مهل في الصالون. تتوقّف أمام بعض الأثاث. تدقّق النظر إليه. تنحني عليه. تلمسه. تشمّه. تمسك ببعض ما يتراكم على رخامة المدفأة وطاولة التلفزيون ورفوف المكتبة من أشياء. تتفحّصها. تقلّبها بحذر شديد. تسألني عن أسماء بعضها.

أعود إلى التحديق في وجهها لكي تظلّ ملامحه وقسماته الدقيقة واضحة في ذهني طوال حياتي، فلا أنساها كما حدث لي من قبل. كنت أعرف أنّها ستعود من حيث أتت وأنّها ستختفي بالطريقة الغامضة نفسها التي ظهرت بها عندما نستسلم للنوم. فكّرت طبعًا في أن ألتقط لها صورًا كثيرة، إلاّ أنّي طردت هذه الفكرة من ذهني لأنّي أعتقد أنّه لا يليق بميّت أن يصوّر. الميّت ميّت أقول لنفسي. واقتحام عالمه السرّي بهذا الشكل الفجّ يسيء إليه ويؤذيه. كنت أيضًا أخشى أن يكون تصوير الميت حرامًا أو منكرًا.

وحين يتناهى إلينا من المطبخ صوت ماري كلير معلنًا أنّ كلّ شيء جاهز الآن، أشرع في إخبار أمّي بما يجب أن تقوم به وهي جالسة إلى المائدة. أن تمسك بالشوكة باليد اليسرى، أن تقصّ

الخبز بالسكّين، أن تطبق شفتيها وهي تأكل، أن تصمت ولا تتكلّم إلاّ عندما تبتلع كلّ ما في فمها، أن تبقى جالسة ولا تنهض إلاّ عند الضرورات الملحّة. .

تمسك أمّي بشريحة الخبز المدوّرة المشويّة المطليّة بطبقة سميكة من «الفواغرا»، وتبدأ في أكلها. كيف تجدينه؟ تسأل أمّ ماري كلير. لذيذ جدًّا. ما هذا؟ معجون من كبد البطّ. يؤكل في أعياد الميلاد والمناسبات الكبرى. اشتريناه خصّيصًا لك. هل تريدين شريحة أخرى؟ تهزّ أمّي رأسها بالإيجاب؟ هل تعرفين مدام تراكي. . ابنك لا يحبّ على ما يبدو الفواغرا، تضيف ماري كلير التي ظلّت حتى ذلك الوقت صامتة. . يقول إنّه يشعر بوجع في معدته كلّما أكله. يقول أيضًا إنّه لا يحبّ لونه ولا يجد طعمه لذيذًا، وأنّه ازدادًا نفورًا منه لمّا شاهد ذات مرّة في فيلم وثائقي في التلفزيون المزارعين في مقاطعة «الدوردنييه» يفتحون عنوة مناقير البطّ والإوزّ المسكين ويدسّون فيها أقماعًا يصبّون فيها حبوبًا كثيرة لتسمن وتصبح أكبادها ضخمة. لا تقول أمّي شيئًا. لكنّ النظرات التي تلقيها عليّ بين حين وآخر صارت أطول وأكثر تركيزًا.

عندما نفرغ من تناول الطبق الرئيسي وقبل أن ننتقل إلى الأجبان، أفطن إلى شيء أساسي لا أدري كيف نسيت أن أقوله لأمّي لمّا سردت عليها قائمة ما ينبغي أن تلتزم به على المائدة. وهو أنّ السائل الأحمر الذي يشربونه هنا مع الطعام خمر. ومن حسن الحظّ أنّ أمّي لم تشرب سوى كأس واحدة. أكّدت لي

ذلك عدّة مرّات. لكن هذه الكأس الوحيدة كانت كافية لتحويل أمّي إلى كائن بشري آخر.

أريدك أن تذوقي هذه القطعة من الركفور مدام تراكي، تقول أمّ ماري كلير وهي تنحني على طبق كبير عليه أصناف عديدة من الجبن. كلّ هذه الأجبان من بلدنا. تلتهم أمّي قطعة الجبن، وتمدّ صحنها على الفور لأمّ ماري كلير التي كانت سعيدة لإقبال أمّي الغريب على أجبانها. والآن ما رأيك في هذه القطعة الصغيرة من «بون ليفيك»؟ لذيذة تقول أمّي وهي تمدّ لها صحنها من جديد. خذي هذه القطعة من «شوسيه أوموان». وهذه القطعة من «الكامنبير» وهذه من «البري دو مو» وهذه وهذه..

أتابع المشهد وأنا أكاد لا أصدّق عيني. إلاّ أنّ ما حدث لي فيما بعد يفوق كل تصوّر. ننتهي من تناول الحلويات التي أقبلت عليها أمّي بنهم وشراهة عجيبين.. تضع أمّ ماري كلير على المائدة علبة مفتوحة مليئة بقطع الشوكولاتة. تتطلّع إليها أمّي بإعجاب. فجأة تمدّ رأسها في اتجاهي وتسألني بلهجة حادّة لماذا لا تحبّ الفواغرا؟ أبتسم لها ولا أقول شيئًا. لكن أمّي تعيد عليّ السؤال بلهجة أكثر حدّة. لا أدري ما أقول لها! تتوقّف ماري كلير وأمّها عن الحركة، ويخيّم صمت ثقيل. الآن صرت متحضّرًا وترفض حتى الفواغرا الذي تقدّمه لك حماتك الطيّبة. تقول ماري كلير وهي تقترب منها لا يهمّ. إنّه يحبّ أشياء أخرى كثيرة. لكن كيف يرفض «الفواغرا»؟ تصرخ أمّي.. تتدخّل أمّ ماري كلير لتهدئتها. أنا أيضًا أكره أشياء كثيرة. لا تهتمّي بالأمر. أرجوك.

إلاّ أنّ أمّي لا تسكت. ليس من اللائق أن يرفض الغريب ما يحبّه الذين احتضنوه وفتحوا له بيوتهم. ليس من اللائق أن يعاكسهم ويرفض طعامهم.. تردّد أمّي قبل أن تنخرط في بكاء محموم. أقترب منها لمواساتها. ابق في مكانك. لا أريدك أن تلمسني. ستضيّع نفسك. ستموت إذا أصررت على عنادك.. أرجوك يا أمّي، لا تبكي.. لا تقترب منّي. لا أريد أن أراك. لست ابني. وأنا لست أمّك.

تجلس ماري كلير بجوارها. تمسك بيدها. وتشرع في تهدئتها وهي تمسح ما يسيل من الدموع على خدّيها. تقترب منها أمّ ماري كلير مبدية استعدادها لكلّ ما يطلب منها. إلاّ أنّ أمّي لا تكفّ عن البكاء ولا عن انتقادي. أفكّر قليلاً بحثًا عن حلّ لهذه المشكلة. ثمّ أخرج إلى الحديقة..

ـ ١٣ ـ

لم أحتمل أن أرى أمّي تبكي بمثل تلك الحرقة. لم أحتمل أيضًا أن ينتهي الحلم بهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة. وددت لو طال بما فيه الكفاية لتغفر لي أمّي الخطأ الذي ارتكبته وترضى عنّي من جديد، فتعود إلى حالها السابقة أو على الأقلّ تكفّ عن بكائها المحموم.

يستولي عليّ إحساس عميق بالألم يخالطه شيء من الشعور بالذنب. أحاول أن أقنع نفسي بأنّ كلّ ما حدث لي مع أمّي التي ماتت منذ فترة طويلة ليس سوى حلم عابر سأنساه بعد أيّام قليلة. لكنّي لا أستطيع. أنتقل إلى موضوع الدرس الذي سألقيه على الطلاب في الغد. أفكّر في أنّه سيكتسي أهمِّيَّة خاصّة بسبب الانقطاع الطويل عن التدريس. أستعيد بعض ما حضّرته، وأشرع في تلاوة ما أحبّه من شعر الصعاليك. إلاّ أنّ صورة أمّي وهي تنخرط في بكاء محموم، وتردّد لا تقترب منّي لا أريد أن أراك، أنا لست أمّك، تستحوذ عليّ من جديد.

لا أستطيع أن أمنع نفسي من التقلّب، وخوفًا من أن أوقظ ماري كلير أغادر غرفة النوم. أتمدّد على الكنبة في الصالون

وأغمض عيني. كنت متأكّدًا من أنّ ساعتين أخريين من النوم كافيتان لمواجهة ما ينتظرني من أعباء في ذلك اليوم الذي بدأ فجره يطلّ، إلاّ أنّ النوم يستعصي عليّ مرّة أخرى في تلك اللّيلة. عندئذ أترك الكنبة. أغتسل بسرعة. أرتدي ثيابي.. وأغادر الشقّة.

شوارع المدينة خالية. والأرصفة تبدو أكثر اتساعًا. والطقس ليس باردًا خلافًا لما كنت أنتظر. أسير على غير هدى. أوسع الخطى في البداية، كأنّي أريد أن أهرب من الشقّة، كأنّي أريد أن أبتعد بسرعة وأقصى ما يمكن عن المكان الذي حلمت فيه بأمّي وهي تبكي بحرقة. وبعد أن أعبر مسافة طويلة أتمهّل في السير.

تبدأ الحركة في الشوارع.. وشيئًا فشيئًا تتكاثر الباصات، ويتزايد عدد عمّال تنظيف الشوارع بأزيائهم الخضراء ومكانسهم الضخمة التي يدفعون بها القاذورات المنتشرة على الأرصفة إلى مجاري المياه المحاذية لها، وهم يتكلّمون ويضحكون بأصوات عالية. معظمهم عرب وزنوج، وبعضهم يتكلّم بالبربريّة.

أحسّ للمرّة الأولى منذ أن أفقت من النوم أنّ شعوري بالألم والذنب أخذ يخفّ، وأنّني بدأت أتخلّص من وطأة ما رأيت في الحلم. أفرح لذلك، وأقرّر أن أواصل السير لكي أستعيد هدوئي قبل أن أعود إلى الشقّة لتناول الفطور برفقة ماري كلير. إلاّ أنّني أنتبه فجأة إلى أنّني ابتعدت كثيرًا عن المكان الذي أقيم فيه، وبات من المستحيل أن أصل إليه قبل ذهاب ماري كلير للشغل حتى لو قطعت المسافة ركضًا.

لا أنزعج لذلك. بل أشعر في قرارة نفسي أنّ ماري كلير تستحقّ أن تحرم من متعة الفطور لأنّها السبب في كلّ ما حدث لي البارحة. فلو لم تتحدّث عن أمّي والقفل الذي دفنته لما رأيت ذلك الحلم الغريب. ليس من الضروري إذن أن أعود إلى الشقّة. بإمكاني أن أستمرّ في التجوال.. أتطلّع طويلاً إلى أبواب العمارات الخشبيّة الضخمة الموصدة. أتفرّج على سيّارات التاكسي وهي تعبر الشوارع بسرعة هائلة، وأرقب من بعيد العجائز القلائل الذين بدأوا يخرجون كلابهم لتبول وتتبرّز على الأرصفة. بإمكاني أن أشمّ رائحة القهوة والخبز الخارج لتوّه من الفرن في المقاهي والمخابز القليلة التي فتحت أبوابها مبكرًا. وحين أتعب أو أملّ التجوال أجلس في مقهى. أشرب على مهل فنجان قهوة أو شوكولاتة مذوّبة. وربما أتناول شيئًا خفيفًا لأنّي لا أشعر بالجوع. وفيما بعد أتوجّه إلى الفندق لأشتغل ساعتين أو ثلاثًا قبل أن ألتحق بالجامعة.

أغيّر اتجاه السير. وبعد أن أعبر شوارع كثيرة متشابهة أنتبه إلى أنّه خلافًا لما كنت أظنّ ينبغي أن أعود إلى الشقّة لأحمل كتبي وما أعددته للدرس الذي سألقيه على الطلاّب. أخمّن وأنا أنظر إلى التلاميذ الذين أخذوا يتكاثرون على أرصفة الشوارع أنّ الساعة جاوزت السابعة بكثير. لا بدّ أنّ ماري كلير قد استيقظت الآن. أتخيّلها وهي تستدير وتمدّ يدها فلا تجد أحدًا إلى جوارها. لا يخامرني أدنى شكّ في أنّها ستكون أكثر لطفًا ورقّة ممّا كانت عليه عندما قرّرت أن تتوقّف نهائيًّا عن الحديث عن

أمّي البارحة، فلا بدّ أنّها فكّرت قليلاً حالما فتحت عينيها في ما دار بيننا من حديث قبل النوم، وأدركت أنّ أسئلتها الملحّة عن أمّي وقفلها في مثل ذلك الوقت كانت مزعجة حقًّا.

ستبحث عنّي في المطبخ ثمّ في الحمّام ثمّ في المرحاض. ستناديني مرّتين أو ثلاثًا لتتأكّد من أنّني لست مختبئًا في مكان ما من الشقّة. ستلاحظ أثناء إعدادها لطعام الإفطار أنّني لم أتناول أيّ شيء. وستنتبه أيضًا إلى أنّي نسيت أن أحمل معي هاتفي الجوّال. ستنتظرني قليلاً بعد أن تسقي نباتاتها وتضع أواني الطعام على الطاولة. وحين تيأس تمامًا من عودتي تلتهم فطورها بسرعة. وتغادر الشقّة على الفور لكي لا تصل متأخّرة إلى البريد.

في المترو ستتطلّع طويلاً إلى وجوه المسافرين. ستنظر أيضًا إلى الجالسين على المقاعد المتناثرة على أرصفة المحطّات، وهي تفكّر في ما يمكن أن يدفعني إلى مثل هذا الاختفاء الغريب وفي ما يمكن أن تفعله للاطمئنان عليّ. سيخطر ببالها أن تخابر صاحب الفندق الذي أشتغل فيه. لكنّها تقرّر ألاّ تفعل ذلك إلاّ عندما يتواصل اختفائي فلا أعود إلى الشقّة في الوقت المعتاد. وفي البريد ستحاول أن تنسى كلّ هذا. ستنحني كما اعتادت أن تفعل في الأيّام الأولى من شغلها على العربات التي تتكوّم فيها الرسائل. ستتأمّل الطوابع البريديّة.. تقرأ العناوين، وتشمّ الرسائل!

إلاّ أنّها لن تتمكّن من التغلّب على توتّرها أو إخفائه. لن

تنجح في أن تبدو أمام زملائها هادئة طبيعيّة. سيظلّ ذهنها مشوّشًا، ولن تستطيع السيطرة على ارتباكها إلاّ في المساء حين أرجع إلى البيت. أتخيّلها وهي تزمّ شفتيها مثلما تفعل عندما تكون منزعجة ومتوتّرة، فأبتسم. إنّك تستحقّين كلّ هذا وأكثر ـ أردّد في نفسي. في المستقبل يجب أن تفكّري طويلاً قبل أن تفتحي فمك لتتحدّثي عن أمّي وقفلها.

حركة المارّة تشتدّ على الأرصفة فجأة، كأنّ أغلب سكّان العمارات المجاورة خرجوا من بيوتهم في الوقت نفسه كما لو كانوا على اتفاق. يتعالى هدير وزمير الشاحنات والسيّارات والباصات التي لم تعد قادرة على التقدّم بالسرعة الكافية، ممّا أحدث ازدحامًا في حركة السير. بين الفينة والأخرى ينضاف إلى ذلك صراخ وشتائم السائقين الذين نفد صبرهم.

وفي انتظار أن تخفّ حركة السير ويتناقص عدد المارّة بعد أن تبتلع المدارس والمؤسّسات الإداريّة جزءًا كبيرًا منهم، وهربًا من الضجيج وخصوصًا من رائحة دخان المحروقات والغازات التي تطلقها الشاحنات القديمة، أدلف بسرعة إلى أوّل محلّ تجاري يعترضني. أكتشف بعد خطوات قليلة أنّني في «غاليري لافيات». لم أنتبه لذلك منذ البداية، لأنّي لم أدخل من المدخل الرئيسي الذي أعرفه جيّدًا وإنّما من مدخل ثانوي.

يغمرني فرح حقيقيّ، فأنا أحبّ السوبرماركت والمحلاّت التجاريّة الكبرى، ولا أجد التجوّل فيها ممتعًا ومريحًا إلاّ عندما

تكون مزدحمة طبعًا. لهذا أتجنّب دخولها وحتى المرور بالقرب منها في الفترات التي تسبق أعياد الميلاد ورأس السنة.

وممّا يزيد في فرحي هو أنّي أجد نفسي في قلب الجناح الذي يحتوي على العطورات، وعلى ما يسمّونه هنا «الملابس الداخليّة الناعمة». أعترف أنّ هذا الجناح يهمّني أكثر من غيره في مثل هذه المحلاّت التجاريّة الكبرى. لهذا السبب أشعر دائمًا بانجذاب قوي إلى «بازار دولوتيل دو فيل» وغاليريات «لوبرنتان» و«لافيات» و«مونبارناس» لتوافرها على أجنحة كبيرة وراقية للعطورات والملابس الداخليّة النسائيّة.

عشرات الكيلوتات والسراويل الصغيرة ومشدّات النهود بألوان يطغى عليها الوردي الفاتح والأحمر والأبيض معروضة بطريقة جذّابة، والكثير منها مصنوع من أقمشة شفّافة ناعمة مخرّمة بالدنتلاّ ومصمّم لا ليحجب ويستر وإنّما ليكشف ويثير. عشرات زجاجات العطر في حجوم مختلفة مرتّبة بعناية وذوق على رفوف بلّوريّة نظيفة. بائعات متبرّجات يرتدين ملابس فاخرة أغلبهنّ جميلات وفي سنّ الشباب. مرايا ضخمة في كلّ مكان. أضف إلى كلّ هذا العالم الأنثوي الناعم والمخدّر روائح الأقمشة الجديدة ممزوجة بروائح عطور البائعات والزبائن ومعظمهم نساء والعطور المجّانيّة المعروضة للتجريب. يا إلٰهي.. أيّ مكان أجمل وأكثر نعومة من هذا المكان؟ أيّ مكان أكثر إراحة للأعصاب وأكثر قدرة على القضاء على ما يشوّش الذهن من هذا الجناح الذي قادتني إليه الصدفة في مثل هذا الصباح الكئيب؟

أقوم بجولة طويلة في الجناح. أفعل ذلك بتمهّل شديد، فلديّ ما يكفي من الوقت قبل الرجوع إلى الشقّة والتوجّه فيما بعد إلى الفندق. وكلّما فكّرت بالانصراف لكي لا أثير انتباه الحرّاس فيشرعون في مراقبتي ممّا سيحدّ بالتأكيد من حرّيّتي ويفسد عليّ هذا التجوال اللذيذ؛ أحسست أنّ شيئًا قويًّا يشدّني إلى المكان. أنتقل من ممرّ إلى ممرّ. أتوقّف بين الحين والآخر. أتحسّس الملابس الناعمة. أشمّ العطور المعروضة للتجريب. أرقب النساء وهنّ يتفحّصن ويقلّبن الكيلوتات ومشدّات النهود. أتطلّع إلى البائعات الجميلات وأنا لا أكاد أصدّق أنّهنّ يبتسمن لي. لي أنا وحدي. وعندما أغادر المكان أشعر أنّ كلّ الأحاسيس التي ولّدها فيَّ حلم البارحة تلاشت ليحلّ محلّها شعور يشبه الانتشاء.

في المساء حالما أعود إلى البيت تخاصمني ماري كلير مثلما كنت أتوقّع. أردّ عليها محمّلاً إيّاها مسؤوليّة كلّ ما حدث. تصرخ في وجهي وتوجّه إليّ عدّة انتقادات. ألتزم الصمت منتظرًا أن تهدأ. لكنّها لا تكفّ عن الصراخ بل تزداد انفعالاً وتبدأ في شتمي. عندئذ أشتمها بدوري ناعتًا إيّاها بأنّها ضعيفة عديمة الثقة بنفسها، والأخطر من كلّ هذا جبانة تنهار بمجرّد أن تستيقظ في الصباح وتجد نفسها وحيدة. أقول كلّ ذلك دفعة واحدة وبسرعة لكي لا تقاطعني.

تتوقّف عن الصراخ. وتحدّق فيّ بعينين جامدتين. من الواضح أنّها فوجئت بهذا الكلام الذي لا أدري كيف خرج من فمي. تهزّ رأسها هزّات خفيفة ونظراتها التي لا تزال مركّزة عليّ توحي بأنّ

ماري كلير في أوجّ غضبها. أشعر بندم خفيف على ما قلت لكنّي لا أعتذر. أبقى في مكاني متماسكًا أبادلها النظر حتى اللحظة التي تدخل فيها غرفة النوم وتغلق بابها بقوّة ارتجّت لها الجدران.

وكالعادة تلتجئ ماري كلير فيما بعد إلى سلاحها الفتّاك: الصمت. كنت مستعدًّا لمواجهة مفعول هذا السلاح. وقد تعلّمت بمرور الزمن أن أتحمّل إلى حدّ ما بعض ما يحدثه في النفس من عذاب ودمار. لكنّ المشكلة هي أنّ صمتها طال هذه المرّة أكثر من اللازم. تألّمت كثيرًا. وتعذّبت نفسيًّا وجنسيًّا فقد صمّمت هذه المرّة على ألاّ تبادلني أيّة كلمة والأخطر من ذلك ألاّ تلمسني وألاّ تتركني أقترب منها في الفراش أو غيره.

بعد تردّد مضن وطويل أعترف لها بأنّي ارتكبت خطأ عندما غادرت الشقّة مبكرًا على غير العادة بدون أن أعلمها بما أنوي القيام به في مثل ذلك الوقت، وآخر أكثر فداحة من الأوّل لما تركتها يومًا كاملاً في حيرة وخوف عليّ، لأنّي لم أهتف لها كما كان من المفروض أن أفعل لتطمئنّ عليّ.

لا تعير ماري كلير اعترافي أيّ اهتمام، بل يخيّل لي أحيانًا أنّها تستغلّه لتزداد ابتعادًا عنّي وانغلاقًا على نفسها. لا أترك اليأس يتسلّل إليّ. أكرّر لها الاعتراف بوسائل متنوّعة وفي ظروف مختلفة. لكنّي كنت كمن يخاطب جدارًا.

بعد أيّام أجد نفسي مرغمًا على القيام بما كنت أتحاشاه حتى ذلك الوقت، وهو أن أعتذر لها عن كلّ ما بدر منّي. أفعل ذلك

بالرّغم من أنّني غير مقتنع به تمامًا؛ فماري كلير هي المسؤولة عن كلّ ما حدث، وإن كنت أعترف بأنّي كنت قاسيًا إلى حدّ ما لمّا وصفتها بأنّها جبانة وعديمة الثقة بنفسها.

تظلّ ماري كلير داخل شرنقتها مستاءة وعصيّة وبعيدة عنّي أكثر من أسبوعين. ولا أفلح في دفعها إلى الكلام ثم الخروج فيما بعد من شرنقتها، إلاّ عندما أخذت أتحدّث أمامها بحماس متكلّف عن عطلة الصيف التي بدأ موعدها يقترب آنذاك، وخصوصًا حين أسألها بشيء من الإلحاح عن البلد الذي تفضّل السفر إليه.

ـ ١٤ ـ

ليست هناك فيما أعتقد كلمة تحبّها ماري كلير مثلما تحبّ كلمة العطلة. فلهذه الكلمة وقع عجيب وسحري عليها. حين تنطقها يشعّ من عينيها بريق خاطف، ينضاف إلى ذلك الخليط من العفويّة والهدوء والألفة الذي يعكسه وجهها المدوّر، فتبدو مثل طفلة فرحة وسعيدة.

كلّ عام تصرّ ماري كلير على أن نحزم حقائبنا ونسافر، إذ لا عطلة بدون سفر كما تردّد. لا عطلة بدون مغامرة. بدون تعب لذيذ. في الأعوام الأولى لا أبدي تحمّسًا للسفر.. اللّهمَّ إلاّ إذا قبلت أن ترافقني إلى تونس، فأنا لم أكن أعير العطلة كلّ هذا الاهتمام ولم أكن مقتنعًا بأنّها تستحقّ كلّ هذا العناء. بل أستطيع أن أقول إنّ العطلة لم تكن بالنسبة لي سوى التوقّف عن العمل والبقاء طوال النهار في البيت للاستراحة أو التجوّل في الشوارع ومشاهدة الأفلام والتفرّج على الناس في الحدائق العامّة..

أذكر أنّ ماري كلير اقترحت عليّ بعد عامين على تعرّفنا أن نسافر إلى تنزانيا لقضاء بضعة أيّام في زنجبار ـ جزيرة التوابل وجوز الهند، كما تقول. رفضت فورًا بدون حتى أن أسألها عن

موقع زنجبار هذه على سواحل تنزانيا. إلاّ أنّ ماري كلير ألحّت عليّ. ما شأني أنا وتنزانيا قلت لها بشيء من الانفعال؟ هل أقطع كل هذه المسافة لأتفرّج على التوابل؟ ألست إفريقيًّا؟ سألتني باستغراب. وكانت تلك هي المرّة الأولى في حياتي التي أعي فيها جيّدًا أنّني بالفعل إفريقي.

هذه المرّة سافرنا إلى كريت. أمضينا أسبوعين كاملين هناك. وكالعادة عدت من العطلة منهكًا. وأنا لا أزال أشعر الآن، وقد مضى أكثر من أسبوع على عودتنا، بقليل من ذلك التعب الذي لم أعرف مثيلاً له من قبل في العطل السابقة.

منذ أن وطئت أقدامنا جزيرة كريت إلى أن غادرناها، لم تترك لي ماري كلير فرصة واحدة لألتقط أنفاسي وأستريح قليلاً، مستفيدة دون شكّ من انقيادي لها لكي ترضى عنّي وتنسى تمامًا ما قلته لها أثناء خصامنا الأخير. حتى نوم القيلولة الذي أحرص عليه في الصيف حرمت منه عدّة مرّات. لم نأت إلى هنا لننام! تقول لي باستهزاء. لم نقطع كل هذه المسافة لنذهب إلى شاطئ البحر ونستلقي على رماله ساعات بأكملها كالسيّاح الأغبياء، الذين لا همّ لهم سوى أن تسمرّ بشراتهم، أو لنجلس في المقاهي على الميناء ونتفرّج على القوارب الراسية ـ وهو ما كنت أقترحه عليها بين وقت وآخر ـ. كريت جزيرة كبيرة. ثمّة أمكنة ومواقع رائعة لابدّ أن نزورها. ثمّة أشياء مهمّة لابدّ أن نكتشفها. طوال الأيّام التي قضيناها هناك كانت دائمًا على استعداد للحركة والتنقّل. لا أذكر أنّها استسلمت للتعب أو تبرّمت أو اشتكت من

أمر ما. وهي الآن راضية عن عطلتنا المليئة حقًّا كما تردّد بحماس وزهو. لهذا السبب تبدو مرتاحة هادئة كمن أنجز عملاً مهمًّا بإتقان. وهي تتصرّف معي بلطف شديد وتستجيب بسرعة لكلّ طلباتي ونزواتي وحتى لبعض استيهاماتي الجنسيّة.

وخلافًا للمرّات السابقة لم نقم في فندق أو في غرفة نستأجرها من أحد السكّان ـ وهو ما تفضّله ماري كلير، معتقدة أنّ الإقامة في الفنادق خصوصًا كتلك التي كنّا ننزل فيها بين وقت وآخر تفسد الإحساس بمتعة العطلة، وتحرمنا من فرصة الاختلاط بالسكّان والاستماع إلى أحاديثهم ومعرفة أفكارهم وآرائهم في الحياة، والأكل من طعامهم واكتشاف عاداتهم وتقاليدهم.

أقمنا طوال العطلة في كامبينغ. لم يكن هذا مفاجأة لي، فقد حرصت ماري كلير منذ أن وقع الاختيار على جزيرة كريت أن تخبرني بذلك، كما لو أنّها تريدني أن أستعدّ نفسيًّا لمثل هذه المغامرة.. فهي تعرف أنّه لم يسبق لي أن أمضيت ولو ليلة واحدة في كامبينغ.

والكامبينغ هذا الذي حملتني إليه هو عبارة عن قطعة أرض مغبرّة وقاحلة إلاّ في مواضع قليلة تتوزّعها بضع أشجار أوكالبتوس، ويسيّجها جدار واطئ مطلي بالكلس، وينتصب في مدخلها كوخ خشبي يقيم فيه الحارس. إنّه يشبه إلى حدّ بعيد الرحبة في قرية المخاليف التي تتحوّل كلّ خميس إلى سوق عامر للغنم والأبقار والإبل. والذي يزيد في وحشته هو أنّه يقع على

بعد ثلاثة كيلومترات من البلدة التي قرّرنا الإقامة فيها. يجب أن نبتعد قدر الإمكان عن المدن وضجيجها تردّد ماري كلير، ونحن نمرّ بالقرب من المراحيض وأحواض الغسيل وغرف الاستحمام التي تبدو من شكلها الخارجي نظيفة في طريقنا إلى المكان الذي حدّده لنا الحارس لننصب فيه خيمتنا. يجب أن نتمتّع بالفراغ والخلاء والصمت. ليس هناك ما هو أجمل وأكثر إراحة للجسد والروح معًا من أن ننام على الأرض في العراء قريبًا من السماء والنجوم. ينبغي أيضًا أن نبتعد عن قطعان السيّاح. الناس هنا بسطاء وحقيقيّون. وأغلبهم من سكّان كريت.

ولحسن الحظّ كانت هناك شجرة في المكان الذي حدّد لنا. أخرجت ماري كلير على الفور من أحد الأكياس خيمتها القديمة التي كانت تستعملها وهي لا تزال طالبة. كانت تظنّ أنّها ضاعت أو ألقت بها في صندوق القمامة. لكنّها اكتشفت قبل أيّام قليلة من السفر أنّ أمّها المهووسة بالمحافظة على الأشياء التي لا فائدة منها، بدءًا بالعلب الكرتونيّة وانتهاء بقناني الشمبانيا الفارغة ومرورًا بالورق الملوّن الذي لُفّ به ما قُدّم لها من هدايا، لا تزال تحافظ على خيمتها التي تركتها عندها منذ أعوام طويلة.

لم يستغرق نصب الخيمة وقتًا طويلاً. فعلنا ذلك بسهولة. وفي الحقيقة ماري كلير هي التي قامت بذلك. أمّا أنا فقد اكتفيت بمساعدتها، لأنّي لا أدري كيف ينصب هذا النوع من الخيم الذي يختلف عن خيم البدو والرعاة التي أعرفها جيّدًا.

قمنا فيما بعد بكل ما ينبغي القيام به لتنظيف المكان وتهيئته. رششت أنا كلّ ما يحيط بالخيمة بالماء لكي لا يثور الغبار كلّما تحرّكنا. وقبل ذلك جمعت كلّ الأحجار والأعواد والخنافس الميتة وألقيت بها بعيدًا. كما صنعت من أغصان صغيرة ما يشبه المكنسة وكنّست المكان جيّدًا. أمّا ماري كلير فقد فتحت صندوقها الصغير المليء بالأدوية الذي لا يفارقها في السفر، وأخرجت منه مادّة مبيدة للحشرات ورشّت به كلّ المكان الذي يحيط مباشرة بالخيمة. لا تخف. الآن تستطيع أن تنام هادئ البال. كانت تقول لي وهي تبتسم. تتظاهر بأنّها نسيت أن ترشّ مكانًا ما فتعود إليه وترشّه من جديد بعناية مبالغ فيها، وهي تتطلّع إليّ طالبة منّي أن أراقب العمليّة لكي أزداد اطمئنانًا، فأكفّ عن الحديث عن الحشرات وخصوصًا عن العقارب التي تعرف ماري كلير أنّي حالما أفكّر فيها ينتابني رعب حقيقي.

كان الظلام قد بدأ ينتشر حولنا عندما انتهينا من العمل، وصار كل شيء داخل الخيمة وخارجها على أحسن ما يرام. قبل أن نتعشّى قمنا بجولة طويلة في الكامبينغ. لم يكن فيه آنذاك نزلاء كثيرون، ولهذا كانت الخيام منصوبة في أمكنة متباعدة. أمام أغلبها رجال ونساء وأطفال وبجوارها درّاجات وموتوسيكلات وسيّارات. كلّما مررنا بخيمة التفتت ماري كلير إلى أصحابها وحيّتهم بكلمة أو بحركة من رأسها أو يدها. أحبّ الكامبينغ، تردّد ماري كلير كما لو أنّها تقدّم تبريرًا لما تفعله. الناس هنا ليسوا باردين ومنغلقين كما في الفنادق. إنّهم يبتسمون لك.

يسلّمون عليك. يعاملونك كما لو أنّهم يعرفونك. سترى عندما يمتلئ الكامبينغ.. ستشعر بهذا كل يوم. ستحسّ أنّك فرد في عائلة كبيرة.

لم نشعر بمرور الزمن لأنّنا كنّا في حركة دائمة. كلّ يوم له برنامج مختلف تحدّده ماري كلير بموافقتي طبعًا. حالما نفرغ من تناول طعام العشاء، وهو في غالب الأحيان معلّبات وخضر وفواكه، تخرج ماري كلير من كيسها خرائطها وتفردها على الأرض، وتسلّط عليها ضوء لمبتها التي لا تفارقها في الليل بحثًا عن المدن والقرى التي تقترح عليّ الذهاب إليها في الغد.

وحالما تنتهي من ذلك تفتح ما حملته معها من كتب سياحيّة، وتتلو عليّ بصوت عال وبمتعة واضحة في طريقة نطقها للكلمات ما كتب عن هذه القرى والمدن مركّزة على ما يميّزها عن غيرها. ولا تتوقّف عن القراءة إلاّ عندما أشرع في التثاؤب معلنًا بذلك عن رغبتي في النوم. أدخل جسدي في كيس النوم وأغمض عيني. إلاّ أنّ ماري كلير تواصل النظر في أدلّتها وخرائطها. وقبل أن تدخل كيسها، أو تندس عارية في كيسي وهو ما تفعله حين تشتهيني أو تشعر أنّني أشتهيها، تعدّ كل ما نحتاجه في الغدّ. تخرج من الحقائب الثياب التي سنرتديها وما سننتعل وما سنحمي به رؤوسنا لكي لا نصاب بضربة شمس. تفرغ قربتها ممّا بقي فيها من ماء لتكون جاهزة للملء في صباح الغدّ. تضع صندوق الأدوية والمراهم والكريمات والنظّارات الشمسيّة والروايات والمجلاّت التي نحن بصدد قراءتها في الكيس الذي ستحمله معها

لكي لا ننساها، وخصوصًا لكي لا نضيّع الوقت في البحث عنها في الصباح.

في معظم الأيّام نستيقظ باكرًا، فالمواصلات بين الكامبينغ ومحطّة البلدة التي تنطلق منها الباصات المتوجّهة إلى مختلف مدن كريت وقراها قليلة وبطيئة. وأحيانًا نضطر إلى قطع جزء من المسافة سيرًا على الأقدام بدلاً من الانتظار الطويل المملّ.

القرى والمدن والمواقع الأثريّة والطبيعيّة، التي زرناها وقضينا فيها بضع ساعات أو يومًا بأكمله، كثيرة جدًّا.. إلى درجة أنّي صرت أخلط بينها خصوصًا إذا كانت أسماؤها متشابهة. لا أعتقد أنّني شاهدت في حياتي كل هذا العدد المرتفع من الأمكنة في مثل هذه الفترة الزمنيّة القصيرة.

نعود إلى الكامبينغ في وقت متأخّر. بعد تناول طعام العشاء تشرع ماري كلير كالعادة في تأمّل خرائطها وتصفّح كتبها السياحيّة. أحيانًا أبدي لها مسبقًا موافقتي على برنامج اليوم الموالي وأنجح في التخلّص منها. أحمل أواني الطعام القليلة التي استعملناها وأتوجّه إلى أحواض الغسيل، فقد لاحظت أنّ نساء كثيرات من الكامبينغ الذي امتلأ بالنزلاء يتردّدن في مثل ذلك الوقت على غرف الاستحمام.

أضع أواني الطعام في أحد الأحواض التي أستطيع أن أراقب منها جيّدًا حركة النساء. ولكي لا أثير انتباه أحد من الرجال والنساء الذين من حولي، أصبّ قدرًا كبيرًا من الصابون السائل

على الأواني وأفتح الصنبور على آخره، فيتدفّق منه الماء بقوّة ويمتلئ الحوض بالرغوة. هكذا أستطيع أن أغسل الأواني عدّة مرّات وأطيل المكوث هناك من دون أن يرى أحد الأواني القليلة ويلاحظ أنّ غسلها لا يستغرق كلّ هذا الوقت. ومن حين إلى آخر أرفع رأسي وأتطلّع إلى النساء اللاتي يخرجن من غرف الاستحمام شبه عاريات تفوح من أجسادهنّ الدافئة التي لا تزال قطرات من الماء عالقة بها رائحة الصابون المعطّر.

في الأسبوع الثاني من العطلة، وخصوصًا في جزئه الأخير، لم أعد أبدي رأيي في برنامج اليوم. فقد صار كلّ ما يهمّني هو أن أذهب كلّ ليلة بعد العشاء إلى أحواض الغسيل. استغلّت ماري كلير ذلك مثلما كنت أتوقّع وأصبحت تخطّط للقيام بأشياء لم تكن تخطر على بالي.

ذات يوم طلبت منّي بعد أن أيقظتني في وقت مبكر جدًّا أن أنتعل حذاء الصندل الخفيف، لأن الشِعب الذي حدّثتني عنه أمس شديد الوعورة. شعرت في تلك اللّحظة بندم خفيف على أنّي لم أسألها عن هذا الشعب الذي تريد أن تحملني إليه. لكنّي لم أقل شيئًا.

ركبنا باصًا قديمًا صعد بنا إلى قمّة جبل سالكًا طريقًا متعرّجًا وضيّقًا وغير مزفّت في مواضع عديدة. أحيانًا يميل إلى اليمين أو إلى اليسار، كأنّه على وشك السقوط في غابة الصنبور التي تحفّ بالطريق.

يتصايح السيّاح ويتضاحكون كأطفال خلال رحلة مسلّية ومليئة بالمغامرات المثيرة. وعندما يعبر الباص المواضع غير المزفّتة في الطريق الذي تزداد حالته سوءًا كلّما اقتربنا من قمّة الجبل تثير العجلات غبارًا كثيفًا يحجب الرؤية ويتسلّل بعضه إلى الداخل. يندفع السيّاح إلى النوافذ لإغلاقها، لكن بعضها لا ينغلق بإحكام أو لا ينغلق أصلاً. يغمضون أعينهم أو يغطّون وجوههم بقبّعاتهم أو يحرّكون أيديهم في الهواء، أو يغيّرون مقاعدهم للاحتماء من الغبار من دون أن يكفّوا عن الضحك والصياح، فيبدون أكثرَ شبهًا بالأطفال. أمّا ماري كلير فتمسك بيدي وتزداد التصاقًا بي وهي تتابع باهتمام ما يحدث حولها كمن وجد نفسه بالصدفة أمام مشهد مثير ولا يريد أن يضيّع منه أيّ شيء.

كانت فرحة حقًّا في ذلك اليوم. ليس لأنّي لم أبدِ أيّ اعتراض على فكرة عبور الشعب الطويل الممتدّ من قمّة الجبل حتى البحر فحسب، وإنّما أيضًا لأنّي قبلت بدون أيّ نقاش أن أرتدي شورتًا وقميصًا بلا كمّين، وهو ما أرفضه في العادة عندما أكون خارج البيت، بالرّغم من أنّي أعرف أنّه يحلو لماري كلير أن تراني في هذه الثياب بين الفينة والأخرى. والذي يدفعني إلى هذا الرفض هو هذا الإحساس بالحرج بل والخجل الذي يساورني عندما أكشف عن ركبتي وخصوصًا عن ساقيّ المشعرّتين والمقوّستين قليلاً.

لا يختلف الشعب عن الشعاب الورديّة التي حفرتها سيول الأمطار الغزيرة والفيضانات الموسميّة حول واد الخرّوب في قرية

المخاليف؛ وهي شعاب أعرفها جيّدًا لكثرة ما عبرتها وأنا طفل. لهذا لم أشعر بالمتعة نفسها التي شعرت بها ماري كلير في ذلك اليوم. والشيء الوحيد فيه الذي لفت نظري هو أنّه أطول وأعمق في بعض المواضع خصوصًا في بدايته، كما أنّه أقلّ وعورة، إذ إنّ أقدام آلاف السيّاح الذين عبروه قبلنا استطاعت بمرور الزمن أن تشقّ طريقًا واضحًا بين الأشواك والنباتات والصخور الحادّة.

عبرناه في أكثر من ثلاث ساعات، تخلّلتها طبعًا عدّة فترات استراحة التقطت خلالها ماري كلير صورًا كثيرة لكل ما أعجبها. بيوت وأكواخ صغيرة مهجورة. ماعز يتسلّق جوانب الشعب بحثًا عن الكلأ. مجاري سيول تنبت فيها نباتات غير مألوفة. صخور ضخمة ورديّة اللّون. وهاد وهضاب وأودية لا ماء فيها.

بين وقت وآخر أفاجأ بأنّ عدسة الكاميرا مثبّتة عليّ، وأنّ «زومها» الشبيه بأنبوب مدفع صغير مصوّب إليّ. لا تتحرّك، تقول لي. في كلّ عطلة تلتقط لي صورًا عديدة أغلبها بالأبيض والأسود، فهي تعشق التصوير الفوتوغرافي وتقتني ثلاث كاميرات. ولكن عندما أقترح عليها أن أصوّرها لا تتحمّس لذلك، لأنّها لا تحبّ صورها فضلاً عن أنّها تجد متعة حقيقيّة في تصوير الآخرين.

لمّا وصلنا إلى البحر سبحنا كأغلب السيّاح الذين سبقونا إليه في انتظار الذين لم ينتهوا بعد من عبور الشعب. ثمّ ركبنا باخرة متوجّهة إلى قرية صغيرة، حيث كان ينتظرنا باص للعودة إلى البلدة التي كنّا نقيم فيها.

الغريب أنّه في تلك العطلة الرائعة التي كانت ماري كلير راضية عنها، وتحديدًا في ذلك اليوم الاستثنائي الذي بلغ فيه فرحها ذروته، حدث شيء لم أعره في حينها اهتمامًا بالرغم من أنّه آلمني قليلاً، لكنّه يبدو لي الآن وأنا أستعيد ذلك الماضي مؤشّر بداية النهاية لعلاقتي بماري كلير.

بعد العشاء تركت ماري كلير منكبّة على خرائطها وكتبها السياحيّة وتوجّهت كالعادة إلى أحواض الغسيل. ولم أكد أملأ الحوض بالماء حتى رأيتها. كانت قد خرجت لتوّها من إحدى غرف الاستحمام. لم أشكّ لحظة واحدة في أنّها يونانيّة. سارت في اتجاهي وهي تمشّط شعرها المبلّل. ولمّا اقتربت منّي ابتسمت لها فابتسمت بدورها. وواصلت طريقها.. كان هناك في ابتسامتها وملابسها وخصوصًا مشيتها والطريقة التي تحرّك بها جسدها شيء من العهر. وهذا ما أربكني وأثارني في الوقت ذاته.

شرعت في غسل الأواني. وفيما كنت أتساءل عمّا إذا كان من المفيد أن أسير بعد الانتهاء من عملي في الاتجاه الذي سارت فيه للبحث عنها، فوجئت بها تعود إلى المكان ليس لغسل الأواني وإنّما لملء إبريق بالماء. ومن جديد ابتسمت لمّا مرّت بالقرب منّي في طريقها إلى خيمتها. تركت أواني الطعام في الحوض وتبعتها هذه المرّة. كنت أريد أن أعرف أين تسكن.

ازددت اقترابًا منها، وركّزت نظري على مؤخّرتها التي تكاد تكون عارية. بعد لحظات قليلة استدارت ودنت من رجل طويل،

لم أنتبه إلى وجوده. كان يقف على بعد خطوات من خيمة كبيرة أمامها طفلان يلعبان. أخذ الإبريق من يديها بحركة سريعة، وبدأ ينظر إليّ بشكل يدلّ أنّه لاحظ أنّني أتبع امرأته.

لم أشأ أن أعود أدراجي لكي لا ينفضح أمري. واصلت السير في الاتجاه نفسه كما لو أنّي كنت أتنزّه. ولمّا وصلت إلى الجدار الذي يحيط بالمخيّم استدرت وسلكت ممرًّا آخر عائدًا إلى أحواض الغسيل. ولم أشعر بالاطمئنان إلاّ عندما التفت إلى الخلف ولم أر الرجل الطويل.

لو توقّف الأمر عند هذا الحدّ لهان. لكنّ المشكلة هي أنّ صورة تلك المرأة وهي تحرّك مؤخّرتها استحوذت تمامًا على ذهني، إذ لم يحدث أن اشتهيت امرأة بمثل تلك القوّة منذ أن التقيت ماري كلير. والأخطر من ذلك أنّها ظلّت تلازمني خلال الأيّام الأخيرة من العطلة، حتى أنّني صرت أشعر حين آخذ ماري كلير أو تأخذني أنّي لا أمارس الجنس معها هي وإنّما مع تلك اليونانيّة، ممّا يولّد في نفسي فيما بعد خليطًا من الإحساس بالألم والندم إذ أشعر أنّي أخون ماري كلير. ولم أنجح في التخلّص من أسر تلك المرأة إلاّ بعدما انتهت العطلة وعدنا إلى باريس وانخرطنا من جديد في إيقاعها.

ـ ١٥ ـ

أركّز نظري على النباتات فأنتبه إلى أنّها ازدادت طولاً. تبدو أوراقها أشدّ خضرة في ضوء شمس الصباح. تنحني عليها ماري كلير بعد أن تستدير لي بظهرها لتتحسّس جذوعها فأرى جزءًا من ردفيها. في العادة لا أتردّد أو أنتظر. أقترب منها على الفور وألتصق بها، فتفهم أنّي أريد أن آتيها وهي منحنية على النباتات.

هذه المرّة أتملّى ردفيها طويلاً كما لو أنّي أراهما للمرّة الأولى. وعندما أصمّم أخيرًا على أن أقوم وألتصق بها من الخلف تدفعني بإحدى يديها بينما تواصل بالأخرى تحسّس النباتات. ألتصق بها ثانية فتستدير نحوي. لا أريد. هل فهمت؟ تتفرّس في وجهي للحظة كأنّها تريد أن تؤكّد لي أنّها لا تمزح. ثمّ تنحني من جديد على نباتاتها.

لم تمض سوى بضعة شهور على عودتنا من كريت. لكن كم تبدو بعيدة فترة العطلة وما تلاها من أيّام، كانت ماري كلير تعاملني فيها برقّة وتهذيب، وتستجيب لكلّ ما أطلبه منها ملبّية أحيانًا بعض ما يستحوذ عليّ من استيهامات.

لا أفاجأ برفضها، فأنا واثق من أنّها أدركت بحدسها الأنثويّ

القويّ أنّني لم أكن أشتهيها حقًّا. إنّ شيئًا كهذا لا يمكن أن يخفى عليها. لا بدّ أنّها لاحظت أنّ رغبتي فيها ليست صادقة وكاملة وجامحة كما في المرّات السابقة، وأنّ حركاتي فيها شيء من الافتعال. ثمّ إنّها لا تحبّ أن آتيها وهي منحنية على النباتات خاصّة في الصباح. ما يزعجني حقًّا هو الطريقة التي رفضتني بها. كلّ ما فيها يوحي بالقسوة والنفور. حركة اليد وهي تدفعني. نبرة صوتها وخصوصًا نظرتها المباشرة الباردة الطويلة. لم ألاقِ أبدًا مثل هذا الرفض حتى في فترات الخصومة التي تهجرني فيها ولا تتركني أقترب منها في الفراش.

لا أتفوّه بأيّة كلمة. أجمع كلّ ما يتناثر على الطاولة من فتات الخبز، وبدلاً من أن أرميه كالعادة في صندوق الزبالة أفتح نافذة المطبخ وأقدّمه للحمام. أغسل كلّ الفناجين والملاعق والسكاكين وإبريق القهوة في تمهّل ملتذًّا بنعومة رغوة الصابون المعطّر برائحة الليمون. وأعود إلى الصالون لأعرّض جسدي للشمس وأستمتع بدفء أشعّتها، فهي قليلة الظهور في مثل تلك الفترة.

ماري كلير لا تزال أمام نباتاتها. لم تغيّر وضعها أيضًا. بل يخيّل إليّ أنّها ازدادت انحناءً وأنّ الجزء العاري من مؤخّرتها صار أكبر. أتساءل وأنا أعود إلى مكاني على الكنبة عمّا إذا كانت تفعل ذلك عمدًا لإثارتي وإغاظتي في آن واحد. لكن سرعان ما أطرد هذه الفكرة من ذهني بدون أن أكون مقتنعًا بعكسها.

أستعيد حركة يدها وهي تدفعني ونبرة صوتها ونظرتها الباردة،

كما لو أنّها تنتمي إلى زمن بعيد، فأزداد تأكّدًا من أنّ طريقتها في الرفض كانت قاسية حقًّا. لكنّ الغريب أنّ إحساسي بالانزعاج يخفّ هذه المرّة. أكثر من ذلك أشعر في قرارة نفسي أنّي أستحقّ مثل هذه المعاملة، فكيف أغالط امرأة تحبّني متظاهرًا بأنّ رغبتي فيها تلقائيّة وقويّة في حين أنّي لا أريد سوى أن أدخلها؟

تستوي ماري واقفة. تستدير وتتطلّع إليّ. أبتسم لها فتردّ بابتسامة خفيفة جدًّا لا تكاد تظهر على شفتيها اللتين لا تزال عليهما آثار النوم. أفهم من ذلك أنّها لا تريد أن تتعقّد الأمور وتتطوّر إلى ما لا أحد منّا يقبله. وتزداد هذه الفكرة وضوحًا عندما تجلس ماري كلير إلى جواري لتستمتع مثلي بما يتسلّل إلى الصالون من شمس الصباح الدافئة.

لا نتكلّم لوقت طويل. بين لحظة وأخرى أسترق النظر إلى ماري كلير. في وجهها شيء من الشحوب. وفي حركاتها القليلة بطء لم أعهده فيها. لابدّ أنّها لم تنم جيّدًا البارحة. ومن يدري ربّما رأت أحلامًا مزعجة وكوابيس جعلتها تستيقظ عدّة مرّات!

في العادة أصحو قبلها في عطلة نهاية الأسبوع. حالما أفتح عيني أترك الفراش وأغادر الغرفة لكي لا أحرمها من نوم الصباح الطويل الذي تحرص عليه بشدّة. أغتسل. ثمّ أشرع في إعداد الفطور. وعندما أنتهي من ذلك أضع كلّ شيء على الطاولة وأنتظرها.

هذه المرّة أفاقت قبلي. ظلّت مستلقية على ظهرها في

الفراش. ورأسها يتوسّد يديها المشبوكتين. عندما صرت متأكّدًا من أنّها صاحية مددت يدي ووضعتها على كتفها. استدارت إليّ وأمسكت بيدي وأخذت تداعبها. داعبت يدها بدوري لوقت قصير. ثمّ تركنا الفراش وتوجّهنا إلى المطبخ.

استغرق تناول الفطور وقتًا طويلاً كالعادة. تحدّثت ماري كلير عن الطقس الجميل وتمنّت أن يستمرّ ذلك طوال النهار. وتكلّمت أنا عن الأمكنة التي يمكننا زيارتها مبديًا رغبة واضحة في الذهاب إلى أحد المتاحف الكبرى، بالرغم من أنّي أعلم أنّ ماري كلير لا تحبّ المتاحف خصوصًا في عطلة نهاية الأسبوع لأنّها تمتلئ بقطعان السيّاح كما تقول.

تشتدّ وطأة الصمت. أشعر أنّي لم أعد قادرًا على احتماله. ليس لأنّه طال أكثر من اللازم فحسب وإنّما أيضًا لأنّه يعمّق الهوّة بيني وبين ماري كلير، فتبدو لي وهي الجالسة إلى جواري على الكنبة ولا تفصلها عنّي سوى بضعة أشبار بعيدة عنّي. أحسّها عصيّة منغلقة على ذاتها غامضة صعبة المنال.

النباتات استطالت، أقول، لكي أفلت من وطأة الصمت وممّا يولّده في نفسي من أحاسيس موجعة. تحرّك ماري كلير رأسها حركة خفيفة. كان لابدّ أن نغيب وقتًا طويلاً عن البيت لكي ألاحظ ذلك، أضيف بحماس مفتعل. تدير ماري كلير رأسها في اتجاه النباتات. أركّز بصري للحظة على وجهها. وللمرّة الأولى تبدو لي من تلك الزاوية غير جميلة.

أقوم وأتوجّه إلى النباتات. أنحني عليها. وأشرع في تحسّس أوراقها وسيقانها تمامًا مثلما تفعل ماري كلير. ليس من عادتي أن أفعل ذلك فعلاقتي بها مختلفة. وكلّ ما أقوم به يكاد يقتصر على سقيها بين وقت وآخر أو تغيير مكانها لكي لا تحرم من ضوء الشمس الضروري لنموّها. لكن هذه المرّة أحسّ أنّني مدفوع إلى النباتات بقوّة هائلة. كأنّي أهرب إليها من نفسي. كأنّي أستعين بها على تحمّل ما يغزوني من أفكار ومشاعر.

لا تلمس الأوراق هكذا.. افعل ذلك برقّة ولطف، تقول ماري كلير بصوت مرتفع. لا تخافي. أردّ عليها من دون أن أتوقّف عن تحسّس الأوراق. إنّها هشّة جدًّا وستنتزعها إذا ظللت تلمسها بهذه الطريقة، تضيف ماري كلير بانفعال.

أعود إلى مكاني على الكنبة وشيء من الارتياح يغمرني، لأنّي نجحت في دفع ماري كلير إلى الكلام. لست متأكّدًا من أنّي أتحسّس أوراق النباتات بطريقة قد تؤدّي إلى انتزاعها. وليس مهمًّا أنّ نبرة صوتها لا تزال تبدو لي قاسية وأنّ في حركات يديها قليلاً من العنف. المهمّ أنّها خرجت من صمتها فلم أعد أراها منطوية على نفسها وبعيدة عنّي.

وفيما كنت أبحث عمّا يمكن أن أقوله لها لكي لا يستقرّ الصمت بيننا من جديد، أسمعها تسألني عمّا إذا كنت راضيًا عن طلاّبي هذا العام، وعمّا إذا كانت الجامعة التي نجحت في إقناعها بالتعاقد معي للتدريس أفضل من جامعة السنة الماضية!

الحقيقة أنّي لم أكن أنتظر منها ذلك في مثل هذا الوقت. لم أكن أتصوّر أنّها يمكن أن تفكّر في أمور من هذا النوع ولا تعني سواي، وهي في مثل تلك الحالة وخصوصًا بعد الخطأ الذي ارتكبته عندما تظاهرت بأنّي أشتهيها، في حين أنّي لم أكن أريد سوى دخولها كما أدخل قحبة أو امرأة لا تربطني بها أيّة علاقة ولا أكنّ لها أيّ ودّ. امرأة تستحيل في لحظة غامضة إلى مجرّد ثقب مبلّل نسدّه بحثًا عن متعة فيزيولوجيّة عابرة!

أفرح لأسئلتها التي عمّقت إحساسي بالارتياح وأعادت الطمأنينة إلى نفسي المضطربة. أنتهز تلك الفرصة النادرة وأنخرط في حديث طويل كما لو أنّي أنتقم من كل صمتي السابق. أحدّثها عن الجامعة التي لا تشبه كلّ الجامعات التي درّست فيها. أحدّثها عن مكتبتها الجميلة. عن حديقتها الواسعة. عن قاعاتها الفسيحة ذات النوافذ العريضة. عن أساتذة فرنسيين يطرحون عليّ أسئلة كثيرة عن العربيّة، أغلبها ساذج وغريب. . وعن آخرين يطلبون منّي أن أكتب لهم أسماءهم بالعربيّة على أوراق يحتفظون بها أو يلقون بها في سلاّت المهملات بعد أن يتطلّعوا إليها طويلاً. أحدّثها عن الطلاب الذي يحضرون دروسي بشكل متقطّع، إذ إنّهم يتغيّبون كثيرًا. أحدّثها عن جنسيّاتهم المختلفة. عن تصرّفاتهم أثناء الدروس. عمّا أكتشف من همومهم ومشكلاتهم. عن علاقات الذكور منهم بالإناث. أحدّثها عن الدروس الناجحة والدروس الفاشلة. عن إعجاب الطلاّب بالصعاليك وتفضيلهم للسليك بن السَلَكة مثل كلّ الطلاب الذين سبق أن درّستهم.

لا تقاطعني ماري كلير. بين وقت وآخر ترفع رأسها المستند إلى أعلى الكنبة وتنظر إليّ بشكل يدلّ على أنّها تستمع إليّ بانتباه. وحين أتوقّف عن الكلام تنزلق بجسدها في اتجاهي فتكاد تلتصق بي. ترفع ذراعها وتميل عليّ قليلاً عارضة عليّ إبطها. إلاّ أنّي لا أشعر آنذاك بأيّة رغبة في تشمّمه.

ـ ١٦ ـ

ـ تعال. . سأريك شيئًا. .

لم يمض وقت طويل على عودتي إلى البيت. كنت منهكًا في نهاية ذلك اليوم، فقد اشتغلت إلى ما بعد الظهر في الفندق. وفيما بعد توجّهت إلى الجامعة حيث ألقيت درسين متوالين بذلت فيهما الكثير من الجهد. حالما وصلت إلى البيت تمدّدت بكلّ ملابسي على الكنبة. لم أقوَ حتى على خلع حذائي.

ـ سأريك شيئًا. . وفيما بعد سنقوم بجولة في المدينة.

تقول ماري كلير وهي تبتسم. أحدّق في وجهها للحظة طويلة فتضيف بلهجة مطمئنة:

ـ أنا متأكّدة من أنّ الجولة ستعجبك. . تعال الآن. . ولا تسألني عن أيّ شيء.

الحقيقة أنّي لم أكن أنوي أن أطرح عليها أيّ سؤال، فأنا لا أشعر بأيّة رغبة في الكلام في مثل ذلك الوقت، ثمّ إنّي كنت أخشى أن أغضبها إن فعلت ذلك، فقد كانت تمرّ آنذاك بفترة صعبة لأسباب غير واضحة. كانت شديدة الحساسيّة. تنفعل بسهولة ولأتفه الأمور.

تنزل الدرج بسرعة. أتبعها صامتًا. وعندما نخرج من العمارة تسير بضع خطوات ثمّ تنتصب أمام موتوسيكل مركون على الرصيف إلى جانب شجرة، وتقول وهي تشير إليه بيدها:

ـ ما رأيك؟

أظلّ أتطلّع إليها بدهشة. ولا أفهم الحكاية إلاّ عندما تضيف وهي تقترب من الموتوسيكل وتمسك بالمقود:

ـ إنّه لي.. اشتريته قبل ساعة واحدة.

كنت أعرف أنّ ماري كلير تحبّ السيّارات والموتوسيكلات والدرّاجات. وهو حبّ ورثته فيما أعتقد عن أبيها الذي كان شديد الإعجاب بالسيّارات. وقد سبق أن أبدت عدّة مرّات رغبتها في شراء موتوسيكل يريحها من عناء المترو، الذي لم تعد تحتمله بسبب أنفاقه وممرّاته الكئيبة وروائحه الكريهة كما تقول. ولكنّي لم أكن أتصوّر أن تشتري في يوم من الأيّام موتوسيكلاً ضخمًا من هذا النوع الذي لا يقدر على قيادته سوى الرجال.

ـ ولكن.. كيف ستقودينه؟

ـ لا تخف.. لقد قدت ما هو أكبر.

تردّ ماري كلير قبل أن تخرج من صندوق في مؤخّرة الموتوسيكل خوذتين، ناولتني إحداهما.

ـ ضعها على رأسك..

ـ لكن . .

تقاطعني وهي تسوّي جيّدًا الخوذة على رأسي وتشدّ رباطها حول عنقي بإحكام، ثمّ تنزل واقية الريح البلاستيكيّة الشفّافة لحماية وجهي:

ـ لا تخف . . كلّ شيء سيكون على أحسن ما يرام.

تستقرّ ماري كلير على الجزء الأمامي من المقعد المستطيل بعد أن تشغّل الموتور. ثمّ تأمرني بأن أصعد خلفها أستقرّ على الجزء الخلفي من المقعد. وعندما ينطلق الموتوسيكل أتشبّث بملابسها خوفًا من أن أقع على الأرض فتتهشّم عظامي.

إنّها المرّة الأولى التي أركب فيها موتوسيكلاً من هذا النوع. لم يخطر ببالي أبدًا أنّي سأفعل هذا في يوم من الأيّام. شيئًا فشيئًا ترتفع سرعة الموتوسيكل. يتفاقم إحساسي بالخوف فأزداد تشبّثًا بماري كلير. أطوّقها بذراعي وأميل عليها بكلّ جسدي. تتراجع بجذعها محاولة أن تدفعني بظهرها إلى الخلف لكيّ يخفّ عنها العبء.

ـ ابق مستقيمًا . . ولا تتحرّك.

عندما نقطع مسافة قصيرة يتلاشى خوفي من السقوط. أتشجّع فأرفع رأسي وأستوي في جلستي. وحين أرى أنّ كلّ شيء يمرّ بسلام أكفّ عن تطويق ماري كلير وأنقل يدي إلى مؤخّرة المقعد لأمسك بها. ثم أشرع في التطلّع إلى السيّارات التي تسير إلى

يميننا ويسارنا، وإلى سوّاقها وركّابها الذين يتطلّعون بدورهم إلينا.

ـ مازلت خائفًا؟

ـ لا..

ـ وما رأيك؟.. تحبّ الموتوسيكل؟

ـ لا يشبه السيّارات..

ندخل شارعًا طويلاً أقلّ ازدحامًا بالسيّارات. تضاعف ماري كلير سرعة الموتوسيكل. وتزداد انحناء على المقود دافعة بمؤخّرتها إلى الخلف ممّا جعلني أتزحزح قليلاً لكي تستأثر بأكثر ما يمكن من المقعد. تتوقّف عند الإشارات الضوئيّة في مقدّمة طابور السيّارات. وحالما يصبح الضوء أخضر ينطلق الموتوسيكل بسرعة باغتتني بالرّغم من أنّ ماري كلير أخطرتني بما تنوي القيام به. غير أنّ ما يزعجني هو هذا الضجيج الحادّ الذي يحدثه الموتوسيكل وهو ينطلق.

يتوقّف بعض المارّة على الرصيف وينظرون إلينا بحدّة أو يرفعون أيديهم احتجاجًا على ضجيج الموتوسيكل. تحرّك ماري كلير مؤخّرتها كما لو أنّها ترقص. وتضحك بصوت عال. تبدو كطفلة مبتهجة لأنّها نجت من عقاب تستحقّه على خطأ مؤكّد.

نصل إلى ميدان واسع تتفرّع منه عدّة شوارع. كلّ السيّارات والحافلات والشاحنات متوقّفة أو تسير ببطء كبير لشدّة الازدحام.

تخفض ماري كلير من السرعة إلاّ أنّها تواصل السير بدون توقّف مخترقة حشد السيّارات الهائل ومتسلّلة بينها بسهولة.

ـ لا شيء يمنعك من السير في مثل هذه الحالات إذا كنت على موتوسيكل.

تقول ماري كلير بشيء من التباهي. يزداد صوتها ارتفاعًا فيما ترتفع سرعة الموتوسيكل بعد عبور الميدان.

ـ لهذا أفضّل الموتوسيكل على السيّارة. . أشعر أنّي أكثر حرّيّة.

أحسّ بقليل من الفرح وأنا أرى ماري كلير تنجح في تجاوز عدد كبير من السيّارات الفخمة وبعض الموتوسيكلات الضخمة التي يسوقها رجال تاركة إيّاها خلفنا. أدرك آنذاك أنّها تحسن القيادة فأصير فخورًا بها. ولكي أبدي لها إعجابي واعتزازي بها أداعب ظهرها قليلاً. واستجابة لحركاتي التي تريحها على ما يبدو تمرّ بيدها على فخذي وهي تلصق مؤخّرتها بي.

ـ استعدّ الآن. . بعد لحظات سننتقل إلى الطريق السيّار الدائري الذي يحيط بالمدينة.

ينتابني الخوف من جديد، فالسيّارات في هذا النوع من الطرقات تسير بسرعة جنونيّة كأنّها في سباق محموم، ثمّ إنّ سيلها لا ينقطع. وأيّ حادث يؤدّي إلى الموت إلاّ في حالات نادرة جدًّا. تضيف ماري كلير كأنّها أدركت من صمتي ما يشغل ذهني:

ـ تعرف. . الطريق السيّار أكثر أمانًا ممّا يظنّ الناس!

نعبر مسافة طويلة في الطريق السيّار، ثمّ نغادره عائدين إلى البيت. ضاعفت ماري كلير السرعة إلى الحدّ الذي شعرت معه كأنّنا نطير. الغريب أنّي لم أشعر في أيّة لحظة أنّني في خطر. والسبب هو أنّ السرعة بهرتني واستحوذت عليّ تمامًا، بحيث لم يبق في نفسي مجال لمثل هذا الإحساس.

في طريق العودة نتوقّف بالقرب من سيّارة في انتظار إشارة الضوء الخضر. ألاحظ وأنا أسترق النظر إلى السائق وهو كهل في حدود الخمسين أنّه يتطلّع إلى ماري كلير بعينين واسعتين. لم تنتبه ماري كلير لذلك، فقد كان نظرها مركّزًا على الإشارات الضوئيّة. أنحني عليها وأهمس في أذنها أنّ كهلاً وقع على ما يبدو في حبّها. حين تلتفت إليه يبتسم لها الكهل ابتسامة عريضة. ثمّ يرفع إبهامه عاليًا.

في المفترقات الأخرى ألاحظ أنّ ركّاب السيّارات يتطلّعون إلينا طويلاً. أحيانًا يبتسمون لنا أو يهزّون رؤوسهم وهم يحدّقون في الموتوسيكل. لا أعيرهم اهتمامًا. وفي بعض المرّات يحلو لي أن أبادلهم النظر وأنا فخور بأنّي أثير جزءًا من اهتمام كلّ هؤلاء الناس.

في البيت أدرك سرّ هذا الاهتمام فيزول إعجابي بنفسي. أكتشف أنّ الناس ينظرون إلينا كثيرًا لأنّهم يشاهدون شيئًا لم يعتادوه، فالرجل هو الذي يقود في العادة هذا النوع الضخم من

الموتوسيكلات تاركًا الجزء الخلفي من المقعد للمرأة، وليس العكس. لهذا السبب رفع الكهل إبهامه لماري كلير تعبيرًا عن إعجابه بها.

ـ المرّة القادمة سأترك لك المقود..

تقول ماري كلير مازحة قبل أن تتوجّه إلى المطبخ. أجلس على الكنبة وأنا أحسّ أنّ الجولة على الموتوسيكل قد قضت على التعب الذي كان يهدّني قبل مغادرة البيت. حين أشرع في خلع حذائي تقول ماري كلير وهي تعود إلى الصالون:

ـ لا تخلع حذاءك..

أتطلّع إليها باستغراب فتضيف وهي تنحني عليّ وتقبّلني على خدّي كأمّ تريد أن تقنع صغيرها بأمر لا يرغب فيه كثيرًا:

ـ هل تعتقد أنّ حدثًا كهذا سيمرّ هكذا؟

ـ أيّ حدث؟

ـ شراء الموتوسيكل..

تواصل بعد أن تطبع على خدّي قبلة أخرى:

ـ لابدّ أن نحتفل به.. وعلى أيّة حال ينبغي أن نخرج، فليس هناك ما يؤكل في البيت.. الثلاّجة فارغة تمامًا..

أسألها ونحن نتوجّه إلى الباب:

ـ إلى أيّ مطعم سنذهب؟

ـ مطعم مغربي. . وهو قريب جدًّا من البيت. .

وفي طريقنا إلى المطعم نمرّ بالموتوسيكل المركون أمام العمارة. تتوقّف ماري كلير أمامه. تتفحّصه طويلاً. وقبل أن نواصل سيرنا تنحني على السلسلة الحديديّة الغليظة التي تستعمل للحماية من السرقة لتتأكّد من أنّها قد ربطتها حول العجلة الخلفيّة بإحكام.

ـ ١٧ ـ

كلّ ما في المطعم الذي تعشّينا فيه رائع.

الاتساع الذي يشيع في النفس مزيجًا من الارتياح والطمأنينة. الديكور التقليدي المغربي. الموائد المستديرة التي يفصل بينها من المسافة ما يكفي لكي تتكلّم بصوت لا يشبه الهمس، من دون أن تشعر أنّ الزبائن يسمعون ما تقوله. موسيقى الملحون الهادئة. والأهمّ من كلّ ذلك الأطباق الشهيّة ثم الشاي الأخضر بالنعناع، الذي شرب كلانا منه ثلاث كؤوس آخرها كان هديّة من صاحب المطعم، الذي لم يكفّ طول الوقت الذي استغرقه العشاء عن الابتسام لنا وسؤالنا عمّا إذا كنّا راضين عمّا يقدّم لنا.

لا ينتابني ذلك الإحساس بالانزعاج الذي يستولي عليّ كلّما دخلت مطعمًا. منذ اللحظات الأولى أشعر أنّني في مكان مريح يختلف عن كلّ المطاعم التي قادتني إليها ماري كلير. فيما بعد يترسّخ لديّ هذا الإحساس حين نجلس إلى طاولة في أحد الأركان، قادنا إليها صاحب المطعم؛ ونلاحظ أنّها تقع في مكان ممتاز بعيد عن المدخل.. لكن باستطاعتنا أن نشاهد منه أغلب الطاولات.

كل شيء جاهز إذن لقضاء سهرة جميلة ستساعدنا بالتأكيد على الاقتراب من بعضنا بعضًا، في تلك الفترة التي كانت فيها ماري كلير شديدة الحساسيّة، وربّما في رأب ما بدأ يظهر من صدوع خفيفة في علاقتنا التي أحسّ أنّها بدأت تتغيّر وتفقد شيئًا من تلقائيّتها منذ الصباح الذي رفضتني فيه ماري كلير بقسوة.

كلّ شيء جاهز لولا هذه المرأة التي شاءت الصدفة أن تجلس قبالتي تمامًا في أقرب طاولة إلينا. حالما وقعت عيناي عليها تذكّرت اليونانيّة التي رأيتها قرب أحواض الغسيل وبيوت الاستحمام في الكامبينغ في كريت. . فهي تشبهها إلى حدّ بعيد.

لا يخامرني أدنى شكّ في أنّها عربيّة وتحديدًا مغاربيّة، بالرغم من أنّه ليس باستطاعتي من مكاني أن أتبيّن لهجتها. إلاّ أنّني لا أدري من أيّ بلد وإن كنت أميل إلى أنّها تونسيّة من منطقة داخليّة كمنطقة باجة أو منطقة القصرين. كانت تبتسم كثيرًا وتتطلّع في كلّ الاتجاهات. وبين وقت وآخر ترفع يدها لتسوّي شعرها كاشفة بذلك عن إبطها وما حوله، فقد كانت ترتدي بلوزة بلا أكمام مكشوفة الرقبة والكتفين، ممّا جعلني أميل إلى أنّ الرجل الذي يجلس قبالتها مديرًا لي ظهره ليس زوجها.

أنظر خلسة عدّة مرّات. ثمّ أكفّ عن ذلك. أتطلّع إلى الزبائن في الطاولات الأخرى وإلى الشارع محاولاً أن أنساها. أرقب حركة الندّل وهم يتنقّلون بين الطاولات. أتطلّع إلى الأطباق التي يحملونها. أطرح على ماري كلير أسئلة كثيرة عن الموتوسيكل

لدفعها إلى الكلام. لكن كل ذلك لم يكن مجديًا. أشعر أنّني منجذب إلى المرأة، ففي نظراتها وحركاتها ما يذكّرني بعهر يونانية الكامبينغ.

عندما تلاحظ أنّي أنظر إليها تتطلّع إليّ بدورها. تفعل ذلك خلسة مثلي. وأحيانًا تبتسم لي وهي تلتفت إلى الشارع. أردّ على ابتساماتها بحذر شديد في اللحظات التي تستدير فيها ماري كلير لتلقي نظرة على زبائن يدخلون المطعم أو يغادرونه، أو لتنادي نادلاً لطلب شيء ما، أو لتكتشف ما في صحون الجالسين إلى الطاولات القريبة كما يحلو لها أن تفعل في كلّ المطاعم التي اصطحبتني إليها.

تنهض المرأة فجأة دافعة كرسيها إلى الخلف بسرعة ممّا أحدث ضجيجًا لفت انتباه الجالسين حولها. وبحركة أنثويّة متكلّفة تمسك بحقيبتها اليدويّة التي على الطاولة وتستدير متوجّهة إلى المراحيض. أرقبها وهي تسير مستقيمة القامة بخطوات بطيئة إلى أن تختفي خلف الباب. وحالما أدير رأسي تسألني ماري كلير:

ـ أعجبتك؟

ـ من؟

ـ من!.. المرأة التي تتطلّع إليها.

تصيبني الدهشة. ينعقد لساني وأشعر بالحرج، ينضاف إليه

فيما بعد إحساس بالزهو. فهذه هي إحدى المرّات النادرة التي تبدو لي فيها ماري كلير بشكل لا يدع مجالاً للشكّ غيرانة من امرأة أخرى. وأزداد تأكّدًا من ذلك عندما تضيف في ما يشبه الشتيمة:

ـ إنّها قحبة..

لا أقتنع بما تقوله. لا أدري لماذا! كل ما أعرفه هو أنّ ثمّة شيئًا ما في أعماقي يقول لي إنّها ليست قحبة. إلاّ أنّني لا أجرؤ على فتح فمي. تواصل ماري كلير كما لو أنّها اكتشفت ما يدور في ذهني:

ـ حركاتها حركات قحبة.. نظراتها أيضًا..

تخرج المرأة من المراحيض.. وتعود إلى مكانها وهي تلتفت حولها. تركّز عليها ماري كلير نظرها كأنّها تريد أن تعرف أيّ امرأة هذه التي استطاعت أن تتحدّاها وتسرقني منها على مرأى الجميع!

ـ إنّها قحبة.. انظر كيف تتطلّع إلى الرجال.

ألتزم الصمت. تسكت ماري كلير بدورها. أدرك من نظراتها المباشرة والباردة، التي تلقيها عليّ بين وقت وآخر، أنّ سلوكي الذي فاجأها كثيرًا على ما يبدو، لا يولّد في نفسها إحساسًا بالاستياء فحسب وإنّما بالمهانة أيضًا ممّا يزيد في ارتباكي.

في تلك اللّحظات يعلن صاحب المطعم، بعد أن أوقف شريط

الملحون، عن حفل سيحييه مطرب وراقصة وصفهما بأنّهما كبيران ومشهوران، لكنّي لم أسمع باسميهما أبدًا من قبل.. بالرّغم من أنّني أستمع بين والحين والآخر إلى الإذاعات العربيّة، وأقرأ بشيء من الاهتمام والمتعة أخبار الفنّانين والفنّانات في ما تقع عليه يداي من صحف ومجلاّت مصوّرة عربيّة.

عندما يبدأ المطرب في الغناء تستدير ماري كلير بكامل جسدها في اتجاه المنصّة الصغيرة حيث الفرقة الموسيقيّة، وتشرع في الإصغاء وهي تحدّق فيه. وحين يتسارع إيقاع الأغنية تنضمّ إلى المصفّقين وتحرّك رأسها وتتمايل بجذعها بشكل يدلّ على أنّها تستمتع بما تسمع؛ وهو ما أستغربه قليلاً، إذ إنّي أعرف أنّها ليست من المعجبات بالموسيقى العربيّة التي تجدها مملّة وبطيئة.

وبالرّغم من أنّني لا أحبّ أيّ شيء لدى المطرب. لا صوته، لا شكله ولا حركاته.. ولا حتى ابتساماته، فإنّي أحاول أن أبدو مثل ماري كلير. حين تلتفت إليّ أصفّق وأحرّك كتفي وأهزّ رأسي كمن يستمتع، فكلّ ما أريده آنذاك هو أن أنسى المرأة أو على الأقلّ أتظاهر بأنّي مصمّم على نسيانها، وأن أفعل كلّ ما أعتقد أنّه يعجب ماري كلير لكي أساعدها على التغلّب على شعورها بالاستياء والمهانة.

يختفي المطرب بعد أدائه عدّة أغان لم تعجبني أيّة واحدة منها، إذ إنّها تنتمي كلّها إلى هذا النوع الرائج في الكابريهات والمطاعم. وتحلّ محلّه الراقصة التي تدخل الحلبة وسط عاصفة

من التصفيق وصيحات الإعجاب. تتابع ماري كلير المشهد باهتمام كبير. تردّ الراقصة على ترحيب الجمهور بطبع قبلات على يديها المفتوحتين وتوزيعها عليه بسخاء. ثمّ تشرع في الرقص.

وخلافًا لأغلب الراقصات اللاتي شاهدتهنّ في مناسبات مختلفة، فإنّها تثير إعجابي منذ اللّحظات الأولى. تبدو لي من مكاني جميلة، بل أعتقد أنّه من النادر أن شاهدت راقصة في جمالها. إلاّ أنّ ما أحببته فيها حقًّا هو طريقتها في الرقص، فهي تفعل كلّ ما تفعله الراقصات، لكن بأناقة وبدون أن تسفّ. ثمّة في حركاتها شيء من الحشمة والحياء يضفي عليها جمالاً خاصًّا.

لا تتوقّف ماري كلير عن الابتسام وهي تتطلّع إلى الراقصة وإلى رجلين لم يستطيعا أن يتغلّبا على ما يبدو على رغبتهما في الرّقص، فالتحقا بالحلبة وأخذا يرقصان حول الراقصة غير عابئين بنظرات صاحب المطعم الباردة، وبصيحات الاستنكار التي أطلقها بعض روّاد المطعم.

تدخل حلبة الرقص بعد وقت قصير امرأة فرنسيّة. تقترب من أحد الرجلين وتراقصه بطريقة تدلّ على أنّها تعرفه. تتشجّع نساء أخريات من بينهنّ المرأة التي تشبه يونانيّة الكامبينغ ويدخلن الحلبة. فجأة تنهض ماري كلير، وبدون أن تتفوّه بكلمة تلتحق بالجميع.

لا أتضايق من ذلك بالرّغم من أنّها ترقص بطريقة غريبة، لكن مثيرة. فأنا أعرف أنّها تعشق الرقص. أكثر من هذا أشعر بقليل

من الارتياح إذ إنّي لم أعدّ أحسّ أنّني محاصر ومراقب في نظراتي وحركاتي، ثمّ إنّي متأكّد من أنّ الرقص سيدخل شيئًا من الفرح على نفسها، ممّا يساعدها على نسيان حادثة المرأة وربما الخروج في ما بعد من تلك المرحلة الحرجة التي كنّا نمرّ بها.

تبذل ماري كلير جهدًا واضحًا ليكون رقصها شرقيًا. ألاحظ أنّها ترقب باستمرار الراقصة وتحاول أن تقلّدها في حركاتها ممّا يجعل طريقتها في الرقص أكثر غرابة، إذ إنّها لا تنجح في غالب الأحيان في القيام بتلك الحركات كما ينبغي. جسدها الذي لم يتدرّب على هذا النوع من الرقص لا يطاوعها. يرفض أن يستجيب لرغباتها. أشعر نحوها بقليل من الشفقة وأنا أراها تجاهد لكي تكون مثل النساء العربيّات. ويتعمّق هذا الإحساس حين أنتبه إلى أنّ بعض الجالسين إلى الموائد المجاورة يسخرون منها.

يقترب منها شاب عربيّ كان قد لفت انتباهي بأسلوبه في الرقص، الذي كان من الواضح أنّه يريده أن يكون رجوليًا إلى أبعد حدّ ممكن. يميل عليها ويبتسم لها. ولكن بدلاً من أن تبتعد عنه كما تفعل كل النساء اللاتي حام حولهنّ تبقى في مكانها. أكثر من هذا تردّ على ابتسامته بابتسامة عريضة. وحين يتجرّأ ويشرع في مراقصتها وعيناه مثبّتتان على جسدها تستجيب له بسهولة.

إلاّ أنّ ما يؤلمني حقًّا هو أنّه حين يمسك بيدها تزداد اقترابًا

منه حتى تكاد تلتصق به. وفي خطوة أكثر جرأة يضع الشابّ يده على ظهرها فتستسلم له. بين وقت وآخر تلقي عليّ نظرة جعلتني أدرك أنّها تفعل كلّ ذلك عمدًا لإغاظتي. أكتشف آنذاك أنّ إحساسها بالاستياء والمهانة كان أعمق ممّا كنت أتصوّر.

لا أُبدي أيّ ملاحظة على سلوكها عندما تعود إلى مكانها. تسألني إن كنت وجدت متعة في ما شاهدته. أهزّ رأسي بالإيجاب. أشعر برغبة قويّة في النظر إلى المرأة التي تشبه يونانيّة الكامبينغ قبل أن نغادر المطعم. لكنّي أصمّم على ألاّ أفعل ذلك. نسير في تمهّل صامتين إلى أن نصل إلى عمارتنا. تقترب ماري كلير من الموتوسيكل لتتفحّص السلسلة الحديديّة، ثمّ تمرّر يدها بحنو على المقعد وتسألني:

ـ إنّه جميل.. أليس كذلك؟

لكنّي لا أردّ على سؤالها.

ـ ١٨ ـ

لا أخفي أنّني شعرت بشيء من الفرح عندما أعلمتني ماري كلير بمرض أمّها وقرارها بالسفر إلى الريف. ليس لأنّها ستغيب أسبوعًا كاملاً عن البيت فحسب وإنّما أيضًا لأنّها ستقضي وقتًا طويلاً برفقة أمّها، التي لم تزرها منذ أكثر من عامين ممّا سيمكّنهما بالتأكيد من الاقتراب من بعضهما بعضًا، وتعميق التفاهم بينهما، وهو ما كنت أتمنّاه في سرّي لأنّي أشعر دائمًا أنّ هناك خللاً ما في علاقتهما.

إنّها المرّة الأولى التي تغيب فيها ماري كلير عن البيت أسبوعًا بأكمله منذ أن عرفتها. وهي المرّة الأولى أيضًا التي تقضي فيها كل هذه المدّة برفقة أمّها في الريف منذ وفاة أبيها. في البداية لم تتحمّس للسفر. وفيما بعد حاولت أن تختصر الزيارة. لكن أمّها ألحّت عليها خلافًا للعادة. تلفنت لها عدّة مرّات وفي أوقات مختلفة في فترة وجيزة، ونجحت في إقناعها بأنّ حالتها الصحيّة التي ساءت فجأة تستوجب حضورها في البيت لمدّة أسبوع كامل على الأقلّ.

أنتهز هذه الفرصة التي لم أكن أنتظرها إطلاقًا لأستعيد إيقاع

حياتي السابق. أعود مؤقّتًا إلى فوضاي القديمة، وأستسلم للكسل والخمول والتراخي. منذ وقت طويل لم تتح لي إمكانية أن أعيش وحيدًا في البيت لأفعل ما أشاء ومتى أشاء بدون أن أشعر أنّ هناك من يراقبني. منذ وقت طويل لم أعرف عزلة كتلك التي كنت أمرّ بها بين حين وآخر قبل تعرّفي على ماري كلير. لذلك أحرص كثيرًا على أن أعيشها بعمق لأستفيد منها وألتذّ بها قدر الإمكان.

تمضي أيّام الأسبوع الأولى بطيئة وهادئة. أقضي أغلب الوقت الذي لا أشتغل فيه في البيت. مزاجي رائق. ولا شيء يشوّش الذهن ويشغل البال. لا غضب ولا توتّر. لا كلام ولا نقاش ولا خصام. لا شيء سوى الصمت والهدوء. حتى فعل التذكّر الذي أنخرط فيه أحيانًا في مثل هذه الحالات لا أستسلم له خوفًا من أن يجرّني إلى أحاسيس وأفكار قد تفسد عليّ خلوتي.

لا يخامرني أدنى شكّ في أنّني سأقضي كلّ أيّام الأسبوع في هذه الحالة من الهدوء والصفاء والانتشاء بالعزلة. إلاّ أنّني أكتشف في صباح اليوم الرابع أنّي مخطئ تمامًا، وأنّه لا شيء أكثر غموضًا وتعقيدًا وتقلّبًا من علاقة حبّ بين رجل وامرأة! ففي اللّحظة التي أستيقظ فيها أنتبه إلى أنّ صورة ماري كلير تستولي على ذهني. أحاول أن أطردها مستعينًا بالتفكير في أشياء هامّة لكنّي لا أستطيع. بعد وقت قصير أفاجأ بإحساس يبدو لي غريبًا للوهلة الأولى، وهو أنّي أفتقد ماري كلير وأشعر بشوق حقيقي إليها.

في اليوم الخامس يتفاقم إحساسي بالفقد. حين أفيق من النوم وأمدّ يدي فتقع على مكانها الخالي البارد أشعر أنّ شوقي إليها يبلغ ذروته. أدرك عندئذ بشيء من الاستغراب كم هو هامّ حضورها في البيت، وكم أنا في حاجة إليها!

وفي محاولة للتحرّر من أسر هذه الأحاسيس، التي لا أدري كيف تولّدت في نفسي أو للتخفيف من وطأتها الشديدة، أنهمك في قراءة شعر الصعاليك الذين أفضّلهم بصوت عال. أستمع إلى أغلب ما لديّ من الأغاني العربيّة. أردّ على رسائل استلمتها منذ زمن طويل وأهملتها، ومن بينها رسالة طويلة من أختي تنتقدني فيها بعنف لأنّ المبلغ المالي الذي أرسلته لها لترميم قبر أمّي الذي كادت تحمله السيول في الفيضانات الأخيرة غير كاف. أغادر البيت وأقوم بجولات طويلة سيرًا على القدمين، يتطلّع إليّ خلالها بعض المارّة لأنّي أتكلّم وحدي بصوت عال أحيانًا.

قبل عودتها بيوم واحد يستعصي عليّ النوم في اللّيل. صورتها لا تريد أن تفارقني. سواء أشعلت الضوء أم أطفأته لتغرق غرفة النوم في الظلام. سواء أغمضت عينيّ أم فتحتهما لأركّز بصري على كل ما يحيط بي. الغريب أنّي أشعر أنّه كلّما ازدادت هذه الصورة حضورًا في الذهن تباعد وجهها وصارت قسماته وملامحه الدقيقة أقلّ وضوحًا، حتى أنّه يخيّل إليّ في لحظة ما أنّه لم يتبقّ من وجهها الحقيقي، في ما كانت تستعيده الذاكرة آنذاك، سوى الشيء القليل.

ليست هذه المرّة الأولى التي أجد فيها نفسي عاجزًا عن تذكّر وجه أليف. فقد حدث لي ذلك عدّة مرّات ومع وجوه شديدة الاختلاف. في العادة أصرف اهتمامي لأشياء أخرى لكي أتمكّن من نسيان الوجه تمامًا وطرد صورته من الذهن. وحين أعود إليه بعد وقت محدّد تنجح الذاكرة في استعادته كاملاً بأغلب تفاصيله الدقيقة. لكن هذه المرّة لا أستطيع.. لأنّ صورة ماري كلير لا تريد أن تفارقني ولو للحظة واحدة.

أندفع خارجًا من الفراش وأنا أتطلّع حولي. لكن لا صورة لماري كلير. لا على الطاولة الصغيرة بالقرب من السرير، ولا على أحد رفوف المكتبة. لا على جهاز الستيريو ولا على الخزانة الصغيرة الواطئة التي في مدخل الشقّة، إذ إنّ ماري كلير تكره مثلي أن تكبّر صورها وتضعها في إطارات جميلة توزّعها على أمكنة عديدة في الشقّة مثلما يفعل الكثيرون، خصوصًا أنّها لا تجد نفسها جميلة في هذه الصور، فهي تعتقد خلافًا لما أرى ويرى أغلب الذين يعرفونها أنّ وجهها غير ملائم للتصوير.

المكان الوحيد في كلّ الشقة الذي توجد فيه صور لماري كلير هو ما درجنا على تسميته تندّرًا بِ «الخزنة». وهو عبارة عن ثلاث علب من الكرتون لها اللون والحجم نفسه مخبّأة في الدرج الأخير للخزانة الصغيرة التي في مدخل الشقّة. منذ اليوم الذي استقرّت فيه ماري كلير في شقّتي فهمت أنّ «الخزنة» شيء محرّم عليّ، ولا يجوز بأيّ حال من الأحوال التفتيش في محتوياتها وحتى مجرّد فتحها.. فماري كلير شديدة الحرص على أن يظلّ

لها في البيت، بالرّغم من أنّنا نعيش تحت سقفه الواحد، مكان ما. مكان لها وحدها لا يحقّ لي أن أدخله. مكان سرّي ومغلق يمكّنها من أن تحافظ على حميميّتها، إذ أيّة قيمة للحياة وأيّة نكهة لها ـ تقول دائمًا ـ إذا خلت من الحميميّة؟

إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ ماري كلير تتكتّم على محتويات خزنتها فقد حدّثتني عنها منذ البداية. رسائل وصور وأشياء مختلفة أغلبها يعود إلى طفولتها ومراهقتها، بل وأرتني صورة التقطت لها وهي ترتدي ثياب راهبة في يوم تناولها القربان والسلسلة الذهبيّة الصغيرة التي أهديت لها في هذه المناسبة. كلّ ما في الأمر هو أنّها لا تريدني أن أقتحم عالمها السرّي وأدسّ أنفي في أشيائها الحميميّة.

أعرف كلّ هذا وأعيه تمام الوعي، لكنّ الرغبة اللعينة التي تستولي عليّ أشدّ من أن تقاوم، خصوصًا في تلك اللحظات الملتبسة الحرجة الفاصلة بين النوم واليقظة. والذي يجعلني أحسم الأمر بسرعة للقيام بالخطوة التي لم أجرؤ على القيام بها أبدًا من قبل هو تصميمي على القيام إلاّ بما هو ضروري. فما يهمّني هو شيء واحد فقط: أن أعثر بأكبر سرعة ممكنة وبأقلّ ما يمكن من التقليب على أحدث صورة لماري كلير.

أتقدّم من الخزانة وأفتح الدرج الأخير آملاً أن أعثر على ضالّتي في العلبة الأولى، ممّا سيخفّف عنّي بالتأكيد الإحساس بالذنب الذي بدأ ينتابني منذ أن رأيت العلب الثلاث وقد رتّبت

بعناية الواحدة فوق الأخرى في أحد أركان الدرج. وهذا ما حدث لحسن الحظّ. فأوّل شيء تقع عليه عيناي بعد أن أزحت الغطاء عن العلبة هو ألبوم صغير يدلّ شكله والرسوم على غلافه أنّه قديم. أفتحه بلهفة وأشرع في تقليب صفحاته. ثمّة صور لأمّها ولها وحيدة أو برفقة أبيها أو أمّها أو الاثنين معًا عندما كانت طفلة أو رضيعًا. هناك أيضًا صور قليلة لعجائز خمّنت أنّهم أجداد أو جدّات. إلاّ أنّ أكثر الصور كانت لأبيها. بعضها قديم ويبدو فيها شابًّا وسيمًا وسعيدًا، ومن بينها واحدة يرتدي فيها الزيّ العسكري؛ وتدلّ المشاهد التي تحيط به أنّها التقطت له في مكان ما في الجزائر.

لا أعثر على صورة حديثة لماري كلير إلاّ في الصفحات الأخيرة من الألبوم. أخرجها ببطء وحذر من تحت الورق الشفّاف. وبعد أن أجلس على الكنبة وأشعل ضوء الأباجورة أضعها على ركبتي وأشرع في تأمّل الوجه، كما لو أنّي لم أره أبدًا من قبل. وللمرّة الأولى أدرك أنّ ماري كلير محقّة في ما تقوله دائمًا عن صورها.. فهي فعلاً أكثر جمالاً في الواقع.

عندما أملّ تأمّل الصورة أعيدها إلى مكانها. وفي اللحظة التي أغلق فيها الألبوم تقع عيناي على شيء لم أره منذ حين لمّا أخرجت صورة ماري كلير. شيء يحدث في نفسي اضطرابًا منذ أن تطلّعت إليه بقليل من الاهتمام. صورة صغيرة يبدو أنّها انتزعت من بطاقة هويّة، لأنّها لا تزال تحمل في أحد أطرافها آثارًا واضحة لختم قديم.

لا يخامرني أدنى شكّ في أنّها للاديسلاس أوّل شخص أحبّته ماري كلير. يبدو في الصورة طفلاً وديعًا، إلاّ أنّني لا أجده جميلاً بالرغم من أنّ وجهه يمتلك شيئًا من الجاذبيّة والسحر. أحدّق في شفتيه الرقيقتين اللتين يزمّهما بطريقة من لم يتعوّد الوقوف أمام كاميرا. وحين أتذكّر أنّه قبّل بهما عدّة مرّات شفتي ماري كلير الشهيّتين يستيقظ فيّ من جديد الإحساس بالغيرة.

أشعر أنّني بليد وأحمق. وينتابني إحساس موجع بالاحتقار لنفسي، إذ كيف يمكن أن أغار من طفل وديع كهذا. . لست متأكّدًا من أنّه قادر على أن يمخّط أنفه بشكل جيّد، لأنّه قبّل ماري كلير منذ أعوام طويلة في قبو مليء بالفئران؟

أعيد الألبوم إلى العلبة. يتناهى إلى سمعي وأنا أنحني على العلب الثلاث لأرتّبها بعناية صوت غريب كأنّه تكتكة. أزداد انحناء على الدرج فيزداد الصوت وضوحًا. أدفع العلب جانبًا فأنتبه إلى أنّ ما كنت أعتبره قعر الدرج ليس سوى طبقة سميكة من الكرتون. أزيحها بسرعة فتصيبني الدهشة. ساعات يدويّة من كل الأنواع والأشكال متراكمة في قعر الدرج. ثلاث وعشرون ساعة بالضبط. أعرف أنّ ماري كلير تحبّ الساعات اليدويّة مثلما تحبّ الأحذية التي تمتلك منها الكثير. لكنّي لم أكن أتصوّر أنّ لها كلّ هذا العدد من الساعات، وخصوصًا أنّها تحتفظ بساعات أغلبها معطوبة أو قديمة جدًّا لن تلبسها أبدًا، تمامًا مثل أمّها التي تحتفظ بقوارير الشامبانيا الفارغة وورق لفّ الهدايا الصقيل اللامع.

تتضاعف دهشتي حين أفتح العلبة الصغيرة المستديرة المصنوعة من الخزف الصيني المخبّأة بين الساعات وأكتشف أنّها مليئة بخواتم وأقراط وأساور وعقود. . فماري كلير ليست من النساء اللاتي يعشقن الحلي، ونادرًا ما شاهدت خاتمًا في إصبعها أو قرطًا في أذنها.

أغلق الدرج وأعود إلى غرفة النوم. أندسّ في الفراش وأغمض عيني. لكن صورة لاديسلاس بشفتيه الرقيقتين المزمومتين تستحوذ على ذهني. وبدلاً من أن تنسيني ماري كلير تؤجّج شوقي إليها، فيبلغ من جديد ذروته بعد أن خفّ أثناء تأمّل صورتها والتفتيش في علبها. أكثر من هذا تتملّكني رغبة جامحة في سماع صوتها في تلك اللحظات.

أنظر في ساعة المنبّه. الوقت ليس متأخّرًا خلافًا لما كنت أتصوّر. أكيد أنّ ماري كلير لا تزال في الصالون وأنّها لم تذهب بعد إلى غرفة النوم. ولكنّ المشكلة هي أنّي لا أريد أن تعرف أنّي مشتاق إليها إلى هذا الحدّ. وحتى لو وجدت سببًا مقنعًا لمخابرتها في مثل هذا الوقت فإنّ صوتي سيفضحني، ثم إنّها ستدرك ذلك بحدسها الأنثويّ.

بعد تردّد طويل ومضنٍ أترك الفراش متوجّهًا إلى الصالون. لا أشعل الضوء كما لو أنّي لا أريد أن أرى التلفون، كما لو أنّي لا أريد أن أرى يدي وهي تمتدّ إليه، كما لو أنّ الظلام يساعدني على تحمّل ما لم أعد قادرًا على مقاومته. لا أجلس كما أفعل

عادة عندما أتلفن. أظلّ واقفًا مثل عمود مهمل، وبحركة سريعة أرفع السمّاعة وأنا أنحني على طاولة التلفون. أدير الرّقم. وأتوقّف حتى عن التنفّس. ألو.. ألو.. من على الخط؟.. ألو.. لا أردّ. أبعد السمّاعة عن أذني لأنّي لم أعد قادرًا على سماع صوتها.. ثمّ أتهالك على الكنبة.

ـ ١٩ ـ

أدرك منذ اللحظة التي التقت فيها نظراتنا أنّها تعرف أنّني أنا الذي تلفنت لها البارحة من دون أن أجرؤ على الكلام. لكن خلافًا لما كنت أتوقّع تبدو لي غير مستاءة أو منزعجة بل لطيفة إلى حدّ ما. هل استنتجت من صمتي الغريب في التلفون، وخصوصًا من حفاوة الاستقبال التي لم أفلح في إخفائها، أنّني مشتاق إليها وأنّي لا أزال متعلّقًا بها رغم كلّ ما طرأ على علاقتنا منذ ذلك الصباح الذي رفضتني فيه بقسوة؟ هل مكّنها البعد من أن تنتبه إلى ما في تصرّفاتها الأخيرة من لامبالاة وجفاء وإهمال وتجاهل؟ هل ساعدها السفر على أن ترى الأشياء بوضوح وبشكل مختلف، أم أنّ قضاء أسبوع كامل في قرية نائية في عمق الريف وبرفقة أمّها أراح أعصابها إلى الحدّ الذي جعلها تعود إلى سلوكها القديم؟

كلّ ما أدري هو أنّ هذا الغياب يعيد إليّ ماري كلير الحقيقيّة. ماري كلير الرقيقة البريئة التلقائيّة. بعد فترة طويلة وفي ظرف دقيق صار باستطاعتي أن أرى من جديد ذلك الوجه المريح الذي يشعّ منه مزيج من الألفة والعفويّة والهدوء. والغريب أنّ كلّ ذلك يحدث بسهولة لم أكن أتصوّرها حتى في الحلم. كأنّنا لم

نتخاصم أبدًا، أو كأنّنا كنّا على اتفاق مسبق على أن ننسى فجأة ودفعة واحدة كلّ الذي باعد بيننا في الأشهر الأخيرة.

ـ تعال..

تقول ماري كلير وهي تمسك بيدي وتجرّني إلى الطاولة التي كدّست عليها أكياسها.

ـ انظر ماذا جلبت من الريف..

تضيف بشيء من الزهو قبل أن تشرع في تفريغ الأكياس وتكديس محتوياتها على الطاولة:

ـ كلّ هذا هدايا من جيران أمّي المزارعين..

خضر. أجبان. سجق. بيض. مقانق. مربّى كرز وسفرجل. لحم خنزير مفروم. لحم أرنب مطبوخ. حقّ خردل. تنقل ماري كلير بصرها بيني وبين الطاولة وهي لا تكفّ عن الابتسام. أبتسم بدوري وأتطلّع باهتمام إلى ما جلبته من الريف، وأنا أهزّ رأسي إعجابًا لأشاركها فرحها.

ـ لم أكن أتصوّر أنّ المزارعين لطفاء إلى هذا الحدّ!

تردّد وهي ترفع بعض الأجبان إلى أنفها لتشمّها. أشعر برغبة في أن أفعل مثلها. إلاّ أنّني لا أشمّ الجبن وإنّما حبّة بطاطا لفتت نظري بشكلها وحجمها الضخم. فجأة تضع الأجبان على الطاولة، وتقول وهي تنحني على الكيس الكبير الذي لا يزال مفتوحًا:

ـ نسيت. . هناك شيء آخر جلبته من الريف.

تخرج باقة أزهار كبيرة. تزيل عنها الورق الذي يلفّها. وتقرّبها من أنفي.

ـ شمّ هذه الرائحة. .

أدسّ أنفي في الباقة وأستنشق بعمق الرائحة الشذيّة وأنا أغمض عيني تعبيرًا عن تمتّعي بذلك.

ـ هل تعرف هذه الرائحة؟

أحرّك رأسي بالإيجاب من دون أن أتوقّف عن الاستنشاق. تسألني ماري كلير بلهجة من يمتحن تلميذًا؟

ـ رائحة ماذا؟

لا يخامرني أدنى شكّ في أنّي شممت هذه الرائحة عدّة مرّات. لكنّي أعجز عن الإجابة. أفتح عيني وأشرع في تأمّل الأزهار موحيًا بأنّ ذلك سيساعدني على معرفة اسمها. في الحقيقة كنت أغالط نفسي وماري كلير معي، فأنا على يقين من أنّني لن أعثر على الاسم حتى لو أمضيت ساعة كاملة في تأمّل الأزهار، لأنّ معرفتي بأسماء النباتات والأشجار والزهور ضحلة تمامًا مثل معرفتي بأسماء الطيور والحشرات والحيوانات غير المألوفة.

ـ أزهار ليلك. .

تقول ماري كلير قبل أن تضيف وهي تنحني عليّ مقرّبة صدرها من وجهي:

ـ قطفتها من شجرة في حديقة أمّي.

أنتبه إلى أنّ رائحة الليلك قد تحوّلت إلى رائحة أخرى. ثمّة في الهواء شيء ما يخالطها ويمتزج بها. أكتشف وأنا أتشمّم ما حولي أنّها رائحة ماري كلير. من النادر أن أحسّها قويّة إلى هذا الحدّ. ربّما لم تغتسل جيّدًا هذا الصباح. وربما عرقت أكثر من المعتاد وهي تحمل أمتعتها وأكياسها. إلاّ أنّ أنفي المستنفز منذ أن كدّست ماري كلير ما جلبته من الريف على الطاولة لا يستهجن هذا المزيج العجيب من رائحة الليلك ورائحة جسد أنثى يرشح عرقًا، بل يجده لذيذًا وأكثر من هذا مهيّجًا ومثيرًا للشهوة.

تضع ماري كلير الليلك في مزهريّة من الخزف كنت أهديتها إيّاها منذ فترة طويلة. أذكر وأنا أراها تسوّي الزهور كما تفعل مع نباتاتها ثم تضع المزهريّة على أحد رفوف المكتبة، أنّها أعجبت بها كثيرًا. وهي لا تزال تعتبرها أجمل شيء من تونس أهديتها إيّاه. وقد لاحظت في الأشهر الأخيرة أنّها لا تضع فيها زهورًا إلاّ حين تكون سعيدة وفرحة بي.

في بضع دقائق تضع ماري كلير حدًّا للفوضى التي أحدثتها في الصالون منذ قدومها. ترتّب كلّ شيء وتضعه في مكانه. ولا تترك على الطاولة إلاّ قليلاً من اللّحم والأجبان التي جلبتها من الريف لطعام العشاء الذي تريده ريفيًّا كما تقول في تلك الليلة.

نجلس إلى الطاولة متقاربين. لا نستعمل صحونًا ولا شوكات ولا ملاعق ولا سكاكين. تفتح ماري كلير قنّينة نبيذ. وبحركة بطيئة تخرج من جيبها سكّينًا صغيرة ورثتها عن أبيها. وتشرع في قطع السجق والمقانق إلى شرائح مستديرة تناولني بعضها وتلتهم البعض الآخر بشهيّة واضحة.

لا أشعر بأيّة رغبة في الأكل في مثل ذلك الوقت، ثمّ إنّي لا أستسيغ لحم الخنزير خصوصًا المقانق بكلّ أنواعها. ومع ذلك لا أرفض أيّ شيء من كلّ ما تقدّمه لي ماري كلير. شيئًا فشيئًا وبعد بضع جرعات من النبيذ صرت بدوري ألتهم شرائح لحم الخنزير بشهيّة لفتت نظر ماري كلير التي أخذت ترقبني بإعجاب وذهول في آن واحد. لم يحدث أن أكلت من لحم الخنزير بمختلف أنواعه طوال الأعوام التي أمضيتها في تلك المدينة مثلما فعلت في تلك اللّيلة.

حين ننتهي من الأكل تتمدّد ماري كلير على الكنبة. تغمض عينيها وتصمت. لا أتحرّك. أظلّ ساكنًا في مكاني لكي لا أسبّب لها أيّ إزعاج. بعد لحظات طويلة تشرع في الكلام بدون أن تفتح عينيها وبدون أن تقوم بأيّة حركة. تتحدّث قليلاً عن مرض أمّها الذي قد يودي بحياتها. ألاحظ أنّها لم تذكر اسمه. يخطر ببالي أن أسألها عنه، غير أنّني لا أفعل. وفيما بعد تتحدّث عن القرية التي أمضت فيها أسبوعًا كاملاً. بيوتها القديمة. سكّانها المزارعين. حقولها الواسعة. إيقاع الحياة فيها..

فجأة تستلقي على جنبها مستديرة إليّ. تسألني وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة لم أرتح لها:

ـ وأنت ماذا فعلت طوال هذا الأسبوع؟

ـ اشتغلت في الفندق كالعادة.. ودرّست في الجامعة.

وبعد قليل، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أضيف بصوت مرتبك:

ـ وانتظرتك أيضًا..

ـ انتظرتني؟

ـ نعم.

ـ طوال الأسبوع؟

لا أدري بماذا أجيب فأكتفي بهزّة غامضة من رأسي. أحسّ أنّ ما قلته لها قد أدخل قليلاً من البهجة إلى قلبها. ومع ذلك لا أجد ما يكفي من الجرأة لمواجهة نظرتها الجامدة المركّزة على وجهي. أنهض وأتوجّه إلى النافذة بحثًا عن شجرة الدلب التي تحاصرها العمارات.

ـ أنا أيضًا اشتقت إليك..

أستدير إليها، فإذا بها تتقلّب على الكنبة عائدة إلى وضعها السابق، ثم تصمت من جديد. أحدّق للحظة في الظلام، لكنّي لا

أتبيّن شيئًا من شجرة الدلب. أعود إلى الطاولة. أجمع ما بقي من الطعام ثمّ أتوجّه إلى المطبخ لأضعه في الثلاّجة.

حين أعود إلى الصالون أجد أنّ ماري كلير قد خلعت كلّ ملابسها وتمدّدت عارية على الكنبة. تبتسم عندما تراني أقترب منها وأشرع بدوري في خلع ثيابي. تنزلق إلى الخلف مفسحة لي المجال حتى أتمدّد بجوارها. تمدّ ذراعها لأتوسّدها. وتقرّب رأسها من رأسي حتى تكاد تلامسه. تنظر إلى وجهي طويلاً وعلى شفتيها ما يشبه الابتسام. ثمّ تشرع في تقبيلي.

لم نغادر الكنبة حتى الصباح. لم ننم أيضًا كما لو أنّنا كنّا نخشى إن نمنا قليلاً أن نضيّع تلك الأحاسيس اللذيذة النادرة التي لم نعرفها منذ فترة طويلة. لم نتكلّم كثيرًا. كانت النظرات والابتسامات والملامسات والمداعبات أبلغ من الكلام. وفي الصباح أعدّت ماري كلير فطورًا شهيًّا تناولناه بتأنٍّ وتلذّذ تمامًا كما كنّا نفعل في بداية علاقتنا.

إلاّ أنّ كلّ هذا لم يستمرّ طويلاً. كان مثل حلم قصير رائع. كان مثل التوهّج الشديد الذي يلهب الجمرة قبل أن تنطفئ إلى الأبد. فبعد أيّام قليلة تسلّلت الرتابة من جديد إلى حياتنا. عدنا إلى الخصام لأسباب تافهة في غالب الأحيان. وشيئًا فشيئًا عاد الجفاء واللامبالاة. وللمرّة الأولى أخذت أتساءل عمّا إذا كنت لا أزال أحبّ ماري كلير وعمّا إذا كانت هي أيضًا لا تزال تحبّني!

- ٢٠ -

منذ فترة طويلة لم ألمس ماري كلير. ليس لأنّها ترفضني وهو ما يحدث في بعض الأحيان، وأتحمّله بشيء من الصبر والحكمة، وإنّما لأنّي لم أعد أطيق هذا التعبير الذي صار يطلّ من عينيها كلّما اقتربت منها. كأنّها تقول لي وهي تقدّم لي جسدها باردًا خذني إن شئت، لن أمانع، لكن لن تنال منّي شيئًا لأنّي لن أعطيك شيئًا. ومع ذلك فأنا لم أقرّر الذهاب إلى هناك. وكل ما حدث كان مجرّد صدفة.

أغادر الفندق. ولكن بدلاً من أن أعود إلى البيت أسير على مهل متنقّلاً من شارع إلى آخر غير عابئ بالاتجاه الذي أمشي فيه. لم يكن لديّ مكان أودّ الذهاب إليه. كلّ ما أريده هو ألاّ أعود إلى البيت في مثل تلك الساعة، وأن أرجئ ذلك إلى أبعد وقت ممكن لكي لا أرى ماري كلير. . فأنا لا أشعر بأيّة رغبة بلقائها أو التحدّث إليها، أو حتى مجرّد التطلّع إلى وجهها بسبب ما لاحظته البارحة في كلامها من استهزاء وعدوانيّة.

لا أدري كيف وصلت إلى هناك. قدماي هما اللّتان قادتاني إلى المكان الذي لم يسبق أبدًا أن فكّرت في التوجّه إليه، حتى

في أشدّ الفترات صعوبة. لا أذكر حتى أسماء الشوارع والميادين التي عبرتها. كلّ ما أعرفه هو أنّني وجدت نفسي فجأة في «سان دوني» شارع الموسات. أمامهنّ. وجهًا لوجه.

أبتسم وأنا أتطلّع إليهنّ. يبدو لي الموقف الذي أجد فيه نفسي محرجًا في البداية. فأنا لم أر منذ فترة طويلة مومسات من هذا النوع، لأنّي لم أضع قدمي في ماخور منذ أن صرت أقيم في هذه المدينة. أتغلّب على إحساسي بالحرج والارتباك فيما بعد. وشيئًا فشيئًا تستيقظ فيّ شهوة غريبة إلى هذه الأجساد التي تنتصب على رصيفي الشارع أمام مداخل العمارات عارضة نفسها على العابرين. شهوة إلى اللّحم العربي يخالطها شيء من الحنين إلى ما كنت أتردّد عليه من مواخير في بداية شبابي.

أتمشّى حتى نهاية الشارع على الرصيف نفسه. ثم أعود أدراجي بعد أن أنتقل إلى الرصيف الآخر. الحركة في مثل تلك الساعة على أشدّها. وأغلب المقاهي والمطاعم المفتوحة تغصّ بالروّاد. السيّارات التي تسير ببطء شديد تتوقّف بين وقت وآخر ليتفرّج سائقوها على مهل على الأجساد المعروضة. والأصوات التي ترتفع من كلّ الأمكنة تختلط بروائح الأطعمة والعطور والعرق والبول والتبغ والكحول. ثمّة أجانب كثيرون بعيون واسعة لامعة تنضح شهوة. بعضهم ينتصبون أمام مداخل العمارات ويتطلّعون طويلاً إلى بغايا من كلّ الأنواع والأجناس، وجوههنّ مطليّة بمساحيق تلتمع تحت الأضواء وملابسهنّ الخفيفة الشفّافة لا تخفي إلاّ القليل من أجسادهنّ.

أتوقّف في بداية الشارع. أظلّ للحظات طويلة في مكاني أنظر في شرود إلى المارّة. لا أدري ماذا ينبغي أن أفعل. هل ألبّي نداء الشهوة وأستجيب لهذه الرغبة التي لم تتناقص، بالرغم ممّا شاهدته من أجساد مترهّلة منهكة وما سمعته من كلمات بذيئة فاحشة، أم أغادر المكان على الفور كما يأمرني عقلي؟

ألاحظ في التفاتة سريعة إلى الخلف أنّ رجلاً يقف على بعد خطوة واحدة منّي. حين تلتقي نظراتنا يبتسم لي فأردّ على ابتسامته بشكل تلقائي، وأشرع من جديد في النظر إلى المارّة. لكنّي أفاجأ به بعد لحظة منتصبًا بجانبي. يبتسم لي مرّة أخرى. أفهم من ابتسامته لي هذه المرّة أنّه يريد أن يطلب منّي شيئًا ما فأستدير إليه مبديًا استعدادي لمساعدته. يقرّب رأسه منّي ببطء ويسألني بصوت واطئ:

ـ تمصّ؟

لا أفهم سؤاله. يخيّل إليّ أنّي لم أسمع جيّدًا ما قاله.

ـ أمصّ؟ . . أمصّ ماذا؟

يركّز نظره على وجهي. فجأة يخرج لسانه ويمرّره على شفتيه. ثم يقول بصوت فيه دلال وغنج قبل أن ينصرف:

ـ خسارة أنّك لا تمصّ. . أنا أمصّ جيّدًا.

أفهم كلّ شيء، وأنا أراه يبتعد محرّكًا مؤخّرته بشكل يلفت الانتباه. يعبر الشارع ثمّ يقف على الرصيف المقابل مستندًا إلى

أحد الأعمدة. أحيانًا يرفع يده بحركة بطيئة أنثويّة إلى رأسه ويداعب خصلات شعره، وهو ينظر إليّ بشكل يدلّ على أنّه لم ييأس منّي تمامًا.

أقول لنفسي وأنا أغادر المكان لا شيء ينقصني في هذه اللّيلة سوى أن أمارس الجنس مع مخنّث. بعد بضع خطوات أجد نفسي من جديد أمام مومسات سان دوني. لم أقرّر أن ألبّي نداء الشهوة مخالفًا ما يأمرني به عقلي. غريزتي العميقة هي التي قرّرت بدلاً منّي. انتهزت بالتأكيد فرصة انشغالي بالمخنّث وقادتني بسهولة إلى هناك.

أقوم بجولة ثانية في الشارع بحثًا عن مومسات عربيّات هذه المرّة. لا أجد صعوبة في العثور عليهنّ معتمدًا في ذلك ليس على ملامح وجوههنّ فقط وإنّما أيضًا على الطريقة التي يتكلّمن بها الفرنسيّة، أو على ما يفلت أحيانًا من أفواههنّ من كلام عربيّ وهو في معظمه كلمات بذيئة وشتائم خفيفة تضحك الزبائن وتجذبهم أكثر ممّا تنفّرهم منهنّ.

بعد تفحّص دقيق للأجساد والوجوه ومقارنات طويلة بينها أحسم أمري. أتقدّم بخطوات ثابتة من واحدة في الأربعين لا تكفّ عن التدخين وغمز الذين يتطلّعون إليها تمامًا كما تفعل القحاب في المواخير الشعبيّة. مغربيّة معتدلة القامة عريضة الصدر، لها نهدان ضخمان وردفان ممتلئان وثلاث أسنان ذهبيّة تلتمع على ضوء فوانيس الشارع كلّما انفتح فمها.

ليس جسدها الممتلئ هو الذي جعلني أختارها، فهناك أجساد كثيرة مثل جسدها وبعضها أكثر تناسقًا وإثارة، وإنّما بشرتها السمراء وخصوصًا وجهها البدوي وهذا الوشم الذي على جبينها. منذ فترة طويلة لم أشاهد وجهًا كهذا، ولم أكن أتوقّع أن أراه في مثل هذا المكان.. لأنّي لم أكن أتصوّر أنّ هناك مومسات عربيّات من هذا النوع في سان دوني.

ـ زارتنا البركة..

تقول لي حين أبتسم لها مؤكّدًا بذلك أنّي أريدها هي وليس زميلتها التي تقف بجوارها. تسألني إن كان لديّ كثير من الدراهم. أهزّ رأسي بالإيجاب عدّة مرّات لكي تطمئنّ. تتفحّصني من قمّة رأسي إلى أخمص قدمي كأنّها تريد أن تعرف من خلال شكلي وملابسي أيّ رجل أنا. ثمّ تذكر لي المبلغ الذي ينبغي أن أدفعه لها فيما بعد. وعندما أحرّك رأسي موافقًا تأمرني بأن أتبعها.

ـ آجي.. آالغزال..

لا ندخل من باب العمارة التي تقف أمامها خلافًا لما كنت أنتظر وإنّما من باب صغير جانبي. نسير في ممرّ ضيّق طويل تحت سقف واطئ تتدلّى منه لمبة ضوؤها ضعيف يضيء بالكاد المكان. ثمّ نشرع في تسلّق درج خشبيّ قديم لا يكاد ينتهي. تتوقّف بعد أن نصعد جزءًا منه لتلتقط أنفاسها. أنتهز تلك الفرصة فأضع يدي كاملة على ردفيها لأشعر بثقلهما. تتركني أفعل ذلك على مهل ممّا يؤجّج رغبتي فيها.

ـ جزائري؟

تسألني حالما نعود إلى الصعود.

ـ لا . . تونسي.

ـ كل التوانسة الذين أعرفهم زوامل. . يتناكوا كالنساء. .

تضحك فأضحك مثلها، وأنا أتحسّس جيوبي لأزداد تأكّدًا من أنّ النقود لا تزال هناك. أكتشف أنّ أوراقي الرسميّة ليست في مكان آمن فأنقلها بسرعة إلى جيب داخلي في السترة وأغلقه بإحكام.

نسير في ممرّ آخر يوحي بأنّ المكان كان فندقًا. كلّ الأبواب التي تصطفّ على يميننا ويسارنا مغلقة باستثناء واحد يطلّ منه رجل بملامح آسيويّة، ظلّ يرقبنا بدون حرج إلى أن دلفنا إلى إحدى الغرف.

ـ الدراهم. . قبل كلّ شيء.

تقول وهي تمدّ يدها مفتوحة في اتجاهي. تحصي الأوراق النقديّة التي أسلّمها إليها بصوت واضح. ثمّ تتفحّصها طويلاً لكي تتأكّد من أنّها ليست مزيّفة، إذ إنّ العرب أولاد القحاب كما تقول يغشّون كثيرًا. وعندما تنتهي من ذلك تخفيها في صندوق صغير تدسّه تحت الموكيت في أحد الأركان. ثم تستلقي على السرير وتفتح فخذيها بعد أن تخلع كيلوتها.

في تلك اللّحظة أدرك حقًّا ما ينتظرني. كان في نيّتي أن أطلب منها أن تعرّي صدرها كلّه لأتفرّج على نهديها الضخمين، بل كنت مستعدًّا أن أدفع لها مبلغًا إضافيًّا مقابل أن تتعرّى تمامًا. لكنّي أعدل عن ذلك عندما أجد نفسي وجهًا لوجه أمام نصفها السفلي العاري وعضوها المعروض عليّ بسخاء مفتعل.

ـ آجي.. آجي نيك الطبّون.

تضيف بلهجة باردة عدائيّة حين تلاحظ أنّني أخلع ثيابي ببطء:

ـ آجي.. بسرعة.. آجي.

أشعر أنّ رغبتي فيها قد تناقصت إلى حدّ كبير. ليس بسبب الطريقة التي عرضت عليّ بها جسدها فحسب، وإنّما أيضًا بسبب عدوانيّتها التي لم أكن أنتظرها من امرأة مثلها حتى ولو كانت قحبة. إلاّ أنّني لا أتراجع ولا أنسحب. أصمّم على خوض المغامرة التي بدأتها حتى النهاية.

أصعد إلى الفراش. تجرّني إليها بإحدى يديها. ثمّ تمسك بالأخرى عضوي وتضعه في أسفل بطنها، وتشرع في تحريك جسدها. بعد وقت قصير تسألني:

ـ ما بك؟.. لماذا لا تنتصب؟

تغمض عينيها. ترفع أسفل بطنها لتضغط به عليّ. ثمّ تبدأ من جديد في تحريك جسدها وهي تتأوّه بشكل مفتعل بين وقت وآخر لتثيرني. إلاّ أنّ ذلك لا يجدي نفعًا. أنتهز فرصة وجودي فوقها

فأنظر بتركيز إلى وجهها. في تلك اللحظة أكتشف شيئًا غريبًا جعلني أتجمّد في مكاني، وهو أنّ الوشم الذي على جبينها يشبه تمامًا الوشم الذي شاهدته على جبين أمّي في الحلم.

عندما تلاحظ أنّ كلّ ما فعلته لإثارتي لم يأت بأيّة نتيجة تدفعني بيديها. وتنهض وهي تقول بتهكّم:

ـ لقد قلت لك إنّ التوانسة زوامل..

أرتدي ملابسي على عجل، وأغادر المكان على الفور. في الشارع أسير بخطوات سريعة، ولا أبطئ السير إلاّ عندما أبتعد كثيرًا عن سان دوني. أجد نفسي في مكان موحش سيّئ الإضاءة.. الشوارع فيه قصيرة وضيّقة وخالية من السيّارات، يعبرها بين حين وآخر مشرّدون يتكلّمون بأصوات عالية أو يشتمون العالم وكلّ ما فيه. أتنقّل من شارع إلى آخر متوقّفًا أمام بعض الواجهات المضاءة للتفرّج على محتوياتها. وحين أشعر أنّني لم أعد أقوى على السّير من كثرة التعب أقرّر أن أعود إلى البيت.

أفتح باب الشقّة ببطء شديد. لا أشعل الضوء. أنزع حذائي وأسير على أطراف أصابعي، فقد لاحظت أنّ باب غرفة النوم موارب. لاشكّ أنّها لم تغلقه كما تفعل عادة لأنّها تريد أن تعرف متى عدت إلى البيت. أتمدّد على الكنبة من دون أن أخلع ثيابي. أغمض عينيّ محاولاً أن أنام إلاّ أنّي لا أستطيع، فصورة الوشم الذي شاهدته على جبين القحبة المغربيّة لا تريد أن تفارق ذهني.

ألاحظ وأنا أجول ببصري في الصالون أنّ كلّ ما فيه أقلّ وضوحًا ممّا هو عليه عادة في مثل تلك الساعة. أنزعج لذلك لأنّ مجرّد التطلّع إلى ما حولي من لوحات وكتب وقطع أثاث يساعدني على تحمّل مثل هذه الحالات الحرجة. وأنا واثق من أنّ الوشم الذي يذكّرني بأمّي والقحبة المغربيّة في آن واحد لن يختفي بسهولة طالما بقيت وسط هذا الظلام.

أفكّر في الموضوع طويلاً وأقوم بمحاولات كثيرة ومتنوّعة للتخلّص من هذه المشكلة الطارئة، إلاّ أنّني أفشل في العثور على حلّ لطرد صورة الوشم من ذهني من دون أن أشعل الضوء لكي لا أوقظ ماري كلير فيزداد الأمر تعقيدًا. وما يعذّبني حقًّا هو أنّه كلّما فكّرت في الوشم تفاقم إحساسي بالألم. شيئًا فشيئًا أستسلم وأقنع نفسي بأنّي أستحقّ هذا العقاب، وبأنّ هناك شيئًا من العدل في ما يحدث لي.

- ٢١ -

حالما أستلقي بجوارها على الفراش تطفئ الضوء بعد أن تلقي عليّ نظرة حادّة، فهمت منها أنّها مستاءة من اقتحام عالمها الحميميّ. تجرّ جسدها إلى طرف السرير. ثمّ تدير لي ظهرها. كانت عارية تمامًا. منذ فترة طويلة لم أرها هكذا. أستدير إلى الجهة المقابلة. أدفن رأسي في المخدّة وأشرع في التفكير في ما كنت أقرأه من شعر الصعاليك، وما ينبغي أن أركّز عليه في درس الغدّ لكي أتخلّص من صورتها التي استحوذت على ذهني. لكنّ جسدي لا يطاوعني ويخونني هذه المرّة. أتطلّع طويلاً إلى جسدها الذي صار باستطاعتي أن أتبيّن بوضوح كلّ استداراته، بعد أن تعوّدت عيناي على الظلام، فتتملّكني الشهوة.

من الواضح أنّ دخولي غرفة النوم وفي مثل ذلك الوقت كان مفاجأة لماري كلير، فأنا أنام منذ فترة طويلة على الكنبة في الصالون. ليس هربًا منها فحسب وإنّما أيضًا لأنّي أريد أن أكون وحيدًا وحرًّا. أستمع إلى الإذاعات العربيّة. أطالع. أتحرّك كما أريد. أفعل ما أشاء. ولا أنام إلاّ عندما أشعر برغبة حقيقيّة في ذلك. وإذا حدث أن قرّرت أن أنام بجانبها على الفراش فإنّي لا

أدخل غرفة النوم عادة إلاّ في ساعة متأخّرة من اللّيل، أي بعد أن تكون ماري كلير قد غرقت في النوم.

أركّز نظري من جديد على مؤخّرتها التي لا تفصلني عنها سوى ذراعين فتتفاقم شهوتي. هل تترك جسدها عاريًا وفي مثل هذا الوضع الذي تعرف أنّه يثيرني لكي تمتحنني وتختبر طاقتي على التحمّل؟ وربّما تريدني أن أقع في الفخّ. وعندما أقترب منها ضعيفًا مستسلمًا لها ترفضني بشدّة لكي أتعذّب، أو تتصرّف بشكل غير متوقّع لإهانتي وإذلالي.

ها هي امرأة أعرفها وتعرفني جيّدًا وننام في فراش واحد، وتحت سقف واحد كما لو أنّنا متزوّجان وأشتهيها بعمق.. ها هي مستلقية بجانبي عارية تمامًا وردفاها معروضان عليّ بشكل لا يحتمل، ومع ذلك لا أستطيع حتى أن ألمسها. لو سلكت مثلما يسلك أيّ رجل من قرية «المخاليف» لكنت بطحتها وفتحت عنوة فخذيها على سعتهما ودخلتها بعنف منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها مستجيبًا بذلك لنداء البداوة داخلي. ولو رويت ما يحدث لي الآن لأيّ واحد من رجال «المخاليف» لاحتقرني وسخر منّي، وأشاع أنّي صرت رقيقًا كالنساء من كثرة التمدن، وإلاّ كيف تجرؤ أنثى على أن تتعرّى أمامي وتستلقي بهذا الشكل الفاجر على بعد شبر منّي ولا أركبها الركوب الذي يليق بالفحول؟

باستطاعتي طبعًا أن أقوم بمحاولة. بإمكاني أن أضع يدي على أحد ردفيها أو أمرّر أصابعي ببطء على أعلى ظهرها، أو أداعب

قليلاً شعرها معلنًا لها بذلك أنّي أريدها في تلك اللحظات. لكنّ المشكلة هي أنّ رفضها المحتمل جدًّا سيعقّد الأمر؛ فما أخشاه حقًّا هو أن يؤجّج رغبتي فيها فتبلغ حدًّا لا أستطيع معه أن أتحكّم في نفسي.

أشعر بالحرارة. أمسح بيدي قطرات العرق التي أخذت تنزلق على جبيني. وأشرع في التقلّب في الفراش. أنتبه بعد قليل إلى أنّ حركاتي المتواصلة قد تمنعها من النوم أو توقظها إذا كانت قد نامت. أغادر الغرفة إلى الصالون. أظلّ للحظات طويلة منتصبًا في منتصفه وسط العتمة لا أدري ماذا أفعل! ثمّ أتوجّه إلى النافذة لأطلّ من خلال ستارتها على الشارع، وفيما بعد إلى المطبخ حيث أدقّق النظر إلى مفتاحي الحنفيّة وموقد الغاز لأتأكّد من أنّهما مغلقان. أفعل ذلك بالرّغم من أنّي أعرف أنّهما مغلقان.

عندما أعود إلى غرفة النوم أجدها قد غيّرت وضعها. صارت مستلقية على ظهرها وفخذاها مفتوحان قليلاً ما يمكّنني من أن أرى عضوها بشيء من الوضوح. لا أتحرّك من شدّة الارتباك والهيجان. أغمض عيني وتمتدّ يدي دون إرادة منّي إلى أسفل بطني. في تلك اللّحظة أتذكّر الكنيسة الصغيرة التي زرتها قبل أن أعود إلى البيت. كنيسة أرثوذكسيّة جميلة. مررت بها عدّة مرّات. لكن تلك هي المرّة الأولى التي أدخلها. كانت فارغة إلاّ من عجوز جالس على مقعد في أحد الصفوف الأماميّة. وكان يخيّم على المكان صمت ثقيل ومريح. تأمّلت قليلاً بعض اللوحات المعلّقة على جدرانها، ثمّ جلست على مقعد في الصفوف الخلفيّة

كما أفعل دائمًا في الكنائس التي أزورها. وأغمضت عينيّ لأزداد تمتّعًا بالصمت. وقبل أن أخرج فعلت شيئًا لم أفعله أبدًا من قبل. دسست قطعة نقديّة في علبة، وتناولت شمعة أشعلتها لأمّي.

أبعد يدي عن أسفل بطني، وأمدّ رأسي في اتجاه ماري كلير. أنصت طويلاً إلى تنفّسها. وحين أصبح واثقًا من أنّها قد استسلمت للنوم أسحب الغطاء المطوي من تحت قدميها، وأغطّي بطرفه نصفها السفلي معتقدًا أنّ ذلك سيخفّف من هيجاني. إلاّ أنّني أدرك بعد وقت قصير أنّ هياجي لم يخفّ بل أستطيع أن أقول إنّ جسدها صار بعد أن حجب نصفه السفلي بغطاء رقيق أكثر إثارة من قبل.

وفيما كنت أتساءل عمّا إذا كان من المفيد لي، بعد أن بلغت هذه الدرجة من الإثارة، أن أزيل الغطاء عن نصفها السفلي، تغمغم ماري كلير قليلاً وهي تحرّك رأسها على المخدّة. وبحركة سريعة ومباغتة تستدير مستلقية على جنبها دافعة بقدميها الغطاء إلى طرف السرير. يخيّل إليّ وأنا أتطلّع إلى مؤخّرتها أنّها ازدادت قربًا منّي بعد تغيير وضعها.

أغمض عيني من جديد. وأدفن رأسي في المخدّة رغم الحرارة. أظلّ خامدًا للحظات أحاول خلالها ألاّ أفكّر في أيّ شيء لكي أتمكّن من النوم. إلاّ أنّي أفاجأ بأنّ يدي تنزلق مرّة أخرى إلى أسفل بطني. أدرك عندئذ أنّ أفضل وسيلة للتحرّر من وطأة هذه الشهوة الجامحة هي تصريفها. لا شيء باستطاعته أن

يطفئ هذه النار المشتعلة في جسدي الآن سوى تلك العادة السرِّيَّة التي لم أمارسها منذ أن تعرّفت على ماري كلير. ولكن أين أفعلها. هنا في الغرفة أم في الصالون أم في غرفة الاستحمام أم في مكان آخر؟ وكيف سأتخلّص بسرعة ومن دون أن أحدث أيّ ضجيج من السائل الذي سينقذف من صلبي ويتطاير رشيشه حولي في كلّ الاتجاهات؟ هل أهرع إلى غرفة الحمّام وأغتسل بهدوء أم أمسحه بما عليّ من ثياب؟ ثمّ ماذا يمكنني أن أقول لماري كلير لو استيقظت فجأة وسألتني عمّا أفعل؟

تتلاحق الأسئلة في ذهني! لكن حالة الهيجان التي بلغتها لا تترك لي أيّة فرصة لمحاولة الإجابة عنها. فات الأوان. كلّ ما فيّ من غريزة استيقظ.. ولا شيء يخيفني الآن، ولا شيء يهمّني سوى أن أفعلها. هنا على الفراش بالقرب منها وعلى الفور.

أجرّ جسدي لأزداد اقترابًا منها. ثمّ أمدّ رأسي في اتجاهها. أثبّت نظري للحظة طويلة على جسدها العاري متخيّلاً إيّاه ساخنًا مرتخيًا مبلّلاً بالعرق. وعندما أشعر أنّني نظرت إليه بما فيه الكفاية وأنّ صورته وهو في تلك الهيئة المثيرة انطبعت جيّدًا في المخيّلة، أغمض عيني كما أفعل دائمًا كلّما مارست العادة السرِّيَّة لكي لا يشرد خيالي، ويظلّ مركّزًا على الجسد الذي أريد امتلاكه. ثمّ أستنفر منخريّ لتشمّم والتقاط أكثر ما يمكن من روائح ماري كلير.. وأتوكّل على الله.

لا تدوم العمليّة سوى بضع ثوان. أكتم شهقتي، وأرتعد من

اللّذّة. . ثمّ أخمد وأشعر بارتخاء في كلّ أعضائي. أظلّ هامدًا لا أتحرّك. بعد وقت قصير أفتح عيني وأتطلّع إلى ماري كلير لأتأكّد من أنّ شيئًا لم يتغيّر في وضعها خلال الثواني القليلة التي كنت غائبًا فيها. ينتابني كالعادة إحساس بالذنب. إلاّ أنّي لا أعبأ به هذه المرّة.

ـ ٢٢ ـ

لم أرها منذ ثلاثة أيّام.

أعود إلى البيت في وقت متأخّر فأجدها قد نامت. وفي الصباح عندما أفيق من النوم تكون قد غادرت الشقّة. من الواضح أنّها هي أيضًا صارت تتجنّبني. قبل ذلك كنت أراها كل صباح تقريبًا. فما تحدثه من ضجيج وهي تتنقّل في الصالون أو تتناول الفطور أو تسقي النباتات يوقظني. أحيانًا تتطلّع إليّ وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة، أو تقول شيئًا ما عن حالة الطقس كما لو أنّها تخاطب نفسها. لكن منذ ثلاثة أيّام لا شيء يوقظني. أظلّ نائمًا حتى الساعة التي أشاء. ولا أدري كيف تفعل لكي لا تحدث ضجيجًا، فهي لم تغيّر عاداتها باستثناء فطور الصباح الذي اكتشفت أنّها صارت تتناوله في المطبخ.

أغادر الفندق قبل انتهاء الدوام خلافًا للعادة. لم يتردّد ميلود صاحب الفندق لحظة واحدة في الموافقة لمّا طلبت منه ذلك. لا شكّ أنّه أدرك أنّ الأمر يتعلّق بعلاقتي بماري كلير، التي لم يعد يخفى على أحد في الفندق أنّها ساءت في الأشهر الأخيرة. إلاّ أنّني بدلاً من أن أتسكّع في الشوارع حتى ساعة متأخّرة كما

صرت أفعل في الأيّام الأخيرة، أعود إلى البيت هذه المرّة مدفوعًا بأحاسيس راودتني فجأة، فأحدثت اضطرابًا هائلاً في نفسي في وقت كنت أتصوّر فيه أنّي محصّن ضدّ مثل هذه الأشياء. خليط غريب من الرغبة في رؤية وجه ماري كلير، والرغبة في معرفة ما تفعله في مثل ذلك الوقت في البيت.. ينضاف إليهما شعور خفيف بالخوف من أن اكون قد بالغت في الغياب.

حالما أخرج من المحطّة أوسع الخطى. أريد أن أصل قبلها إلى البيت. أريد أن أكون أوّل ما تقع عليه عيناها عندما تدفع الباب وتدخل، بالرغم من أنّي لست متأكّدًا من أنّها مازالت تحبّ أن تجدني في البيت حين تعود من الشغل وأنّ ذلك يبعث في نفسها شيئًا من الارتياح!

أتوقّف أمام باب الشقّة وأصغي قليلاً لكنّي لا أسمع شيئًا. ينتابني وأنا أفتح الباب فرح خفيف يتزايد عندما أتجوّل في كلّ أرجاء الشقّة ولا أراها. أجلس على الكنبة. وأشرع في تخيّل كلّ ما يمكن أن تقوله أو تفعله أو ينعكس على وجهها من أحاسيس عندما تشاهدني.

لا أنتبه وأنا غارق في تخيّلاتي إلى مرور الوقت. حين أتطلّع إلى ساعة الستيريو ألاحظ أنّه قد مضت ساعة كاملة على الوقت الذي تعود فيه ماري كلير عادة إلى البيت. لا أستغرب ذلك، فهي لم تستخدم الموتوسيكل الذي شاهدته مركونًا في مكانه المعهود

أمام مدخل العمارة، وهو ما يحدث لها بين وقت وآخر خصوصًا إذا كانت متعبة، إذ إنّ قيادة الموتوسيكل في مدينة مثل باريس يحتاج إلى كثير من التركيز والانتباه. أكيد أنّ الباص الذي ركبته يجهد الآن في شقّ طريقه وسط ازدحام السيّارات التي تغزو المدينة في مثل هذه الساعة.

أعود إلى تخيّل ماري كلير وهي تكتشف وجودي في الشقّة. وما يلفت انتباهي هذه المرّة هو أنّني كلّما توغّلت في ذلك ازددت اقتناعًا بأنّ ردود فعلها لن تكون جيّدة، أو على الأقلّ لن تكون شبيهة بما أنتظره منها. لن يحدث شيء ممّا أتوقّعه أقول في نفسي. ستتوقّف لحظة حين تقع عيناها عليّ. ليس تعبيرًا عن فرحها طبعًا وإنّما لوقع المفاجأة عليها. ستحرّك يدها أو تهزّ رأسها أو تقول شيئًا ما لتحيّتي. قد تسألني عن الساعة التي وصلت فيها إلى البيت. بل وقد تبتسم لي. هذا كلّ ما في الأمر. وفيما بعد تتركني وحيدًا في الصالون، وتنهمك في أعمالها الصغيرة.

الغريب أنّ التفكير في كلّ ذلك لا يعكّر مزاجي أو يقضي على الإحساس بالفرح الذي يساورني منذ أن دخلت الشقّة. فما أرغب فيه حقًّا هو رؤية وجهها بعد غياب طويل، ثم معرفة ما تفعله في مثل ذلك الوقت. والشيء الوحيد الذي أريده منها آنذاك هو أن تعود إلى البيت وفي أقرب وقت ممكن.

يخطر ببالي فجأة أمر لم أفكّر فيه من قبل. ماذا لو تجاهلتني تمامًا؟ كيف سأتصرّف معها لو حاولت إذلالي. لو عبّرت لي

بوضوح عن نفورها منّي أو كرهها لي أو حقدها عليّ. ماذا أفعل لو خاصمتني أو انتقدتني بشدّة أو استهزأت بي؟ هل باستطاعتي أن أبقى هادئًا متماسكًا؟ هل بإمكاني أن أتحمّل كل هذه الإهانات في انتظار أن تمرّ العاصفة؟

أدرك للمرّة الأولى أنّ اللّعبة التي أمارسها قد تنقلب إلى فخّ قاتل سأكون أوّل من يقع فيه. لكنّي لا أعير ذلك أيّ اهتمام، فالرغبة في لقاء ماري كلير أقوى من أن تقضي عليها أو حتى تحدّ منها أسئلة من هذا النوع لا تقوم إلاّ على مجرّد افتراضات.

أشعر بارتخاء في أعضائي من كثرة الجلوس فأتمدّد على الكنبة. وخوفًا من أن أغفو، وهو ما يحدث لي أحيانًا في مثل ذلك الوقت عندما أكون متعبًا، أفتح عينيَّ على سعتهما وأشرع في التطلّع إلى كل ما يحيط بي. ألاحظ أنّ النباتات استحالت إلى شجيرات، وأنّ نبتتها القديمة نمت واستطالت أكثر من النباتات الأخرى. ألاحظ أيضًا أنّ ماري كلير قد أحدثت تغييرات صغيرة في الصالون لم أنتبه إليها ممّا ولّد لديّ شعورًا بأنّ ثمّة أشياء تفلت منّي في البيت. تغييرات بسيطة، لكنّها توحي لي في لحظات الانتظار الحرجة هذه بأنّ البيت لم يعد بيتي تمامًا، وأنّ ماري كلير الذي كانت حريصة على أن تعرف رأيي في كلّ شيء تتحدّاني بشكل ما حين تقوم بهذه التغييرات بدون أن أبدي موافقتي.

أركّز اهتمامي على اللوحات المعلّقة على الجدران لكي أطرد من ذهني هذه الأفكار. أحدّق فيها وأتأمّلها واحدة واحدة، بادئًا

بلوحات ماري كلير الانطباعيّة. وعندما أنتهي من ذلك أفكّر أنّ إعادة توزيعها على الجدران قد يبرز أشياء لم نرها فيها إلى حدّ الآن. تعجبني الفكرة فأتشبّث بها. وشيئًا فشيئًا أتحمّس لها حتى أنّي أتساءل عمّا إذا كان يجب أن أستفيد منها فأطرحها على ماري كلير حالما أشعر أنّها تتحاشاني وترفض أن تكلّمني.

ساعة أخرى تمضي. لكن ماري كلير لا تعود إلى البيت. أفكّر في الأسباب الممكنة لهذا التأخير، فأتذكّر أنّها تعرّج أحيانًا في طريق عودتها على السوبرماركت القريب من البيت لشراء بعض الأشياء، وأنّها تجد في بعض الأيّام صعوبة هائلة في الخروج بسبب الازدحام الشديد على صناديق الدفع.

أجد نفسي من جديد مدفوعًا إلى تخيّل اللقاء المنتظر. ينصبّ جهدي هذه المرّة على شكلها وملابسها. لا أدري لماذا أتصوّرها أكثر نحافة من قبل، وأنّها قصّت شعرها وكحّلت عينيها وأنّها ترتدي ثيابًا جميلة بألوان زاهية. ربّما لأنّ هناك في داخلي إحساسًا ما يقول لي إنّها بصدد تغيير حياتها، وربما أيضًا لأنّ الرغبة في رؤيتها بعد غياب طويل تجعلني أضفي عليها قليلاً من الغموض لتكون مشتهاة أكثر وليكون التقاؤها ألذّ.

أعود إلى وضعي السابق من دون أن أغادر مكاني. تمتدّ يدي بدون وعي إلى الطاولة الصغيرة بالقرب من الكنبة التي تكدّس ماري كلير على طابقها السفلي ما تشتريه من مجلاّت. أتناول إحداها، وأشرع في تقليب صفحاتها مركّزًا كل اهتمامي على

الصور والإعلانات. وفيما بعد أتصفّح مجلّة أخرى ثم ثالثة ورابعة. وكلّما واصلت ذلك تنامت سرعتي في تقليب الصفحات حتى أنّي لم أعد أرى كل الصور والإعلانات في المجلات الأخيرة.

أنتقل فيما بعد إلى آخر ما استلمته ماري كلير من كاتالوغات الموضة. لم أره في البداية لأنّه كان تحت كدس المجلاّت. في العادة لا تحتفظ ماري كلير بهذا النوع من المطبوعات الدعائيّة التي ترسل لها مجّانًا. في بعض الأحيان تلقي بها على الفور في صندوق الزبالة من دون حتى أن تتصفّحها أو تلقي عليها نظرة عابرة، فهي لا تكره الموضة كما تقول لكنّها لا تفهم كلّ هذا الاهتمام بها. ثم إنّ ما يزعجها حقًّا في ذلك هو أن ترسل لها أشياء لم تطلبها ولم ترغب في الحصول عليها. أشياء أنجزت لغايات إعلانيّة ودعائيّة بحتة، وتفرض على الناس فرضًا لأنّهم يجدونها كلّ صباح في علب بريدهم.

أكتشف وأنا أقلّب صفحات الكاتالوغ الصقيلة الناعمة أنّ جزءًا هامًّا منه مخصّص لملابس الناس الداخليّة، تبدو لي كلّها جميلة على أجساد عارضات الأزياء. ربما لهذا السبب تحتفظ ماري كلير بالكاتالوغ. وربما خبّأته تحت المجلاّت لكي لا أراه. ولكن منذ متى صارت ماري كلير تهتمّ بملابس النساء الداخليّة؟ أتساءل بشيء من الاستغراب قبل أن أعيد الكاتالوغ إلى مكانه لكي لا تعرف أنّي اكتشفت وجوده.

ألقي نظرة سريعة على الساعة التي صرت أتجنّب التطلّع إليها،

فأتأكّد ممّا كنت أخشاه وأحاول قدر الإمكان تجاهله، وهو أنّه قد مضى وقت طويل على موعد إغلاق السوبرماركت وغيره من المحلاّت التجاريّة. لم تكن هناك إذن. أكيد أنّها ذهبت إلى مكان ما. لابدّ أنّ شيئًا مهمًّا حال دون عودتها في الوقت المعتاد. أتلفن لها عدّة مرّات على هاتفها النقّال. لكنّها لا تردّ.

لا تشغل ذهنك بهذه المسألة أقول لنفسي. لن تتأخّر كثيرًا إذ لا شيء يدفعها إلى ذلك. بعد قليل سيتناهى إلى سمعك وقع قدميها وهي تقترب من الباب. ثم صوت المفتاح وهو يدور في القفل ثم صرير الباب وهو يفتح. وفجأة تراها! تماسك. واطرد من ذهنك كلّ ما يمكن أن يستولي عليه من مخاوف وهواجس. ولا تدع أيّ شيء يحرمك من متعة اللقاء المرتجى. بعد وقت قصير ستحقّق أمنيتك فتشاهد وجهها بعد غياب طويل. ليس مهمًّا في النهاية ردّ فعلها وهي تفاجأ بك في البيت. ليس مهمًّا أيضًا سلوكها معك. يكفيك هذه المرّة أن تراها. أن تكون في البيت إلى جوارك. لا تهتّم إذن بما قد لا يعجبك في أقوالها أو تصرّفاتها. كن لطيفًا معها. ولا تعاملها بالمثل. وحتى إذا شعرت أنّها تحاول إهانتك وحتى إذا خاصمتك أو انتقدتك فلا تعر ذلك كثيرًا من الاهتمام. اعتبره أمرًا بسيطًا. واستعن مؤقّتًا بتلك الفكرة الرائجة عن النساء في قريتك والتي لا تؤمن بها طبعًا وهي أنّهنّ خفيفات العقول ولا يعين تمامًا ما يقلن. وهكذا تستطيع أن تظلّ هادئًا متماسكًا مسيطرًا على الموقف. ثمّ لا تنس شيئًا أساسيًّا وهو أنّها ستندم عاجلاً أو آجلاً على ما ستقوله وما سيبدر منها.

وقد يدفعها هذا الندم إلى الاعتذار وطلب المغفرة، وهو ما يمكن أن يشكّل قاعدة جيّدة لانطلاقة جديدة لعلاقتكما المتدهورة.

أحسّ برغبة في الحركة. أنهض وأخطو بضع خطوات وأنا أدقّق النظر إلى ما حولي بحثًا عمّا يمكن أن أفعله. لكن لا شيء في البيت يحتاج إلى ترتيب. أدلف فيما بعد إلى المطبخ لأتأكّد من أنّي غسلت كلّ الأواني ورتّبتها بعناية في الخزانة، فماري كلير تفرح دائمًا حين تدخل المطبخ وتجده نظيفًا.

أعود إلى الصالون. لكنّي لا أجلس. أظلّ واقفًا في وسطه أحدّق في كلّ ما يحيط بي. لا بدّ أن أقوم بشيء ما أستعين به على تحمّل الموقف. شيء يدفعني إلى الحركة. أريد أن أبذل مجهودًا لإنجاز فعل ما بدلاً من أن أبقى واقفًا كالعمود مكتوف اليدين أو أن أتمدّد على الكنبة.

ألاحظ أنّ طبقة خفيفة من الغبار تكسو رفوف المكتبة. آتي بخرقة مبلّلة من المطبخ. وأمرّرها على كلّ الرفوف. أكتشف فيما بعد أنّ أوراق النباتات هي أيضًا مغبرّة. أفرح لذلك لأنّ إزالة الغبار عن عشرات الأوراق تستغرق وقتًا طويلاً وتحتاج إلى شيء من الجهد وخصوصًا إلى عناية وانتباه كبيرين. ثمّ إنّ ماري كلير تحبّ أن ترى نباتاتها في أحسن حال. أنحني على إحداها وأشرع في العمل. بين وقت وآخر أتوقّف وأتلفن لماري كلير على هاتفها النقّال، إلاّ أنّها لا تردّ.

عندما أنتهي من تنظيف أوراق النبتة الأولى أستريح للحظات أقضيها في التطلّع إلى ما كان ظاهرًا من شجرة الدلب. لم أشأ أن

أنظر حولي في الصالون لكي لا تقع عيناي على الساعة. أصمّم وأنا أنتقل إلى النبتة الثانية أن أكفّ نهائيًّا عن التطلّع إلى الساعة حتى عودة ماري كلير.

إلاّ أنّ الوقت يمضي وماري كلير لا تعود. وحين تتجاوز الساعة منتصف اللّيل أتوقّف عن تنظيف أوراق النباتات وأتهالك على الكنبة. وللمرّة الأولى أفكّر في شيء لم يخطر ببالي أبدًا من قبل. شيء ما كان بوسعي أن أصدّقه لو فكّرت فيه منذ حين، وهو أنّها لن تعود إلى البيت هذه اللّيلة.

أدرك وأنا أنظر إلى ما حولي بذهول أنّ كلّ ما قمت به منذ وصولي إلى البيت لا جدوى منه. كلّ حماسي للقائها يتلاشى فجأة، ويحلّ محلّه إحساس بالألم يرافقه شعور غريب يشبه الارتياح. لم يعد يهمّني أن أعرف لماذا لم تعد إلى البيت وأين يمكن أن تكون ومع من في مثل ذلك الوقت المتأخّر. كل اهتمامي ينصبّ على ما يقوله لي حدسي الذي نادرًا ما يخطئ في مثل هذه الأمور، وهو أنّ علاقتي بماري كلير قد انتهت هذه المرّة. انتهت حقًّا. وهذا ما حدث. فبعد شهور قليلة تصالحنا فيها من جديد واستعادت علاقتنا شيئًا من صفاء وفرح الأعوام الماضية عدنا إلى الخصام. قضت ماري كلير ليلة ثانية خارج البيت. ثمّ ثالثة. ثمّ رابعة. وذات يوم رحلت. فعلت ذلك ببساطة كبيرة. انفصلت عنّي بسهولة لم أكن أتوقّعها على الإطلاق. سهولة غريبة جعلتني أعتقد أنّه ليس هناك ما هو أكثر هشاشة من علاقة حبّ بين رجل وامرأة!

ـ ٢٣ ـ

الصالون بدونها صار أكثر اتّساعًا وصمتًا.

منذ ذلك الصباح الذي حملت فيه نباتاتها وآخر ما تبقّى لها من أمتعة في شقّتي لم أرها. خابرتني مرّتين فقط خلال الأسابيع الأولى التي تلت رحيلها، لتقول لي بلطف وهدوء أنّ كلّ محاولاتي لإقناعها بالعودة إلى بيتي غير مجدية، لأنّها لم تعد تحبّني ولأنّه ليس باستطاعتها أن تتصوّر لحظة واحدة أنّه يمكنها أن تعيش مع رجل لا تحبّه.. فهي شديدة الحرص على أن تكون صادقة مع نفسها ومع الآخرين.

الحقيقة أنّي لم أفاجأ برحيلها، بل وأعتقد أنّه كان لا بدّ أن تفعل ما فعلت. أعترف أنّني تغيّرت كثيرًا منذ أن أمضت ماري كلير ليلتها الثانية خارج البيت. أصبحت أسلك وأتصرّف بشكل سيّئ وعنيف أحيانًا، كما لو أنّي أريد أن أدفعها إلى أن تغادر البيت وتهجرني.

صرت أنفعل بسرعة ولأتفه الأسباب. كأن لا أجد في الصباح حذائي حيث تركته البارحة، لأنّ ماري كلير وضعته في المكان الذي ينبغي أن يوضع فيه لكي لا تنتشر في الصالون وربّما في

غرفة النوم أيضًا الرائحة الكريهة التي تنبعث منه أحيانًا. كأن أشاهد حالما أفتح عينيّ في الصباح على الطاولة فنجانًا وملعقة وسكّينًا لم تحملها ماري كلير إلى المطبخ لغسلها، إذ كان لا بدّ أن تغادر البيت على عجل خوفًا من أن تصل متأخّرة إلى مكان عملها وهو ما يسبّب لها في غالب الأحيان مشاكل كثيرة. كأن أرى أنّ المخابرة مع أمّها، التي يبدو أنّ صحّتها قد تحسّنت قليلاً، طالت أكثر من اللازم خصوصًا عندما أرهف السمع فيتناهى إليّ من الكلمات ما يوحي بأنّ أمّها تحدّثها عن الطقس في قريتها أو شيئًا من هذا القبيل..

صرت أيضًا ألومها وأعاتبها كثيرًا. أحيانًا أنتقدها بقسوة لا مبرّر لها بل وأصرخ في وجهها. وحين تبكي أظلّ أتطلّع إليها دون أن أقول كلمة كما كنت أفعل في السابق.. شيئًا يخفّف عنها ويوحي لها بأنّي نادم على ما بدر منّي، أو أدخل غرفة النوم بعد أن أصفق بابها وأفتح الراديو على آخره لكي لا يتناهى إليّ بكاؤها فأزداد انفعالاً.

أصبحت أقوم بأشياء كثيرة لمجرّد إزعاجها أو إغاظتها. أشياء لم تكن تخطر على بالي أبدًا من قبل، وتبدو لي الآن مضحكة بل وسخيفة. لا أغيّر كلّ يوم ملابسي الداخليّة. لا أبخّر إبطيّ كما علّمتني بمزيل الروائح خصوصًا أنّي لم أقتنع أبدًا بأنّ ما ينبعث منهما قوي وكريه كما تقول ماري كلير. لا أقصّ أو أشذّب الشعر الذي تراه بوضوح داخل منخريّ الواسعين رغم أنّها اشترت لي خصّيصًا لذلك مقصًّا صغيرًا. لا أحلق ذقني لعدّة أيّام لأنّي أعرف

أنّها تحبّ دائمًا أن تراني حليقًا، إذ إنّي شبه أمرد ولست غزير الشعر، وما ينبت في وجهي ليس لحية كما لدى أغلب الرجال وإنّما هو أشبه بعثنون تيس كما تقول مازحة. تخلّيت أيضًا عن عادة تغيير جواربي كلّ يوم التي فرضتها عليّ فرضًا. لم يزعجني ذلك إطلاقًا، فأنا لم أعرف الجوارب وحتى الحذاء إلاّ بعد أن كبرت. قبل ذلك كنت دائمًا حافي القدمين ممّا يجعلهما معرّضتين في استمرار للأشواك والمسامير الصدئة والحجارة الحادّة التي لا تزال آثارها واضحة على باطني رجليّ.

صرت أيضًا أتباطأ كثيرًا في ما دأبت على القيام به من الواجبات المنزليّة، التي كانت ماري كلير حريصة على أن نتقاسمها منذ أن صارت تقيم معي، لكي لا تشعر أنّها خادمة في بيتها كما تقول. حمل أواني الطعام إلى المطبخ بعد الانتهاء من الأكل وغسلها وترتيبها في الخزانة وتنظيف غطاء الطاولة كلّما حان دوري. نقل أكياس القمامة حين تمتلئ إلى الصناديق في مدخل العمارة. تنظيف البيت الذي أعترف أنّه كان يولّد في نفسي متعة تتضاعف عندما أطارد الغبار في الزوايا والأمكنة المتخفّية دافعًا بالأنبوب المطّاطي للمكنسة الكهربائيّة في كلّ الاتجاهات..

إلاّ أنّ القطرة التي أفاضت الكأس هي ما حدث في تلك اللّيلة اللّعينة التي عدت فيها إلى البيت سكران في ساعة متأخّرة من اللّيل. كنت أعرف جيّدًا أنّ ماري كلير التي تحبّ النبيذ تنزعج عندما تراني سكران، لأنّ الشرب فنّ وفرح واحتفاء بالحياة

وبملذّاتها الصغيرة كما تردّد دائمًا. لذا يجب على الإنسان ألاّ يتجاوز الحدود وإلاّ انتقل من حالة الانتشاء الممتعة إلى السكر الذي يفقده الصواب والقدرة على التحكّم في جسده، وهو أمر يثير الشفقة ويدعو إلى الرثاء. كنت أعرف أيضًا أنّها تشعر بالاشمئزاز عندما تراني أتقيّأ في المرحاض وهذا ما يحدث في بعض الأحيان عندما أسكر، وخصوصًا إذا شربت أكثر ممّا يحتمله جسدي الهشّ.

ومع ذلك شربت كثيرًا. كنت أريد أن أنسى الليالي التي قضتها ماري كلير خارج البيت. لم أنم جيّدًا البارحة بسببها. ومنذ أن استيقظت والأسئلة تحاصرني، لأنّي لم أعد قادرًا على الاستمرار في الكذب والمراوغة والتحايل خوفًا من مواجهة الحقيقة. كل ما فيّ يكذّب ما حاولت أن أقنع به نفسي لفترة طويلة، وهو أنّ ماري كلير أمضت تلك الليالي وحيدة في الفندق لكي تنتقم منّي أو برفقة صديقات حميمات لم ترهنّ منذ زمن بعيد.

تباطأت كثيرًا في طريق العودة. لم أركب المترو ولا الباص. توقّفت في عدد من الحانات التي أعجبتني. شربت على مهل في كل واحدة كأسًا أو اثنتين على الكونتوار. ولم أقرّر أن أعود إلى البيت إلاّ عندما صرت متأكّدًا من أنّها قد نامت. إلاّ أنّني فوجئت بها لمّا فتحت الباب جالسة على الكنبة في الصالون. كانت ترتدي كلّ ثيابها. لم تخلع سوى حذائها الذي تركته على الأرضيّة بين قدميها الحافيتين. كانت تجلس مستقيمة على الكنبة ذراعاها مكتوفتان، وحقيبتها اليدويّة في حجرها كأنّها وصلت

لتوّها إلى البيت. لم تكن تفعل شيئًا. لا تتفرّج على التلفزيون. ولا تستمع إلى الموسيقى. كل شيء حولها صامت وسط ضوء خفيف، فهي لم تشعل سوى المصباح الصغير الذي بالقرب من الكنبة. هل عادت منذ وقت قصير خلافًا لما كنت أتصوّر؟ ولماذا لم تنم إلى حدّ الآن فهي تشتغل في الغدّ وعليها أن تنهض باكرًا كالعادة؟ هل كانت تنتظرني؟ ولكن لماذا؟ هل تريد أن تقول لي شيئًا ما! ثمّ ما دلالة هذه النظرة التي جعلتني أشعر كما لو أنّي كائن خرافي قادم من كوكب مجهول؟

في البداية احترت فيما ينبغي أن أفعله. لم أدر كيف يجب أن أسلك في مثل هذا الموقف الغريب الذي وجدت فيه نفسي فجأة. وفيما بعد استطعت أن أستعيد شيئًا من تماسكي بالرغم من الحالة السيّئة التي كنت فيها. لمّا نظرت إليّ من جديد ابتسمت ابتسامة متكلّفة وجلست بجوارها على الكنبة.

ـ رائحتك كريهة..

لم أنفعل. بالعكس شعرت بقليل من الارتياح، فقد رأيت في كلامها اهتمامًا بي. بعد لحظة أعادت ما قالته بصوت عال وهي تتفرّس فيّ. ابتسمت لها مرّة أخرى فقد أخذت أفكّر وأنا أتطلّع إلى شفتيها اللّتين لم أمصّهما منذ وقت طويل في شيء ما كان ليخطر ببالي لو لم تكلّمني وتتفرّس فيّ بهذا الشكل.

هل أوافق على ما قالته عن رائحتي التي لم أكن متأكّدًا من أنّها كريهة لكي أثبت لها أنّي لم أنفعل؟ بقيت صامتًا خوفًا من أن

تتغيّر أو تنهض خصوصًا أنّي لاحظت أنّها وضعت يدها على الكنبة بالقرب من يدي. تراجعت بجذعي. وأخذت أتأمّل يدها بحذر. كانت مفتوحة على سعتها. الأصابع الطويلة الناعمة متباعدة. إلاّ أنّ ما لفت انتباهي هو أنّ أظافرها مطليّة، منذ فترة لم أرها هكذا. ثمّ إنّ الطلاء الأحمر الداكن يزيد في جمال يدها.

لمّا وضعت يدي على يدها ولم تسحبها فورًا كما كنت أتوقّع، بدأت أتساءل عمّا إذا كانت هي أيضًا تفكّر في ما خطر ببالي منذ حين. بعد لحظات بدأت أقتنع بذلك حتى أنّه خيّل لي وأنا في مثل تلك الحال أنّ ماري كلير لم تنم لهذا السبب، وأنّها كانت تنتظرني في صمت.

وأيّ غرابة في ذلك؟ قلت في نفسي بشيء من الزهو. نعم ما الغرابة في أن تشتهيك ماري كلير من جديد؟ إنّها تعرف جيّدًا ما باستطاعتك أن تفعله لها. ألم تعترف أكثر من مرّة أنّك أرسلتها إلى السماء السابعة؟ حاولت أن تبتعد عنك. حاولت أن تحرمك وتحرم نفسها. لكن جسدها لا يطاوعها. لا أحد بإمكانه أن يقاوم طويلاً رغبات الجسد. وها هي تعود إليك. ها هي تنتظرك..

اقتربت منها وملت عليها. ولمّا وضعت يدي على كتفها، قالت بدون أن تتحرّك أو تنظر إليّ:

ـ رائحتك نتنة.. مثل رائحة أصدقائك المشرّدين.

ازددت اقترابًا منها. ولمّا احتضنتها ومددت رأسي لأقبّل شفتيها خلّصت نفسها من ذراعي ودفعتني بقوّة. بدا لي تصرّفها غريبًا. بيد أنّي لم أعره أيّ اهتمام معتقدًا أنّه من قبيل التمنّع الذي لا بدّ منه بعد كلّ الذي حدث لنا.

ملت عليها من جديد. وبسرعة اندفعت نحوها وأخذت أقبل عنقها بنهم، وأنا أحاول أن أدسّ يدي تحت ثيابها بين فخذيها المفتوحتين.

ـ اتركني.. لا تلمسني..

كنت مصمّمًا على أن أصل إلى شفتيها، فأنا أعرف أنّها لا تصمد كثيرًا عندما أشرع في مصّهما وفي تحريك لساني داخل فمها، كما علّمتني في بداية علاقتنا. كنت أيضًا أشتهيهما كما لم أشتهها أبدًا من قبل.

طوّقتها بقوّة بإحدى ذراعيّ، وضغطت على صدرها دافعًا إيّاها إلى مسند الكنبة لكي لا تتمكّن من تخليص نفسها كما فعلت منذ حين. واندفعت برأسي إلى أقصى حدّ بحثًا عن فمها بينما تابعت بيدي الأخرى محاولة تلمّس فخذيها.

ـ ابتعد عنّي.. قلت لك لا تلمسني.. ألا تفهم؟

واصلت تطويقها والاندفاع نحوها دون اكتراث بما كانت تقوله وبالضربات الموجعة التي كانت توجّهها لي على ظهري وعنقي وجنبي بقبضتي يديها. ولمّا أدركت أخيرًا فمها وشرعت في تقبيل

شفتيها بنهم، أحسست بها تتراخى تحتي وكفّت عن ضربي متظاهرة بأنّها استسلمت لي.

وعندما تراجعت برأسي إلى الوراء، وأخذت أداعب صدرها منتشيًا بلذّة الانتصار ومستمتعًا بما بقي في فمي من طعم شفتيها، دفعتني فجأة بكلّ قواها فسقطت على أرضيّة الصالون. نهضت بسرعة وانحنت عليّ ثمّ أخذت تصرخ ويداها المفتوحتان ترتعشان من الغضب:

ـ تريد أن تغتصبني.. لم أكن أتصوّر أبدًا أنّه بإمكانك أن تفعل هذا؟.. ماذا كنت تعتقد؟.. هل تظنّ أنّي سأتركك تفعل هذا؟..

صمّمت على أن ألتزم الصمت وألاّ أردّ عليها. لكن لا أدري كيف فقدت فجأة السيطرة على أعصابي. اندفعت واقفًا وأخذت بدوري أصرخ. اقتربنا من بعضنا بعضًا ونحن نحرّك أيدينا. وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالات انتقلنا بسرعة إلى تبادل الشتائم.

لو وقفت الأمور عند هذا الحدّ لنسينا ربما بمرور الوقت هذه الشتائم، ومحونا آثار هذا الشجار العنيف الذي لم نعرف مثله أبدًا من قبل. لكن ما حدث فيما بعد قضى على كل إمكانيّة للصلح وجعل علاقتنا تبلغ النقطة الحرجة التي لا علاقة بعدها.

توقّفنا بعد وقت قصير عن الصراخ وتبادل الشتائم. تهالكت

أنا على الكنبة. أمّا ماري كلير فقد بقيت منتصبة في مكانها. وفي اللحظة التي استدارت فيها للتوجّه إلى غرفة النوم تملّكتني فجأة رغبة قويّة في أن أقول شيئًا ما قبل أن تبتعد، لأنّه خيّل إليّ أنّني لم أردّ كما ينبغي على شتيمتها الأخيرة التي ظلّت تتردّد في أذني.. سمعتني ألفظ بدون أن أعي ذلك، وبصوت منخفض ومختلف كأنّه ليس صوتي.. كلمات لا أدري كيف ولماذا عبرت ذهني آنذاك. ولكن بدلاً من أن أتكلّم بالفرنسيّة فوجئت بنفسي أتكلّم بالعربيّة.

ـ قحبة.. فاجرة..

كنت قد نسيت وأنا في تلك الحالة من الغضب والسكر أنّ ماري كلير تعرف بعض الكلمات العربيّة، وخصوصًا هذا النوع من الكلمات. والحقيقة أنّي لم أفكّر في ذلك أصلاً. أخذت تقترب منّي وهي تردّد:

ـ كهبة؟.. أنا كهبة؟.. أنا كهبة؟..

وكلّما اقتربت منّي ازداد صوتها ارتفاعًا. ولمّا التقطت فردة حذائها انتبهت إلى أنّي ارتكبت خطأ فادحًا، وإلى أنّ الكلمات التي لفظتها آلمتها إلى حدّ بعيد. أخذت أردّد بصوت مرتفع وأنا أتراجع إلى الخلف:

ـ لا.. لم أقل قحبة.. لم أقل قحبة..

إلاّ أنّ ماري كلير التي صارت كالمجنونة لم يكن باستطاعتها

آنذاك أن تسمع شيئًا. كانت تتقدّم منّي بخطى واثقة.. يدها الممسكة بفردة الحذاء مرفوعة، وعيناها تلتمعان غضبًا.

ـ كهبة!!.. أنا كهبة؟..

وخوفًا من أن تضربني فأضربها دفاعًا عن نفسي ممّا سيزيد الأمور تعقيدًا توجّهت راكضًا إلى المطبخ. دخلته وأغلقت الباب بالمزلاج. ثمّ تمدّدت على الأرض وشرعت أستعيد تفاصيل الحادثة، فيما كانت ماري كلير تردّد بشكل هستيري وبصوت صار أبحّ من كثرة الكلام كل ما بقي في ذاكرتها من الكلمات العربيّة البذيئة التي تعلّمتها خلال الزيارات القليلة التي رافقتني فيها إلى تونس:

ـ لعندين أمّك.. برّا زمر.. يا نيّاك.. ولد الكهبة..

أشعر برغبة في التحرّك، لكن جسدي لا يطاوعني. أظلّ متمدّدًا على الكنبة وأشرع في التطلّع إلى ما حولي في الصالون الواسع. وللمرّة الأولى منذ أن رحلت ماري كلير أفكّر أن أعيد مكتبتي إلى مكانها، وأن أضع الطاولة وسط الصالون تمامًا لكي يبدو أقلّ فراغًا.

أحدّق من جديد في مكان النباتات فتتبدّى لي ماري كلير منحنية عليها. أراها تضع إبريق الماء فجأة على الأرضيّة الخشبيّة معلنة بذلك عن استسلامها لي. تزداد انحناء وتدير رأسها قليلاً فيلامس جزء من شعرها المنسدل أوراق النباتات المرويّة لتوّها.

المكان خال وموحش الآن. لا شيء فيه سوى طبقة رقيقة جدًّا من الغبار لا تكاد تبين، وآثار تحزّز خفيفة على الخشب خلّفتها الأصص الخزفيّة الثقيلة. فالنبتة الوحيدة التي تركتها لي ماري كلير بعد رحيلها أبعدتها عن النافذة قبل أن أضعها في ركن في الصالون.. في انتظار أن أجد الشجاعة الكافية للإلقاء بها في صندوق القمامة، إذ إنّي أدركت بسرعة أنّي عاجز عن رعاية مثل هذه الأشياء الحسّاسة لفترة طويلة.

أنتبه وأنا أتطلّع إليها أنّي لم أسقها منذ عدّة أيّام. أنهض وأتوجّه إليها. أقرّر وأنا أتحسّس أوراقها التي بدأت تجفّ وتذبل أن أسقيها فيما بعد عندما أدخل المطبخ لإعداد طعام العشاء. وفيما أجمع الأوراق الميتة المتناثرة على التربة أتذكّر أنّ ماري كلير كانت تذكّرني دائمًا باسم النبتة، لأنّي كنت أنساه باستمرار فهو اسم غريب وأشعر دائمًا أنّه يناسب حيوانًا بريًّا أكثر ممّا يناسب نبتة جميلة مثلها.

أتوقّف عن جمع الأوراق الميتة. وأطرد من ذهني كلّ ما يعبره من أفكار لكي لا يتشتّت انتباهي. وأركّز كلّ اهتمامي على اسم النبتة التي أهدتني إيّاها ماري كلير.. أحاول للحظات طويلة أن أتذكّره، إلاّ أنّي لا أستطيع.